الإمارات
THE EMIRATES

مراود

مجلة منوعة تعنى بالتراث الثقافي

العدد 47، أكتوبر، 2022، السنة السادسة

عدد خاص

ولي عهد الشارقة يفتتح ملتقى الشارقة الدولي للراوي

حكايات البحر SEA TALES

شعار الدورة الـ 22 لملتقى «الراوي»

برامج تراثية متنوّعة من 46 دولة وأكثر من 160 مشاركاً

«حكايات البحر» منبع الإلهام ومصدر الاستلهام

مراود العدد 47، أكتوبر، 2022، السنة السادسة

MARAWED Issue, 47,(OCT, 2022), The Sixth year

47

Issue, 47, (OCT, 2022), The Sixth year

MARAWED

Magazine Concerned With The Cultural Heritage

صدر حديثاً

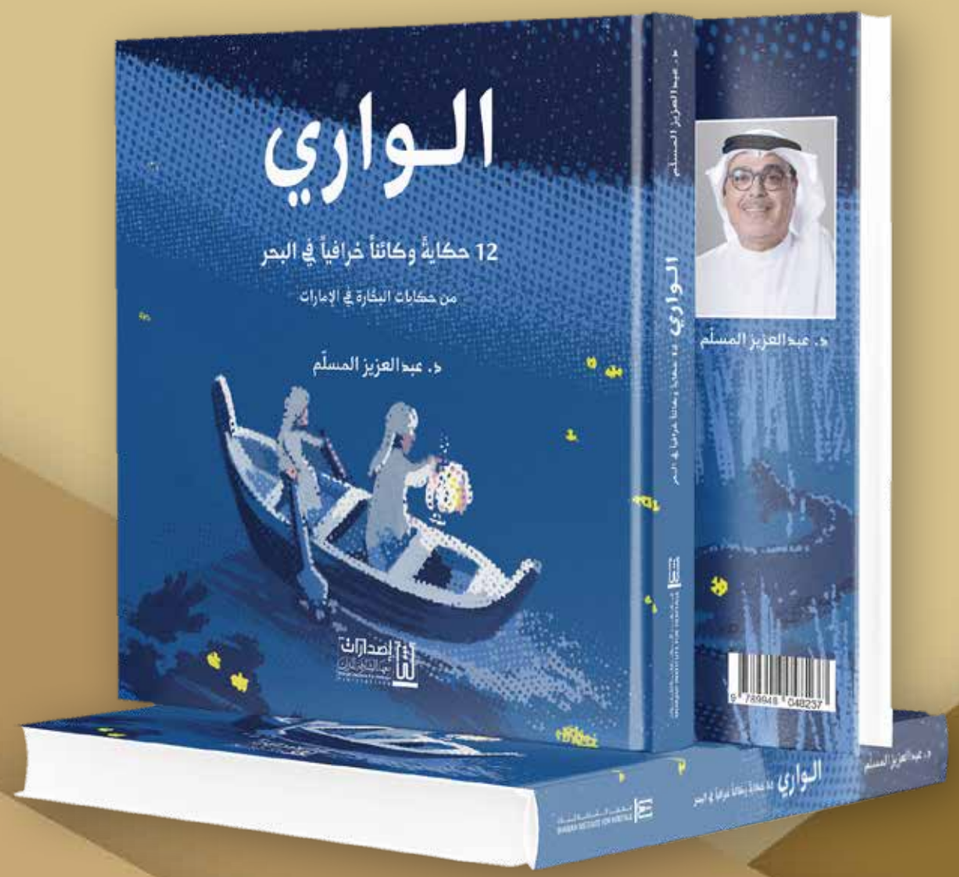

إدارة المحتوى والنشر
Content and Publishing Department

unesco
Centre
Under the auspices
of UNESCO

معهد الشارقة للتراث
SHARJAH INSTITUTE
FOR HERITAGE

مُرَاوِد

سياسة النشر

تعنى مجلة «مراود» بالتراث الثقافي الإماراتي بالدرجة الأولى، ثم العربي والعالمي، وتسعى من خلال أبوابها إلى الاضطلاع بتلك الغاية، والتركيز على موضوعات تراثية تتّسم بالجدة والموضوعية والتنوّع والشمول، ومقاربة التراث، بحثاً وتوثيقاً ودراسةً وتدقيقاً، كما تعمل المجلة على تتبّع تجليات التراث الثقافي في الأعمال الإبداعية الإماراتية والعربية من خلال الاحتفاء والتوظيف والاستحضار لمختلف عناصره ورموزه.

وتركّز المجلة على الموضوعات الثقافية والتراثية والإعلامية التي تلامس مختلف جوانب التراث الثقافي من مهن وحرف وألعاب وحكايات وأزياء وزينة وحلي وفنون وموسيقى.. وكل ما يتّصل بفروع التراث الثقافي وعناصره، محلياً وعربياً وعالمياً.

يشترط في المواد المقدّمة للنشر:

- الجِدّة والأصالة، وألا يكون سبق نشرها أو مقدّمة للنشر لدى مجلات أخرى.
- الموضوعية في الطرح والمصداقية في التناول.
- سلامة اللغة، وسلاسة الأسلوب.
- التوثيق العلمي وعزوُ كل قول إلى قائله.
- ألا تتضمن المواد ما ينافي المبادئ الأخلاقية والمقدسات الدينية أو يخدش الحياء، أو ينافي الذوق العام.
- ترفق مع المواد صور عالية الدقة والجودة.
- يراعى في ترتيب المواد المقدّمة للنشر الجانب الفني والموضوعي وفق رؤية هيئة تحرير المجلة.
- يحق لهيئة التحرير التصرف في صياغة المواد، متى كان ذلك ضرورياً، لتتماشى مع سياسة النشر، ومع الطرح الإعلامي المناسب للقارئ.
- إدارة التحرير غير ملزمة بشرح أسباب رفض نشر المواد ولا إرجاعها.
- المواد المنشورة لا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة، وإنما عن رأي كتّابها.
- تستقبل المواد والمشاركات على بريد المجلة الإلكتروني: **marawed@sih.gov.ae**

للتواصل مع إدارة التحرير:

0097165014898

marawed@sih.gov.ae

الافتتاحية

د. عبدالعزيز المسلّم

رئيس معهد الشارقة للتراث

رئيس التحرير

البحر وحكايته

يرتكزُ التراثُ الخليجيُّ في عمومهِ، ومنهُ الإماراتيُّ، على البحرِ الذي كانَ مدارَ الحياةِ، ومصدرَ الرزقِ والعيشِ والثروةِ، وقد نشأتْ منذُ آمادٍ بعيدةٍ علائقُ وطيدةٌ بينَ الإماراتيينَ والبحرِ، حيثُ كانتْ حياتُهم مُرتبطةً بالبحرِ وعوالمِهِ ومواسمِ ارتيادِهِ، ومنهُ نسجوا الكثيرَ من الحكاياتِ الشعبيةِ والخرافيةِ التي تعكسُ ذلكَ الارتباطَ الوثيقَ بالبحرِ، وظهرتْ أعلامٌ وشخوصٌ ورموزٌ ذاتُ محمولاتٍ ثقافيةٍ وتراثيةٍ، تنتمي إلى عالَمِ البحرِ؛ كالغواصينَ والنواخذةِ والطواويشِ وغيرِهم، وتشكّلتْ مهنٌ بحريةٌ عريقةٌ؛ مثلَ صيدِ الأسماكِ، واستخراجِ الأحجارِ المُرجانيةِ، والغوصِ على اللؤلؤِ، والأسفارِ عبرَ البحارِ والمحيطاتِ وغيرها من الحِرفِ والمِهنِ. وتتجلى مكانةُ البحرِ، وارتباطُهُ بحياةِ السكانِ في صُورٍ مختلفةٍ، حيثُ يبرزُ في الحكاياتِ والأمثالِ والفنونِ والأهازيجِ والحِرفِ والمهنِ والدّرورِ والمواسمِ وغيرِها من العناصرِ التراثيةِ الإماراتيةِ والخليجيةِ، ومِن شِدةِ ارتباطِ الناسِ بالبحرِ وعوالِمِهِ، تسمّتْ أغلبُ النساءِ بأسماءِ اللؤلؤِ، بل إنَّ أسماءَ مظاهرِ السطحِ؛ مثلَ «الفشت»، و«السيفة» وغيرِهما، كلُّها أسماءٌ مستلهمةٌ ومستمَدةٌ من الثقافةِ البحريةِ، كما يظهرُ تأثرُ الناسِ بالبحرِ وثقافتِهِ في الوصفِ والصفاتِ، كقولِهم: فلانٌ هامورُ، وفلانٌ ذيبةْ، وفلانٌ بحرٌ أو يمٌّ، وفلانٌ موجةٌ عاليةٌ.. وغيرِها من الصفاتِ التي تكشفُ بجلاءٍ حضورَ البحرِ، وتأثيرَهُ القويَّ في حياةِ الناسِ ومعاشِهم، وأحوالِهم المختلفةِ، وهذا ما حَدَانا وشجَّعَنا على الاحتفاءِ بالبحرِ وعوالِمِهِ الساحرةِ، وحكاياتِهِ العجيبةِ الآسرةِ في هذهِ الدورةِ الثنيةِ والعشرينَ من ملتقى الشارقةِ الدوليِّ للراوي، وهو احتفاءٌ يمتدُّ ليشملَ دولَ الخليجِ العربيِّ بأكملِها؛ لِمَا تمتلِكُهُ من مخزونٍ تُراثيٍّ، وإرثٍ تاريخيٍّ مشترَكٍ، يمتدُ إلى قُرونٍ طويلةٍ.

لذلك، اخترنا البحر شعاراً للدورة الجديدة من ملتقى الشارقة الدولي للراوي، محتفين بالموروثِ المتصلِ بالحكايةِ الإماراتيّةِ والعربيّةِ والإنسانيّةِ، كما أفردنا هذا العدد للحديث عن هذا الموضوع باستفاضة بمشاركة نخبة من الكتاب والباحثين

az.almusallam@gmail.com

المحتويات

العدد 47 – أكتوبر 2022

مراود

الغلاف

عدد خاص

حكايات البحر
SEA TALES

شعار الدورة الـ 22 لملتقى الشارقة الدولي للراوي

10 ولي عهد الشارقة يشهد انطلاق الدورة الـ 22 لملتقى الشارقة الدولي للراوي

42 «حكايات البحر» منبع الإلهام ومصدر الاستلهام

48 الخاريف وأدب الحكايات البحرية

52 هل تم توثيق تراثنا البحري ؟؟

66 البحر يغازل أبطال الحكايات

74 البحر في أرجوزة (الألفية الوردية) في التعبير

24 مسيرة الملتقى 22 عاماً من حماية الكنوز البشرية

70 البحر في الأمثال الشعبية في دولة الإمارات

36 الفنان إبراهيم جمعة: الأغنية البحرية تحتاج إلى اهتمام.. وملتقى الراوي سلط الضوء عليها

14 ملتقى الشارقة الدولي للراوي يأخذ زواره إلى «حكايات البحر»

78 سلطة البحر وحكايات الشعراء

82 فن الهوسات

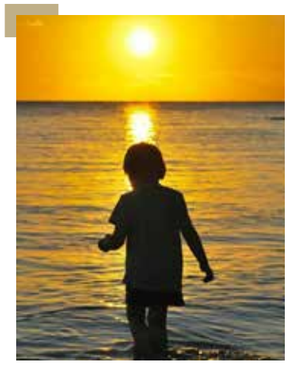

84 علاقة الأطفال بالبحر

88 أهازيج وطقوس النساء الكويتيات في القفال البحري

92 قصص البحر ذكريات من التراث والتقاليد الإماراتية

96 حكايات من البحر ذكريات مروية محفورة في الذاكرة

100 البحر في القرآن الكريم

104 «قصصنا البحري» ومخيلة القاص الشعبي

108 طقوس البحر في الأمثال الشعبية الإماراتية

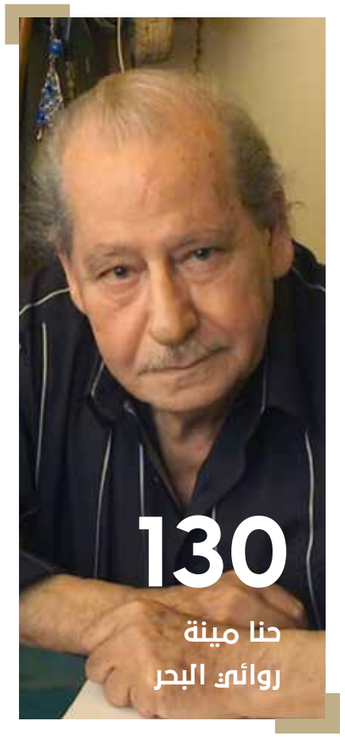

130 حنا مينة روائي البحر

114 رواة البحر في الإمارات النوخذة علي عبدالله الميرزا أحد رموز رواة السفر البحري

الآراء الواردة في المقالات، والتحقيقات، والمقابلات، تُعبر عن رأي أصحابها ومواقفهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي وتوجه المجلة، ويتحمل أصحابها المسؤولية الأدبية أمام الرأي العام، والقانونية أمام الجهات المختصة.

800TURATH

+971 6 5092666

marawed_sih

www.sih.gov.ae

ISBN 978-9948-37-768-9

مراود

مجلة منوعة تعنى بالتراث الثقافي

رئيس التحرير
د. عبد العزيز المسلم
رئيس معهد الشارقة للتراث

مستشار التحرير
د. ماجد بوشليبي
كاتب وخبير ثقافي

مدير التحرير
د. منّى بونعامة
مدير إدارة المحتوى والنشر

هيئة التحرير
أ. علي العبدان
أ. عتيج القبيسي
أ. عائشة الشامسي
أ. سارة إبراهيم

سكرتير التحرير
أحمد الشناوي

التصميم والإخراج الفني
منير حمود

التدقيق اللغوي
بسام الفحل

التصوير
قسم الإعلام

ولي عهد الشارقة يشهد انطلاق

الدورة الـ 22 لملتقى الشارقة الدولي للراوي

شهد سمو الشيخ سلطان بن محمد بن سلطان القاسمي ولي العهد نائب حاكم الشارقة، افتتاح فعاليات الدورة الثانية والعشرين لملتقى الشارقة الدولي للراوي تحت شعار «حكايات البحر»، والذي تقام فعالياته في مركز إكسبو الشارقة، والذي استمر ثلاثة أيام من 21 وحتى 23 سبتمبر الماضي، بمشاركة إقليمية ودولية واسعة.

بدأ حفل الافتتاح بآيات من الذكر الحكيم، تلاه عرضٌ مرئي جسّد فكرة شعار الدورة الحالية للملتقى والتي تجمع حكايات البحر وتاريخها الزاهر في الذاكرة الشعبية الإماراتية، وفي مختلف الدول العربية.

وتابع سمو ولي العهد نائب حاكم الشارقة، خلال عروض الافتتاح، فقرة عن فن النهمة والتي قدمها مجموعة من الفنانين، وهي وصلة فنية غنائية تناولت نماذج من هذا الفن البحري العريق، وأنغامه وأشعاره المتنوعة المحتوى، والتي رافقت الصيادين خلال رحلاتهم البحرية في الماضي. وتضمنت الفقرة التي أتت بمصاحبة عرض مرئي على الشاشة، أناشيد منوعة تحث على الشوق للديار، والقيم الأصيلة، إلى جانب بعض الأهازيج التي تمجد المناسبات الدينية.

قدم بعدها الدكتور عبد العزيز المسلم، رئيس معهد الشارقة للتراث، كلمةً، أكد فيها على الدعم اللامحدود لصاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، للثقافة المحلية الإماراتية والعربية، وتكريم رموزها المبدعين، وعلى تلاحم الأجيال الوطنية المبني على الفخر بالتراث، والاعتزاز بالهوية، مستعرضاً العلاقة الوطيدة بين الإماراتيين والبحر، حيث كانت حياتهم مرتبطة به وبعوالمه ومواسم ارتياده، ومنه نسجوا الكثير من الحكايات الشعبية والخرافية.

وقدم الشكر والتقدير إلى سمو ولي العهد لتشريف سموه حفل الافتتاح وتكريم الشخصيات المختارة.

وقال المسلم تأتي الدورة الجديدة محتفية بالموروث الحكائي الإماراتي والعربي والإنساني الغني والزاخر

والمتنوّع، لنغوص معكم في أعماق البحر، ونرتاد معاً عوالمه الغرائبية والعجائبية، كونها تبرز جانباً مهماً وملهماً من المخيال الشعبيّ الغنيّ، والتمثّل الذكي لرموز الحكايات ودلالتها، وارتباطها بواقع المجتمعات، وما ترمز إليه، أو تحيل إليه من معانٍ ترتبط بحياة الناس في علاقتهم بالبحر في صور مختلفة، حيث يبرز في الحكايات والأمثال والفنون والأهازيج والحرف والمهن والدّرور والمواسم وغيرها من العناصر التراثية الإماراتية والخليجية.

وتناول المسلم خلال كلمته، أبرز ما تتضمنه الدورة من فعاليات ومشاركات متنوعة وعروض مختلفة.

وتفضل سمو الشيخ سلطان بن محمد بن سلطان القاسمي بتكريم عدد من الشخصيات وهم: الفنان الإماراتي إبراهيم جمعة الحاج (ضيف شرف الملتقى)، وعائلة الشاعر الكويتي الراحل محمد فايز العلي (الشخصية الاعتبارية للملتقى)، بالإضافة إلى نخبة من

الـرواة البارزيـن والشـخصيات المبدعـة في مجـال الحكايـة الشـعبية، وهـم: راشـد محمـد الشـحصي الزعـابي، وناصر خليفـة عبيـد بوشـبص، وحثبـور محمـد كـداس الرميثـي، وحميـد بـن خليفـة بـن سـالم بـن ذيبـان.

وبعـد نهايـة حفـل الافتتـاح تجّـول سـمو الشـيخ سـلطان بـن محمـد بـن سـلطان القاسـمي في أجنحـة وأركان الملتقـى، مطلعـاً سـموه عـلى المعـرض المصاحـب الـذي تمحـور حـول شـخصية المـلاح والعـالم الفلـكي الإمـاراتي أحمـد بـن ماجـد. واسـتمع الى شرحٍ مفصّـل حـول مـا يتضمنـه الجنـاح مـن مقتنيـات ومخطوطـات وشروحـات تبـين دور ومكانـة هـذا المـلاح الشـهير. كـما تفضـل سـموه بزيـارة عـدد مـن الأجنحـة المتنوعـة المشاركة في هـذه الـدورة من الملتقى، منها: مقهـى الـرواي، ومكتبـة الملتقـى، وهيئـة البيئـة والمحميـات الطبيعيـة، وهيئـة الشـارقة للوثائـق والأرشـيف، ومـشروع ثقافـة بـلا حـدود، بالإضافـة إلى المكتبـة الوطنيـة، ونـادي تـراث الإمـارات، ومركـز حمـدان بـن محمـد لإحيـاء الـتراث، والعديـد مـن المرافـق المتنوعـة الأخـرى.

وتوقـف سـموه عنـد ركـن (حكايـات بحـار) حيـث تابـع سـموه عرضـاً لعـدد مـن الأهازيـج البحريـة التراثيـة التـي تشـكل

جـزءاً مـن الذاكـرة الشـعبية البحريـة في دولـة الإمـارات العربيـة المتحـدة.

وتنطلـق الـدورة الحاليـة بمشـاركة أكـثر مـن 160 خبـيراً وباحثـاً تراثيـاً وحكواتيـين وإعلاميـين مـن 46 دولـة، للمشـاركة في العديـدَ مـن البرامـج الثقافيـة والفكريـة، والـورش التدريبيـة، والفعاليـات الجماهيريـة، مـن بينهـا 13 ورشـةً، منهـا 3 ورشٍ استباقيةٍ، و10 ورشٍ خـلال الملتقـى، بمشـاركة نخبـة مـن الباحثـين والخـبراء والدارسـين، بالإضافـة إلى مقهـى الـراوي، ومكتبـة الملتقـى، وركـن التواقيـع والإطلاقـات، إلى جانـب كـمٍّ كبـيرٍ مـن الكتـب والكُتيبـات القيّمـة، والنـشرات الإخباريـةِ التـي تحتفـي بشـعار هـذه الـدورة، وهـي تزيـد عـلى 40 عنوانـاً.

حـضر حفـل الافتتـاح والجولـة، إلى جانـب سـمو ولي العهـد كل مـن الشـيخ سـالم بـن عبـد الرحمـن القاسـمي رئيـس مكتـب سـمو الحاكـم، والشـيخ سـالم بـن محمـد بـن سـالم القاسـمي مديـر هيئـة الإنمـاء التجـاري والسـياحي، كـما حـضر كل مـن: خالـد جاسـم المدفـع رئيـس هيئـة الإنمـاء التجـاري والسـياحي، وعـدد مـن المسـؤولين في الدوائـر الحكوميـة المحليـة، والفنانـين والـرواة مـن مختلـف الـدول العربيـة، والمهتمـين بالـتراث والإعلاميـين.

ملتقى الشارقة الدولي للراوي

يأخذ زوّاره إلى «حكايات البحر»

يجمع ملتقى الشارقة الدولي للراوي سنوياً كوكبة من أهم الباحثين والرواة من العالم العربي وخارجه، كما يمتاز الحدث بالمزج بين الندوات والمقاهي الثقافية والفعاليات، علاوة على تقديمه الأماسي الحكائية والقصص التي تعتبر من تراث البشرية غير المادي، والتي من شأنها أن تسهم في بناء جيل متشبع بماضيه وقِيمه.

وشهد «ملتقى الشارقة الدولي للراوي»، بدورته الـ22، الذي نظمه معهد الشارقة للتراث، خلال الفترة من 21-23 من شهر سبتمبر، عقد جلسات أكاديمية مهمة، تحدث فيها أكاديميون ومتخصصون ومهتمون وعشاق للفن الشعبي، توزعت على ثلاث عشرة جلسة، ناقشت حكايات البحر في التراث العربي، ومنها البحر في المصادر العربية القديمة، وتجليات حكاية البحر في التراث العالمي، وحكايات البحر الفرعونية وأثرها في الأدب العربي، ومفهوم البحر في الوجدان الشعبي، والبحر وعوالمه في مصادر مكتبة جمعة الماجد، وعجائب الخالق البحر، وحكايات البحار في الألفية الجديد، والبحر وأهواله في أدب

الرحلة، وحكايات وقصص رجالات البحر في الساحل الريفي المغربي، وسرديات البحر في التراث العربي، والبحر في المتخيل الشعبي المغربي، وتوثيق عناصر الماء في التراث الشعبي العربي، والبحر في الأمثال الشعبية الإماراتية، والتراث البحري في الإمارات من الكتاب المسطور إلى الحدث المنظور، ومن تراث الغوص في الكويت، وأساطير البحر من أوريون إلى سلامة وبناتها، وأسرى البحر وأحرار اليابسة، والحكايات والأمثال البحرية في تونس، ونور خلف سبعة بحور، والواري وكائنات خرافية أخرى من البحر، وابن ظاهر في الغوص، وعوالم البحر في شعر راشد الخضر، وحكايات البحر في تراث الإمارات...

فعاليات شغوفة

فضاءات الملتقى شهدت فعاليات شغوفة أخرى، فهناك فعاليات المدرسة الدولية للحكاية، التي نظّمت مجموعة من الفعاليات والأنشطة التعليمية والثقافية والترفيهية لمجموعة من البراعم الأطفال، ومنها ورش تعليمية للأطفال، كورشتي تركيب نماذج للحيوانات البحرية، وأسماك الزينة. وفي زيارة لجناح «مغرب الحكايات»، ضمن ملتقى الراوي، تستطيع أن تلمس تراث المغرب الغني بالأهازيج والحكايات التراثية الممزوجة بالموسيقى الإفريقية، كل هذه الفنون تجدها مقدمة مع إبريق الشاي المغربي، رمز الضيافة المغربية، والديكورات التي تزيّن المكان، فتجد نفسك وأنت تتجول في الملتقى كأنك سافرت عبر الزمن إلى القصص القديمة في المغرب العربي الكبير.

كما أن جناح حكايات بحار تم تخصيصه لاستعراض الفنون البحرية، لاسيما فن النهمة، وهو الغناء الذي يواكب سير العمل في السفينة، وهو مقصور على البحر والبحارة في سواحل الخليج العربي، وأن من يدخل يلاحظ وجود شاشة لعرض مقتطفات من أوبريت مذكرات بحّار، للشاعر الكبير الراحل محمد الفايز، الذي تم الاحتفاء به كشخصية اعتبارية خلال افتتاح المهرجان، كما أن المسرح مصمم على شكل ظهر سفينة، حيث تعرض عليها الفرق الممثلة لدول الخليج العربي في هذا الفن العام.

جناح «التبراة» هو في الأساس ركن خاص لأخذ صور للذكرى مع الملتقى، وتم اختيار التبراة كشيء يتعلق بالتراث الإماراتي «الكي ر كود»، والسبب في ذلك أن نضيف المصطلحات التي ترتبط بالتراث البحري، ليتعرّف الجمهور إلى هذه

المصطلحات كذكرى للجمهور، وقد التقط الجميع الصور، لاسيما الباحثون والأكاديميون. والتبراة هي الهير المملوء بالمحار الغني باللؤلؤ.

كما نظم جناح جزيرة الدانات ورشة عمل وفعالية الحكواتي لفئة الأطفال، لتعريفهم بالذاكرة الشعبية البحرية.

«حكايات بحار»

وهناك ركن للفنان التشكيلي السعودي عبدالعظيم الضامن، الذي اختير لعرض لوحاته التي عنوانها «حكايات بحار»، أن موضوع اللوحات هو عبارة عن بحار هجر سفينته، لكنها أبت أن تهجر الشواطئ، فبقيت صامدة حتى تهاوت، وتحولت إلى قصة ملهمة، يرى الجمهور من خلال فتحات السفينة إطلالة أخرى نحو العالم بروح جديدة مستمدة من روح البحار، كما جعل الضامن معرضه متحركاً وحيوياً، إذ شارك الجمهورُ في رسم جزء من تفاصيل لوحة كبيرة أخرى، بألوان سمّاها «ألوان السعادة»، لعله يخرج بها من هذا الملتقى بذكريات جميلة.

ورش فنية

الفنان محمد عبدالعزيز الأكيابي، من جمهورية مصر العربية، قدم رؤية جديدة لأسطورة «سلمى وبناتها» البحرية الشعبية الإماراتية، في ورشة جمعت بين التمثيل، وتقنيات خيال الظل، وصاحبت ذلك مؤثرات بصرية وسمعية، فصوّرت الأسطورة سلمى وبناتها والبحارة بلباسهم الفولكلوي، لتقريب الحكاية من الأذهان، وبيّن الأكيابي أن الهدف من العرض هو توثيق تراث إماراتي مهم، وتقديمه للأجيال الجديدة بتقنيات معاصرة، وهو من إخراج أماني محفوظ، وتمثيل حسام عبدالعزيز، وموسيقى محمد حسني.

ورشة فنية جميلة أخرى كانت من نصيب الفنانة الكورية الحكواتية اليشيا (بانغ دانغ جو)، التي أخذت

الأطفال في سرد مؤثر لحكاية شعبية عن سبب ملوحة البحر، فأنصت الأطفال باهتمام ليتعرفوا إلى قصة الحجر السحري (المالح) الذي سرقه أحد اللصوص من الملك، وابتلعه كي يخفي جريمته، وعندما علموا به لاحقوه ليهرب إلى البحر، لكنّ الحجر السحري كان ثقيلاً، فهبط به إلى أعماق البحر، وهناك أصبح مالحاً!

الجهات الحكومية المشاركة

شارك عدد من الجهات الحكومية في فعاليات ملتقى الشارقة الدولي للراوي، من خلال ورش وجلسات وأنشطة عدة، تناولت كل ما يتعلق بالبحر من حكايات وقصص ومهن بحرية وغيرها، منها هيئة البيئة والمحميات الطبيعية بالشارقة، وهيئة الشارقة للوثائق والأرشيف، ومركز حمدان بن محمد لإحياء التراث، ونادي تراث الإمارات، والأرشيف والمكتبة الوطنية بأبوظبي، ومشروع ثقافة بلا حدود، فضلاً عن عدد من المراكز الثقافية والجمعيات، منها جمعية ابن ماجد للفنون

الشعبية والتجديف برأس الخيمة، ومن المملكة المغربية الشقيقة تشارك جمعية لقاءات للتربية والثقافات.

ضمن البرنامج المصاحب لـ«ملتقى الراوي»
عبدالعزيز المسلّم يفتتح معرض «رحلة في عوالم التراث البحري»

افتتح سعادة الدكتور عبدالعزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقة للتراث رئيس اللجنة العليا المنظمة، معرض «رحلة في عوالم التراث البحري»، المصاحب لملتقى الشارقة الدولي للراوي، وذلك بحضور لفيف من الكتّاب والخبراء والأكاديميين من 46 دولة.

واشتمل المعرض على عرض ضافٍ حول التراث البحري،

وما يتّصل به من معارف شعبية؛ كالفنون الشعبية، والغوص بحثاً عن اللؤلؤ، وصيد الأسماء، والحكايات والأهازيج المرتبطة بعوالم البحر، كما تضمن المعرض معلومات غنية ومتنوّعة عن تراث أحمد بن ماجد، ومصادر التراث العربي، ومقتنيات من التراث البحري، ونخبة من الإصدارات المصاحبة لهذه الدورة، بالإضافة إلى استعراض معلومات قيّمة عن الفنان والمبدع إبراهيم جمعة، أيقونة التراث الفني في الإمارات، الشخصية الفخرية لهذه الدورة، والشاعر الراحل محمد الفايز، الذي شكّل كتابه «مذكرات بحار» حالة إبداعية فريدة، تحقق للقارئ المتعة والفائدة، وترتحل به في عوالم البحر على قوافي الشعر.

تأكيد دور إمارة الشارقة المؤثر والمشرق في فضاء الثقافة العربية والعالمية

وفي ختام الملتقى رفع المشاركون في فعالياته أسمى آيات الشكر والعرفان إلى صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، على ما أولاه سموه من دعم ورعاية كبيرين للملتقى خاصة، وللثقافة الشعبية المحلية والخليجية عامة، وأثر ذلك في نمو الأعمال الفنية الشعبية، وتعزيز التعاون المحلي والعربي والدولي المشترك في هذا المجال.

وفي هذه المناسبة، قال سعادة الدكتور عبدالعزيز المسلّم، رئيس معهد الشارقة للتراث رئيس اللجنة المنظمة العُليا لملتقى الراوي: «تميزت دورة العام الحالي بكثير من النشاطات، وحازت، بما تضمنته من إنجازات، إعجاب وثناء المشاركين والمهتمين، حيث نستمر في سبر أغوار هذا العالم المدهش المملوء بالحكايات، وبلاشك، فإن كل هذه الإنجازات والمسيرة الحافلة ما كانت لترى النور وتصل إلى العالمية، لولا الدعم الدائم وغير المحدود من صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، الذي يذلل الصعوبات، ويسخّر كل الإمكانات لنجاح الفعاليات الثقافية، وتأكيد دور الشارقة المؤثر والمشرق في فضاء الثقافة العربية والعالمية».

آثار إيجابية للأبحاث والإصدارات التي ستشكل لبنات مرجعية وأكاديمية في التراث الشعبي البحري

قالت عائشة الحصان الشامسي، مديرة مركز التراث العربي، التابع للمعهد، المنسق العام للملتقى: «كانت أيام الملتقى الثلاثة حافلة بالنقاش، قُدّمت خلالها عشرات الورقات العلمية الرصينة، وبحث فيها المشاركون قضايا متعددة ومتشعبة حول التراث البحري وعوالمه ورموزه وكنوزه، وسيكون لهذه النقاشات أثر إيجابي مُبهِر، يضاف إلى الآثار الإيجابية للأبحاث والإصدارات التي ستشكل لبنات مرجعية وأكاديمية في التراث الشعبي البحري».

ورفعت عائشة الحصان الشامسي، في ختام فعاليات الملتقى، عدداً من التوصيات المهمة، من بينها أهمية التسريع لإرساء بنيات رقمية تفاعلية ذات صلة بالرواة والكنوز البشرية الحية المحلية والإقليمية والدولية، وتعزيز وتقوية العمل بمعايير دولية، وتحديداً معايير منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو)، وتوسيع المواد التراثية وإتاحتها عبر بوابات رقمية تحت إشراف خبراء ومتخصصين في المجال، ورصد التراكم الكمّي والكيفي في العمل مع الرواة، عبر وضع كشف ببياناتهم ومهاراتهم، وتحديد خصائص مادتهم. كما أوصى الملتقى بضرورة توسيع دائرة مشاركة الأطفال واليافعين والشباب، خاصة على المستوى المحلي، في فعاليات الملتقى، وتحديداً في سرد الحكايات، وتشجيعهم ورعايتهم ومتابعتهم، من خلال المدرسة الدولية للحكاية، التابعة لمعهد الشارقة للتراث.

ومن أجل تعزيز العمل العربي المشترك دعا المشاركون إلى تأسيس اتحاد للعاملين في التراث الثقافي العربي، يضم أعمالهم، ويكون له دور في صون التراث غير المادي، والمحافظة عليه، كما طالب المشاركون بإعداد دبلوم متخصص في فنون الأداء الشعبي، على أن يتم التركيز على فنون الأداء البحري، خاصة أنها مهددة بالانقراض، وأن يتولى هذا الدبلوم، إدارة التراث الفني بمعهد الشارقة للتراث.

تكريم حافل بالمشاعر الصادقة

وتضمن ختام ملتقى الشارقة الدولي للراوي تكريم سعادة الدكتور عبدالعزيز المسلّم وعائشة الحصان الشامسي أبرزَ الرواة وفرق فن النهمة المحلية، والجهات الرسمية المشاركة، والرعاة، والضيوف، والمشاركين من داخل دولة الإمارات العربية المتحدة وخارجها، كما صفق الحاضرون طويلاً لدى تكريم ممثلي المملكة العربية السعودية، مشاركة منهم في فرحة اليوم الوطني، وتعبيراً عن الأخوة والروابط الوثيقة التي تربط البلدين والشعبين الشقيقين في دولة الإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية.

مسيرة الملتقى

22 عاماً من حماية الكنوز البشرية

يعدّ ملتقى الشارقة الدولي للراوي حدثاً ثقافياً محورياًعلى قائمة الأجندة الثقافية في إمارة الشارقة، وعلى مستوى دولة الإمارات والوطن العربي فالعالم، لما له من دور بارز في الاحتفاء بكنوز التراث وحرّاس الذاكرة وحماة الهوية، وتقديرهم وتشجيعهم على حفظ التراث وتوثيقه وصونه من الضياع والاندثار. وقد مر الملتقى - منذ أن كان يوماً خاصاً بالرواة، إلى أن أصبح ملتقى دولياً - بمراحل متعدّدة، شكلت علامة فارقة في تاريخه، وقدّمت صورة مشرّفة عن الجهود المبذولة من أجل تكريم الكنوز البشرية من الرواة وحملة الموروث الشعبي على مستوى العالم.

راشد الشوق

ميلاد الفكرة

انطلق برنامج الراوي بشكل مبسّط في الدائرة الثقافية بإمارة الشارقة عام 1987، من خلال وحدة التراث، بإشراف سعادة الدكتور عبدالعزيز المسلّم، أما الراوي الأول، فقد كان الوالد راشد الشوق ــ رحمه الله ــ الذي كان راوياً موسوعياً مقتدراً وبامتياز، والذي توفي في 26 سبتمبر عام 2000. وقد جاء انطلاق «يوم الراوي» في العام التالي لوفاته؛ أي عام 2001، كحدث سنوي دائم، تكريماً له ولحملة الموروث الشعبي، بمشاركات محلية وخليجية فقط، ثم تطورت الفعالية لتصبح ملتقى دولياً لتكريم الرواة والكنوز البشرية، بمشاركة دولية واسعة، تعدّت الـ25 دولة، وظلت في زيادة مطردة، من خلال شعارات جامعة ذات بُعد تراثي عميق؛ للاحتفاء بها في الدورات المتتالية: «فنون الراوي، جحا.. تراث إنساني مشترك، السير والملاحم، الحكايات الخرافية، ألف ليلة وليلة، الاحتفال بالعشرين».

فنون الراوي

كانت الدورة الخامسة عشرة بداية منعرج جديد في تاريخ «الراوي»، ومنها انتقل من طوره المحلي العربي إلى الفضاء العالمي الأوسع، ليصبح ملتقى الشارقة الدولي للراوي، محتفياً بفنون الراوي بمختلف تصنيفاته: راوي الحكايات، الحكم والأمثال، التاريخ الشفهي. وقد كانت هذه الدورة مميزة بفعالياتها المتنوّعة، وأنشطتها الثقافية التي ركزت في جوهرها على شعار هذه الدورة، وما يتّصل به.

جحا

تراث إنساني مشترك

انطلقت الدورة السادسة عشرة من ملتقى الشارقة الدولي للراوي في الفترة ما بين 26 و28 سبتمبر 2016، تحت شعار «جحا تراث إنساني مشترك»، مشكّلة إضافة جديدةً، ونقلة مهمةً تُضاف إلى مسيرة الملتقى، المكلّلة بالنجاح، وفتحت الأبواب مشرّعة للاحتفاء بتراث شخصية تاريخية وتراثية ملهمة، عرفت في الذاكرة العربية الشعبية والعالِمَة بـ«جحا»، لإحياء تراثه، ونفض الغبار عن نوادره وحكاياته، بوصفها تراثاً إنسانياً مشتركاً، حيث تُعَدّ هذه الشخصية حاضرةً بقوة في حضارات الشعوب وثقافات الأمم الأخرى، وإنْ بسمات متعددة وصفات مختلفة، فهناك جحا العربي، وجحا التركي، والإيراني، وفي بلغاريا أيضاً غابروفو المحبوب، وأرتين أرمينيا، صاحب اللسان السليط، وآرو يوغسلافيا المغفل... إلخ، وكل الثقافات الإنسانية تمتلك تراثاً سردياً فكاهياً يضاهي شخصية جحا العربي، ويشابهها إلى حدّ يشبه التطابق ـ في بعض الأحيان ـ ما جعل مؤرخي الآداب وباحثي التراث يخلطون بين شخصيات جحا المتعدّدة، ويعزون قول هذا لذاك وهكذا دواليك، وإن كان الجوهر واحداً، حيث يحيل إلى شخصية جحا الفكاهي والذكي البارع الذي يدعي الحماقة.

أما جحا العربي فهو شخصية من الشخصيات التي اشتهرت بالظرافة والطرافة والفكاهة والنوادر، ولا يكاد يخلو مجلس أو سَمَر من ذِكْرِهِ واستحضار سيرته، والاحتفاء بمسيرته التي طُبِعت بطابع الحمق والغفلة والخرافة والجنون حيناً، والذكاء والدهاء وقوة التخلّص وسرعة البداهة حيناً آخر.

تضمن البرنامج الفكري لهذه الدورة ندوتين وطاولة مستديرة، ناقشت الندوة الفكرية الأولى شخصية جحا في التراث والتاريخ، عبر مجموعة من الورقات البحثية التي قاربت هذه الشخصية من نواحٍ عدة، منها الرمز الفني والبعد التاريخي، ثم حضور الشخصية وتوظيفها في الفنون المعاصرة، من خلال استلهام صوره المختلفة، ووجوهه المتعددة في مجمل الثقافات الإنسانية.

واحتفت الندوة الفكرية الثانية بالرواة الشفويين والباحثين التراثيين الذين قضوا نحبهم وتركوا إسهاماتهم وبصماتهم خالدة، تذكي جذوة الوعي، وتنير دروب البحث الوعرة، وذلك من خلال انتخاب عدد من الأسماء البارزة والعلامات الفارقة، من الذين شكّلت أعمالهم منعرجاً مهماً في توثيق التراث الإماراتي وحفظه وصونه، شارك فيها نخبة من الباحثين الإماراتيين، بمقاربات تميط اللثام عن جوانب مهمة في تدوين الثقافة الشعبية والتاريخ الشفوي.

أما الطاولة المستديرة، فقد استعرضت مداخلات متعددة ركزت على مظاهر استلهام جحا في الثقافة العربية والإنسانية في النصوص الإبداعية والمسرحية والسينمائية وغيرها كثير، مما يعبّر عن تواصل وارتباط الثقافة المعاصرة بالتراث الأصيل والعريق لشخصية جحا.

وركز المقهى الثقافي على شخصيات جحوية من مناطق عربية مختلفة، وهي شخصيات شابهت في سيرتها ومسيرتها شخصية جحا، من حيث الاتكاء على الطرفة والنادرة في لفت انتباه العامة، وتوظيف الرمز للتعبير عن مكنون الذات، وما يدور فيها من أفكار وتصورات.

كما احتفت هذه الدورة بشخصية الدكتور سعد الصويان، الباحثة الكبير، الشخصية الفخرية للملتقى، تقديراً لإسهاماته القيّمة في مجال توثيق التراث وبَحْثِه ودِرَاسَتِه، ومجمل أعماله الثقافية والفكرية المتعدّدة.

السير و الملاحم
Saga & Epics

احتفت الدورة السابعة عشرة من ملتقى الشارقة الدولي للراوي بـ: السّير والملاحم خلال الفترة 25–27 سبتمبر 2017، بمشاركة عربية ودولية، وركزت الدورة على التعريف بالسّير والملاحم في التراث العربي والعالمي، حيث عرفت الأمم الماضية والشعوب الغابرة في تاريخها القديم الملاحم الشعرية؛ للتّغني بالأمجاد ومغامرات الأبطال الخارقين، وسيرّهم الغرائبية، وصفاتهم الفارقة، وهيئاتهم المائزة، وتوزّعت جغرافياً على مختلف أنحاء العالم القديم (بلاد الرافدين، اليونان، الرومان، الهند، بلاد فارس، آسيا الوسطى والشرقية، وإفريقيا..)، حيث توّج القدماء إنتاجهم الشعري بالملاحم، وهي تمثّل أنموذجاً متميزاً من الأدب الكلاسيكي، الذي ظهر أول مرة في الشرق الأدنى القديم، وبخاصة في بلاد الرافدين، التي شهدت ميلاد ملحمة جلجامش، والتي تعدّ أوَّل وأطول وأكمل ملحمة عرفتها الحضارات الإنسانية، قبل أن ينتشر هذا النموذج الملحمي ويتمدّد على نطاق واسع، حاملاً معه هويته الثقافية، وخصوصيته المحلية؛ فظهرت الإلياذة والأوديسة في بلاد اليونان، وهما من تأليف الشاعر الكبير هوميروس، ثم نسج الشاعر الروماني فرجيل على منوال سابقه، وأبدع

ملحمته الشهيرة «الإنياذة» التي مجّد فيها موطنه روما، وهي وسابقاتها، من أولى الأعمال التي انتقلت من مرحلة الأدب الشفاهي، أدب الرواة المتوارث، إلى الأدب المكتوب، وكذلك كانت أساطير الهنود والمصريين والعرب والعبرانيين في الشرق الأوسط، مع البون الشاسع - تاريخياً وموضوعياً - بين الملاحم التي استقت مادتها مباشرة من التراث الشفاهي، واتسمت بخصائص مائزة، والملاحم الأخرى التي كتبت محاكاة لها، لذلك قسّم بعض الدارسين الملاحم إلى نوعين: الملحمة البدائية والملحمة المصطنعة. ومن جملة الملاحم المشهورة: جلجامش، الإلياذة، الأوديسة، مناس، رامايانا، المهابهارتا، الكاليفالا، البوولف، أنشودة رولان، الإنيادة لفرجيل، فارساليا للوكان، تحرير بيت المقدس لتاسو، والفردوس المفقود لجون ميلتون، وغيرها من الملاحم.

وثمة أعمال شعرية طويلة أخرى، يمكن وصفها كذلك بالملحمة، وفق التحديد المذكور، ومنها: الكوميديا الإلهية لدانتي، ومسخ الكائنات لأوفيد، وقصيدة ملكة الجان لسبنسر وغيرها كثير.

كما اجتذب الوجدان الشعبي العربي بعض الشخصيات التي اعتبرها مثلاً وقدوة ورمزاً، يحقّق القيم الدينية والقومية والاجتماعية، وهذا ما يفسّر - في الحقيقة - سرّ انتشار عددٍ من السيّر الشعبية التي قامت في أساسها على شخصية بطل أو مجموعة أبطال، مثل: سيرة سيف بن ذي يزن، والزير سالم، وعنترة بن شداد، والأميرة ذات الهمة، وبني هلال، وأبو زيد الهلالي، والظاهر بيبرس وغيرهم من النماذج التي شاعت وذاعت في مصادر التراث العربي وتلقاها الناس بالقبول، ونسجوا على منوالها، كما كانت ملهمة للفنانين والمبدعين في إبداع أعمال فنية وثقافية ارتكزت في أساسها على شخوص السيّر العربية وأبطالها.

وينسب تدوين بعض تلك السيّر إلى شخص واحد، وأحياناً إلى مجموعة أشخاص، وظلت تنشد وتردَّد على الجماهير في المناسبات العامة، مازجة بين الحقيقة والخيال، على نحو تبدو فيه بعض حلقاتها أقرب إلى الجنوح إلى الخيال، من ارتكازها على الحقيقة.

اتخذت الدورة الثامنة عشرة من ملتقى الشارقة الدولي للراوي من الحكايات الخرافية شعاراً، خلال الفترة 24-26 سبتمبر 2018، وسلّطت الضوء على تراث الحكايات الخرافية، بوصفها الخيط الناظم لثقافات الشعوب والتراث الإنساني برمته، حيث تبرز جانباً مهماً وملهماً من المخيال الشعبي الغني، والتمثّل الذكي لرموز الحكايات ودلالتها وارتباطها بواقع المجتمعات، وما ترمز إليه أو تحيل إليه من معانٍ ترتبط بحياة الناس، ومع ذلك، فإن كل شعب من الشعوب اتخذ في سرد حكاياته وعرضها شكلاً ولوناً مختلفين، وهذا ما يسعى «ملتقى الراوي» هذا العام للكشف عنه، وإبراز مدى دوره في إثراء المخيال الشعبي، والذاكرة الجمعية، وترابط وتشابه الحكايات الخرافية في كل الثقافات، رغم اختلاف البنية الثقافية والخصوصية المحلية، والنسق المعرفي الذي تشكّلت تلك الحكايات في كنفه.

وقد نسج المخيال الشعبي في الإمارات العديد من الحكايات الخرافية المستوحاة من البيئة الإماراتية، بتعدّد مشاربها وألوانها وطبيعتها، فجاءت متناغمة مع حياة الناس، وانعكاساً للفضاءات المفتوحة على كل الاتجاهات، ومن تلك الحكايات التي اشتهرت في الإمارات، وتناقلها الرواة جيلاً بعد جيل «أم الدّوّيس» و«بديحة» وغيرهما.

وركّز الملتقى في هذه الدورة، من خلال طاولة مستديرة، على عرض العديد من المقاربات التي تحتفي بتراث الحكايات، وتستكشف عناصره ورموزه، بالإضافة إلى المجاورة الحكائية، والورش المصاحبة للملتقى.

احتفت الدورة التاسعة عشرة من ملتقى الشارقة الدولي للراوي بتراث «ألف ليلة وليلة» في الـ24 من سبتمبر 2019، واستمرت لمدة ثلاثة أيام، واشتمل البرنامج الثقافي على مجموعة من الورش العملية والأنشطة التفاعلية الموجهة بالأساس للأطفال، والتي انبثقت أسماؤها من كتاب ألف ليلة وليلة، مثل: (المصباح المضيء) و(البلورة السحرية) و(مجوهرات الأميرة ياسمينة). كما اشتمل البرنامج على جلسة حوارية عن (ألف ليلة وليلة في الدراما الكويتية)، وفعاليات أخرى متنوعة، بالإضافة إلى المعرض المصاحب، وعدد من الإصدارات الثقافية المتنوعة.

واستحضرت الدورة عالم ألف ليلة وليلة، الذي سحر العالم بروعة حكاياته، وتنوّع رواياته، وجمال فضاءاته وأخيلته وعناصره ورموزه، تلكم الحكايات التي ارتكزت في أساسها وبنيتها وموضوعها على الرواة والمعارف الشعبية، والتناقل الشفاهي، قبل أن تستحيل نصوصاً مكتوبة وموثّقة، وهي تمثّل ــ في الواقع ــ تراثياً عريقاً وأصيلاً، عبرّ فيه الراوي منذ البدء عن رموزه وأبطاله، وسيرهم التي امتزجت فيها الخرافة والأساطير بالخيال والتاريخ، فجاءت عاكسة صورة من صور الحياة القديمة، وتمثّل الإنسان لثقافته وتراثه.

احتفى ملتقى الشارقة الدولي للراوي بمرور عشرين عاماً على انطلاقه، تحت شعار «الاحتفال بالعشرين»، في الدورة العشرين التي انطلقت في الفترة ما بين 26 و28 سبتمبر 2020، واستمرت لمدة ثلاثة أيام، عبر زحمة من الفعاليات والبرامج الثقافية والتراثية الافتراضية، تناولت الكنوز البشرية الحية، وتوثيق التراث الشفهي، وجلسات للمقهى الثقافي حول مسيرة الراوي، وتقديم فقرات بعنوان «حكايات من تراث الشعوب»، وفقرات بعنوان «قالوا عن الراوي - شهادات وتجارب»، إلى جانب عرض أفلام بما يخص مسيرة الراوي، وتقديم فقرات بعنوان «سيرة راوٍ» و«بين دفتي كتاب».

وحلّت الجمهورية اللبنانية ضيف شرف الدورة، حيث وقع الاختيار على تكريم الدكتورة آني طعمة ثابت، من لبنان، لما لها من دور بارز ومحوري في صون التراث والمحافظة عليه، وهي أستاذة علم اجتماع وأنثروبولوجيا بجامعة القديس يوسف في بيروت، وخبيرة في «اليونسكو» بمجال التراث الثقافي غير المادي.

انطلقت فعاليات النسخة الـ«21» من ملتقى الشارقة الدولي للراوي تحت شعار «قصص الحيوان»، وذلك في مركز إكسبو الشارقة، خلال الفترة ما بين 22 و30 سبتمبر 2021. وتضمنت فعاليات الافتتاح عرضاً بتقنية الهولوغرام، حول شعار الملتقى، بالإضافة إلى أغنية حول أهمية الملتقى، ودور صاحب السموّ الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، في دعم الثقافة والتراث، واستمرارية الملتقى وتطوره.

احتفى الملتقى بجمهورية السودان ضيفَ شرف، ممثلةً في الدكتور أحمد عبدالرحيم نصر، الشخصية الفخرية المكرّمة هذا العام، تقديراً لإسهاماته في مجال التراث الثقافي، كما يحتفي الملتقى بالحكواتي التونسي عبدالعزيز العروي، بوصفه الشخصية الاعتبارية، احتفاءً بما تركه من موروث حكائي زاخر.

وشهد الملتقى مشاركة متميزة من أكثر من 38 دولة، تنوّعت مشاركاتها في مختلف برامج وفعاليات الملتقى، من ندوات ومحاضرات، وجلسات تستعرض العديد من المقاربات العلمية المهمة حول قصص الحيوان، بمشاركة نخبة من الخبراء والباحثين والكتّاب، من أكثر من 38 دولة.

الشخصيات الفخرية

رواد في مسيرة «الراوي»

اتّساقاً مع اتّساع دائرة الاحتفاء بالرّاوي، وتطوّر الاحتفال به من المستوى المحلي إلى الدولي، تحت مسمى ملتقى الشارقة الدّولي للراوي، انتهج المعهد تكريم شخصيات فخرية عربية، تقديراً لإسهاماتها العلمية، وتتويجاً لمسيرتها الحافلة بالعطاء، وهم: الأستاذ الدكتور أحمد مرسي (مصر)، الوزير الدكتورة نجيمة طاي طاي (المغرب)، الأستاذ الدكتور سعد الصويان (السعودية)، الدكتور يعقوب حجي (الكويت)، الدكتورة أنيسة فخرو (البحرين)، الدكتورة روبرتا موسكاس (سردينيا)، الدكتورة آني طعمة ثابت (لبنان)، أ. د. أحمد عبدالرحيم نصر (السودان).

الأستاذ الدكتور أحمد مرسي (رحمه الله)
(2014)

الدكتورة أنيسة فخرو
(2018)

الدكتور يعقوب يوسف الحجي
(2017)

الأستاذ الدكتور سعد الصويان
(2016)

الدكتورة نجيمة طاي طاي
(2015)

أ.د. أحمد عبدالرحيم نصر
(2021)

الدكتورة آني طعمة ثابت
(2020)

الدكتورة روبيرتا موسكاس
(2019)

مشاركون: «الراوي» محفل رائد في حفظ الموروث الشفاهي والاحتفاء بكنوزه ورموزه

اتفق المشاركون في ملتقى الشارقة الدولي للراوي، على أن الشارقة تعمل على تطوير التراث بشكل عام، وحفظه للأجيال المقبلة، من خلال استقطاب المتخصصين لعرض تجاربهم ودراساتهم عن الحياة البحرية بأساطيرها وحكاياتها المشتركة بين الشعوب، خصوصاً في منطقة الخليج، جازمين بأن الدورة الحالية كلها مفردات بحرية، تحمل مفاتيح الانتقال إلى المستقبل.

عبد العزيز الراشدي

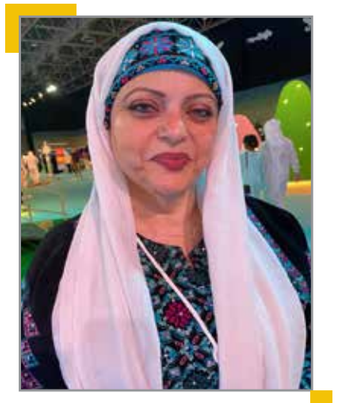

فادية دعاس

أكد عبدالعزيز الراشدي، باحث في الحكاية الشعبية، أن ملتقى الشارقة الدولي للراوي قدّم في تلك الدورة مفردات بحرية كانت بعيدة عن الأجيال الجديدة، وهي مقومات لازمة، وتحمل المفاتيح الضرورية التي تمكنه من تحقيق متطلبات التطوير والاستدامة اللازمة لضمان الانتقال إلى المستقبل، والوفاء باستحقاقاته المختلفة.

وأضاف: إن حكايات البحر في سلسلة الجلسات الثقافية التي يحتضنها ملتقى الراوي، حدث سنوي كالأعياد، حيث تتلألأ نجوم فعالياته في الشوارع والميادين، وبات علامة في حياتنا، وفي حياة طلاب المدارس أيضاً، داعياً إلى ضرورة انتقال المهرجان من مدينة الشارقة إلى مدن أخرى داخل الإمارة.

وقالت الدكتورة فادية دعاس، الباحثة في التراث الشفهي: إن الحديث عن الراوي يمكن أن يمتد لأكثر من 22 سنة، وهي عمره الحقيقي، خصوصاً أن كل دورة من دوراته الماضية مرتبطة بعنوان تتفرع منه كثير من المفردات التراثية، كما في هذه الدورة المنعقدة حالياً تحت عنوان «حكايات البحر»، مشيرة

مهند العاقوس

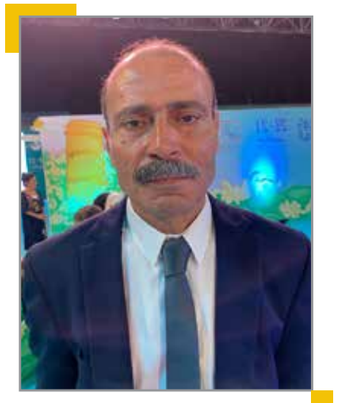

وناس معلى

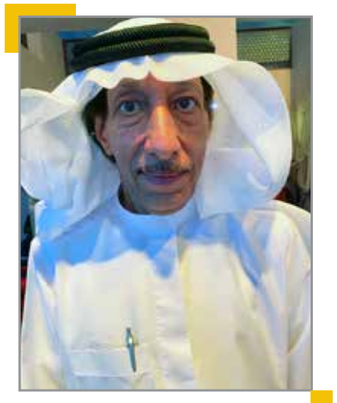

إبراهيم سند

إلى أن البحر وحياة الناس وارتباطهم قديماً، كانت مجهولة للأجيال الجديدة، فجاء الراوي وأزاح عنها الغبار، وكشف عن كل مفرداتها، من خلال الأوراق التي ألقيت في الجلسات الرائعة التي حرص الجميع على حضورها.

وقال مهند العاقوس، الباحث في أدب الطفل: إن التجارب التي شاهدها في ملتقى الراوي منذ سنوات بعيدة وممتدة حتى الآن، كشفت للجميع عن ترسيخه الهوية، وتجلياته في الأنساق الحياتية الحديثة، مؤكداً أن الراوي يثير تساؤلات عديدة، خصوصاً في هذه الدورة، أهمها كيفية توظيف كل المفردات في التراث البحري، والعمل على دمجها في حياتنا المعاصرة.

وأضاف: إن الموروث الشعبي الإماراتي هو وعاء غني من أوعية الثقافة، ينطلق منه الفرد المواطن للحفاظ على هويته الذاتية وشخصيته المتميزة، ولترسيخ إدراكه ووعيه إزاء مسؤولياته أمام المجتمع وأفراده.

من جانبه، أكد وناس معلى، المتخصص في تنظيم الفعاليات الثقافية في تونس، أن ملتقى الشارقة الدولي للراوي بات ينتظره الجميع، لما يحمله من مفردات وحكايات جميلة، تعزز مكانة الشارقة كمنصة حية ومتفاعلة لاستقطاب المتخصصين للحديث عن الحياة ومفرداتها التراثية القديمة على المستوى المحلي والعربي والعالمي، مؤكداً أن هذه الدورة، وهي حكايات البحر، تحمل الكثير من المعاني، خصوصاً أن الحياة البحرية وحكاياتها وأساطيرها تشترك فيها دول منطقة الخليج والدول العربية، من حيث الجذور والتاريخ، وهو ما تعمل عليه الشارقة، سعياً لتطوير التراث بشكل عام، وحفظه للأجيال المقبلة.

وبدوره قال إبراهيم سند، الباحث في أدب التراث الشعبي: «الراوي» نافذة يطل الباحثون من خلالها على العالم، ليتعرف الجميع إلى الثقافة الشعبية وإلى الثقافات الأخرى. جازماً بأنه لا يملك سوى تقديم الشكر للقائمين على ملتقى الشارقة الدولي للراوي، لما يراه من تقدم كبير جداً في كل دورة جديدة.

الفنان إبراهيم جمعة:

الأغنية البحرية تحتاج إلى اهتمام.. وملتقى الراوي: سلط الضوء عليها

الأغنية البحرية لا تجد اهتماما مثل غيرها من الأغاني، مؤكداً أنّه لا بد من إعادة إحياء هذا الفلكلور، الذي يعيش في وجدان البشر.

وأضاف الفنان الإماراتي إبراهيم جمعة، في حوار خاص، أن فكرة المزج بين القديم والحديث من شأنها تقديم تجارب جديدة لتطوير التراث، مؤكداً أنّه يجب توعية الناشء بالأغنية البحرية، متمنياً تأسيس فرقة قومية للفنون الشعبية؛ تمثل دولة الإمارات، وإلى نص الحوار

- ما وضع الأغنية البحرية

الأغنية البحرية انقرضت، ونجد أغلب الناس يتغنّون بالحربية والعيالة وغيرها، لكن نكاد لا نرى اهتماماً بالأغنية البحرية وأنا بدوري أحييت جزءاً منها بكثير من الأعمال التي تغنى بها الكثير من رواد الأغنية الخليجية، مثل راشد الماجد، وأبو بكر سالم، وعبدالله الرويشد، وغيرهم مثل «دار الهوى سامي – يا ليوات مجروح – الزنجبار - مشكلني – يالله السلامة»، وهذه جميعها أغاني مطلعها فلكلوري.

نحن لا بد أن نعيد إحياء هذا الفلكلور، الذي يعيش في وجدان البشر، فأنا على سبيل المثال عندما أتغنى بهذا التراث أشاهد تاريخي، وتضاريس بيئتي، وأتعايش معها بكلماتٍ ملائمة لبداية الأغنية لكي أصنع الأغنية التراثية.

فالممازجة بين التيارين القديم والجديد من شأنها أن «تُقدم تجارب جديدة لتطوير التراث، وإدخاله في واقع الأغنية الحديثة على النحو الذي يليق به، وليس بشكل صوري كما هو قائم الآن»، فهذه الصيغة التصالحية بين الأجيال هي الوحيدة الكفيلة بأن «تقضي على الموجة العبثية السائدة في مجال الأغنية حالياً بعدما فقدت الجملة الموسيقية الملهمة والكلمة الرومانسية الحالمة والصوت المتفاعل المعبر عنهما».

- ما الحلول المقترحة لإعادة إحياء الأغنية البحرية؟

فيما يتعلق بالحلول المقترحة من أجل التغلب على ما آل إليه واقع الأغنية العربية من وجهة نظري «المشروعات التي قدمتها لهيئة الثقافة والفنون، أعتقد أنّ تطبيقها سيُغيّر كثيراً من ملامح تلك الصورة القاتمة، لا سيّما أنّ منها ما يتعلق بالشأن المحلي، الذي سيُؤثر قطعاً في مجمل المشهد العربي بشكلٍ غير مباشر، ومنها ما سيكون له تأثيره المباشر في واقع الأغنية العربية بشكلٍ عام».

ولا بد أن تكون البداية من النشء ووجود منهج للتربية الموسيقية في مدارس التعليم الأساسي، وهو أمر يمُكن استثماره في تفعيل مشاعر الانتماء وتدعيم الهوية الوطنية من خلال تكريس الأغاني والموشحات ذات المحتوى الوطني والتوجيهي.

وقدّمت أيضاً تصوراً شاملاً، فيما يتعلق بـ«بيت الموسيقى» وهو معهد متكامل دعوت إلى إنشائه ويضم غرفاً عدة، كل منها يهتم بتدريس نمط فني بعينه: «باليه، موسيقى شرقية، موسيقى غربية، فلكلور، آلات موسيقية فردية، وغيرها».

وأتمنى أيضاً تأسيس فرقة قومية للفنون الشعبية، تقضي على فوضى الفرق الصغيرة التي تصف نفسها بالشعبية، وتتعدى السقف الذي كونت من أجله، وهو إحياء الأعراس والمناسبات العائلية»، وسوف تكون هذه الفرقة القومية موكولة بمهام التمثيل الفني المشرف للدولة خارجياً بشكل يعبر عن بعض جوانب الموروث الإماراتي الفني، فضلاً عن تقديمها فقرات فنية احترافية على هامش المناسبات المهمة والفعاليات التي تشهد حضوراً خارجياً وتستضيفها الإمارات على مدار العام.

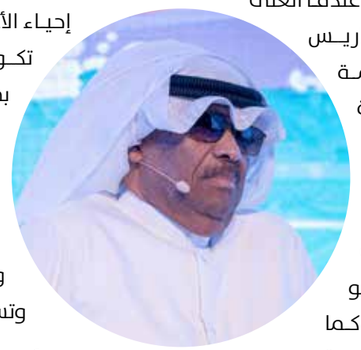

- ما رأيك في ملتقى الراوي؟

هذا الملتقى جميل ومميز ومثمر، ومن الجميل أنّه سمح لي بأن أُسلط الضوء على هذا الفن البحري، وأتحدث عنه بإسهابٍ، شاكراً لرئاسة معهد الشارقة للتراث على هذا التكريم.

وهذا ليس بغريب على الإمارة الباسمة، عاصمة الثقافة التي تمدنا بالمزيد من الملتقيات الثقافية بجميع أنواعها، مثل الاهتمام بالمسرح، والكتاب، والتراث، وهذا يرجع إلى فكر سمو الشيخ سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة طبعا هذا الرجل اعتبره نعمة على الثقافة، وأراه في نظري أمير الثقافة العربية

- من هي مُلهمة إبراهيم جمعة في الكتابة؟

هي واحدة فقط لا غير، زوجتي - حفظها الله -، وفي نظري أن الكاتب لا بُد أن يكون محباً، فإن لم يشعر بالحب لن يستطيع أن يكتب شعراً جميلاً، وأذكر هنا أن الحب بجميع امتداداته كحب الحبيبة والزوجة والوطن والأرض والأصدقاء

إصدارات الملتقى 2022

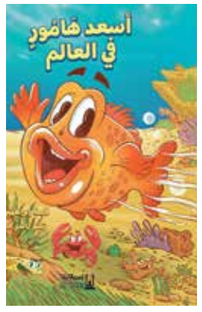

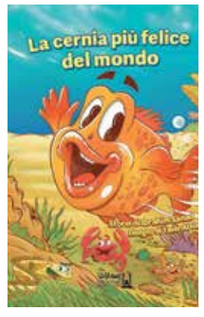

إصدارات الملتقى 2021

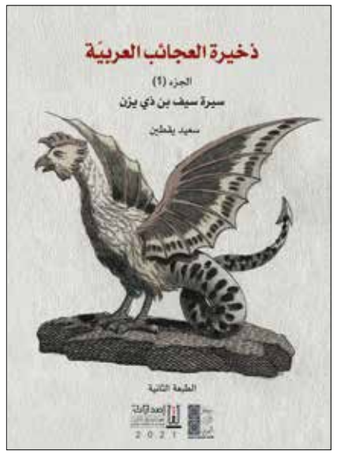

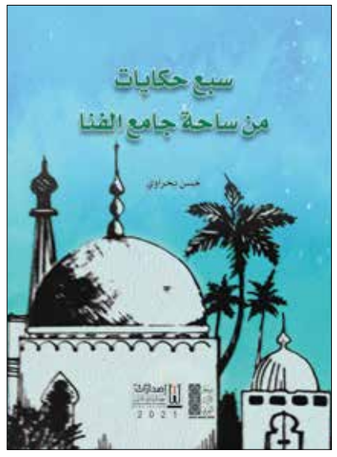

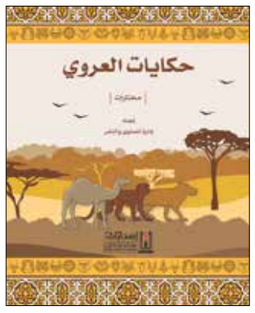

عدد خاص

«حكايات البحر» منبع الإلهام ومصدر الاستلهام

سارة إبراهيم - مراود

كان البحر دائمًا مصدر إلهام لكثير من الكُتّاب، لذا تزخر مكتبات التراث العربي بمؤلفاتٍ عدة تتحدث عن حكايات البحر في التراث العربي والإماراتي والخليج، حيث مثّلت نصوصاً أساسية، ومرجعاً لم ينهل منه العرب فقط؛ بل والعالم أجمع، فكان لها السبق في الإسهام في الحضارة الإنسانية، فكانت روافع حضارية، ونستعرض هنا بعضًا من تلك الكتب العظيمة من التراث العربي، الذي هو بحر تكمُن فيه درر العلوم والحكمة، لعل هذه المؤلفات، تعكس اهتمام الكتاب بالتراث البحري وحكاياته.

مكتبة الدراسات الأدبية
٨١
أدبُ البحْرِ
أحمد محمد عطية
دار المعارف

أدب البحر للكاتب أحمد محمد عطية

أدب البحر موضوع خصب يتصل بالحضارة الإنسانية بوجه عام وبالحضارة العربية على وجه الخصوص ، فللعرب إسهامات مهمة في عالم البحر وفي أدب البحر ، لا تنفصل عن دور الحضارة العربية المؤثر في الحضارة الإنسانية، بل إن أدب البحر العربي يتميز بالثراء والتنوع في المادة الأدبية والعملية بشكل لا نكاد نجده في أدب أي شعب آخر، أو كما يقول كراتشكوفسكي عن الأدب الجغرافي العربي : « لقد أثار هذا الأدب اهتماما بالغا بسبب تنوعه وغنى مادته ، فهو تارة علمي وتارة شعبي ، وهو طورا واقعي وأسطوري على السواء ، تكمن فيه المتعة كما تكمن الفائدة - لهذا فهو يقدم لنا مادة دسمة متعددة الجوانب لا يوجد مثيل لها في أدب أي شعب معاصر للعرب » .

فأدب البحر العربي يتضمن بالإضافة إلى طبيعته الأدبية والفنية الجميلة موضوعات علمية تفيد الجغرافيا والتاريخ وعلم البحر والملاحة البحرية بالإضافة إلى الأدب الشعبي والتراث اللغوى ، من الشعر الجاهلي إلى أدب الرحلات البحرية والرواية العربية الحديثة .

يجمع هذا الكتاب بين رؤيته للأدب كأداة تعبير جمالية ترمى إلى التأثير في وجدان المتلقي وبين رؤيته للأدب كمصدر من مصادر المعرفة وكوثيقة علمية ، تاريخية وجغرافية واجتماعية . وقد حاول الكاتب أن تتمثل في الكتاب النماذج والأجيال المعبرة عن نوعيات أدب البحر العربي ، قديما وحديثا ، مع إطلالة على أدب البحر في الغرب أيضاً . وأن يتضمن فنونا مختلفة من أدب البحر ، كالشعر والقصة والأدب الشعبي وأدب الرحلات البحرية والرواية . وأن يمثل مراحل زمنية مرتبة تاريخيا ، وليس من أغراض الكتاب التأريخ لهذا الأدب ، ولكنه يستهدف تقديم لوحة تحليلية عامة تتمثل فيها أهم النماذج الأدبية في أدب البحر مع التركيز على أدب البحر عند العرب ، كما حاول الكاتب في هذا الكتاب أن يجمع بين أدب البحر وتقديم أكبر قدر من المعلومات المتصلة بمبدعيه وظروف إبداعه ، مع مراعاة الإيجاز والتبسيط حرصا على عدم إرهاق القارئ ببحث جاف .

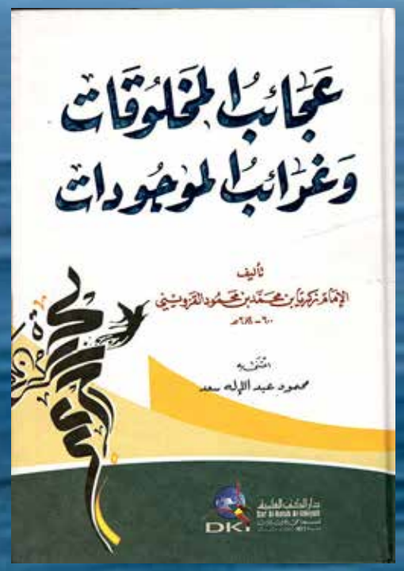

عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات كتاب من تأليف العالم والجغرافي أبي عبد الله بن زكريا القزويني.

يتناول هذا الكتاب علم أوصاف الكون من وصف السماء وما فيها من كواكب وأبراج وحركاتها وما ينتج عن ذلك من فصول السنة، وتكلم عن الأرض وتضاريسها، والهواء وما فيه من رياح وأنواعها، والماء والبحار، والجزر، وأحيائها وتكلم عن النبات والحيوانات التي تسكن اليابس ورتبهم أبجدياً. ويلاحظ القارئ البراعة في العرض، ودقة الملاحظة، والاستنتاج السليم، والكتاب به أربع مقدمات، مقالات كل مقالة بها عدة فصول. وخالف القزويني من تقدمه من علماء العرب في عدم ذكر الأشعار التي تصف النبات أو الحيوان بكثرة فكانت دراساته علمية بحتة وليست أدبية.

ومنها ما حكى أبو حامد قال: رأيت ملاحاً غاص في بحر الروم فانكشف عن سنام جبل وعليه نارنج أحمر كأنه قطف الآن من شجرة، فظننت أنها سقطت من بعض السفن فقبضت واحدة منها، فإذا هي حيوان التصق بالحجر لم أقدر على قلعه ، فرمت قطعه بالسكين، فلم تعمل فيه السكين، وليس له عين ولا رأس، وفمه في موضع العرجون، فكنت ألف الثوب عليه، وأجره بقوتي فيخرج من فمه مائية كاللعاب، وهو لين محبب شديد الحمرة لا يغادر من النارنج شيئاً، فإذا تركته كان يفتح فاه ويتحرك كأنه يتنفس .

ومنها ما ذكر صاحب تحفة الغرائب أن في بحر المغرب طائراً يقال له المارو، طائر مبارك يتبرك به أصحاب المراكب، يبيض عند سكون البحر على الساحل، فإذا رأوا بيضه عرفوا أن البحر يسكن، وهذا الطائر إذا كانت المراكب قريبة من مكان مخوف يأتي ويطير قدام المركب ويصعد وينزل كأنه يخبرهم بالخوف حتي يدبروا أمرهم والملاحظون يعرفونه.

قال أبو حامد الأندلسي: رأيت بمَجمع البحرين سمكة مثل جبل عظيم صاحبة صيحة ما سمعت أهول منها يكاد القلب ينشق منها، فاضطرب الماء منها وكثرت الأمواج حتى خفنا الغرق قال البحريون: إنها سمكة يقال لها البغل، هربت من السمكة الكبيرة وذلك أن السمكة الكبيرة تتبعها لتأكلها في بحر الظلمات فتنفر منها وتعبر مجمع البحرين إلى بحر الروم، وتأتي السمكة الكبرى خلفها لتعبرمجمع البحرين فلا يمكنها لعظمها، هكذا ذكر أهل ذلك الموضع يعني مجمع البحرين .

حديث السندباد القديم للكاتب حسين فوزي

ومع ذلك وكثير مما أورده جغرافيو العرب ورحالوهم عن البحار يكاد يعد قصصاً بحرية ؛ والقصة البحرية العربية قد اعتمدت كل الاعتماد على كتب الرحلات والعجائب والجغرافيا العربية بل ثمت قصص ، أو وقائع من قصص ، نقلت نقلا عن بعض حكايات الرحالين . غير أن ما جاء بأحاديث الرحالين والجغرافيين وهواة العجائب ، حتى لو كان خياليا محضا ، ليس من « الأدب الخيالي » في شيء ، ولم يدع واضعوه أنهم ألّفوه من بنات أفكارهم ، بل يؤكدون أنهم سمعوه من أفواه أناس يخبرون به كحوادث وقعت لهم ، أو أناس ينقلونه عمن وقعت لهم تلك الحوادث ، أو على الأقل ادعوا وقوعها ولقد آذن تسلسل البحث ومنطقه أن نتناول « الأدب الخيالي » في المؤلفات العربية ، لا من ناحيته العامة ، بل فيما له علاقة بالبحار والرحلات البحرية . ويحق لنا ، بعد كل ما عرفناه من عناية كتّاب العرب في القرون الوسطى بالبحار وحكايات البحريين ، أن نتوقع ثروة كبيرة من القصص البحرية العربية فجميع الكتب التي استعرضناها زاخرة بمادة أولية غنية يمكن للقصاص إذا شاء أن يبنى عليها حكاياته ولكن الحقيقة تخالف ما نتوقع ، وتخلف ما كنا نظن . فقصص البحار عند العرب محدودة العدد ؛ ولكنها من نوع ممتاز إلى درجة ترفعها إلى أوج الآداب العالمية ويظهر أن الاتجاه الرسمي في الآداب العربية لم يكن ليشجع الأدب القصصي ، إلا إذا كان المقصود الواضح منه درساً فلسفيا أو أخلاقيا [إطيقيا] كما في كتاب «هي بن يقظانه » أو « كليلة ورمز» أو في «رسالة الغفران». والعرب الذين درسوا كثيراً من العلوم في اللغات القديمة ، وترجموا بعض أعلام المؤلفات عن السنسكريتية والبهلوية واليونانية ، أهملوا إهمالا تاما الأدب الخيالي في تلك اللغات . فلا « مهابهاراتا» ترجمت ، ولا « الرامابانا » ، ولا تمثيليات كالياداسا ، ولا الأدب التمثيلي عند الإغريق.

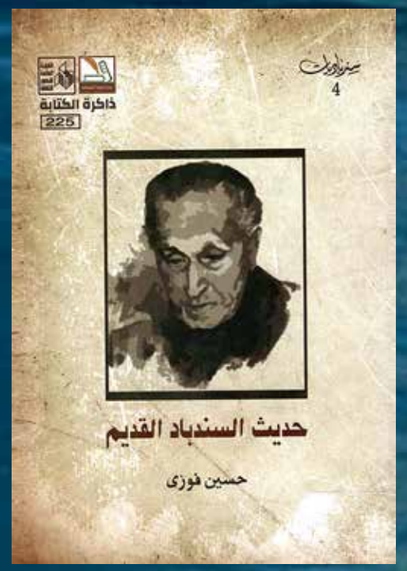

عجائب الهند

بـزرك بـن شـهريار، النوخـذة الـرام هرمـزي، مؤلـف هـذا الكتـاب، هـو - كـما يظهـر مـن اسـمه – واحـد مـن نواخـذة فـارس، عـاش فيـما بـين منتصـف كل مـن القرنـين: الثالـث والرابـع مـن الهجـرة. فأقـدم تاريـخ لحكايـات كتابـه هـو سـنة 288، وآخـره سـنة 342هـ. وخـلال هـذه الفـترة عـاصر الأمـير أحمـد بـن هـلال، عامـل الخليفـة العبـاسي المقتـدر بالله (296-322هـ)، عـلى عـمان، فهـو يذكـره في بعـض أحاديثـه عـما حـدث في عـمان، لبعـض تجـار البحـر مـن حـوادث، وقضايـا، أثنـاء عـودة المراكـب مـن رحلاتهـا الطويلـة إلى عـمان. فخـلال هـذه الفـترة بلغـت الملاحـة العربيـة في المحيـط الهنـدي أوج عصرهـا الذهبـي، وكانـت الموانـئ العمانيـة مـن الموانـئ الأولى التـي تنطحهـا المراكـب القادمـة مـن المحيـط إلى الخليـج العـربي.

وكان مـن البديهـي أن تـأتي الأسـفار إلى البلـدان والجـزر البدائيـة البعيـدة، بحكايـات مصبوغـة بصبغـة الخيـال والمبالغـة، عـن صفـات سـكانها، وحيواناتهـا، وطيورهـا وأشـجارها. فالـشيء لا يكـون غريبـاً ولا عجيبـاً، إذا لم يكـن غـير مألـوف في صفاتـه وأفعالـه، بحيـث تصـير السـلحفاة، مثـلاً، كالجزيـرة في الكبر، والنملـة كالقطـة، والحية كساق الشـجرة الكبـير، والطائـر مـن الضخامـة والقـوة بحيـث يسـتطيع حمـل الإنسـان برجليـه، والطـيران بـه بـين الجـزر. وغـير ذلـك مـن العجائـب الأسـطورية، التـي نجـد بـزرك نفسَـه ينكرهـا. حيـث قـال: «وكنـت أسـمع بأمـر السـلاحف فأسـتطرفه، وأنكـره، مـما لا يقبلـه عقـل(1)». وكان أيضـاً يسـأل كبـار السـن

عـن صحـة بعـض مـا سـد سـمعه مـن النواخـذة، ممـن يثـق بأقوالهـم، عـن الحكايـات، مثـل حكايـة الحيـة التـي تـأكل الفيلـة وتبقـي عـلى أنيابهـا. فقـد قـال: «وسـألت إسـماعيلويه عـن هـذا الحديـث في سـنة 339، فقـال: بلغنـي، وهـو صحيـح». وإسـماعيلويه، هـو – كـما سنرى فيـما بعـد – إسـماعيل بـن إبراهيـم بـن مـرداس، أحـد نواخـذة عـمان المشـهورين في أيـام بـزرك. -

فأمثـال هـذه الحكايـات كانـت البحـارة، وركاب السـفينة مـن التجـار وغيرهـم يقضـون أوقـات السـمر عـلى مـتن السـفينة في التحـدث بهـا. وكان راوي الحكايـة حينئـذ يحـاول أن يشـد انتبـاه السـامعين إليـه، بـكل مـا هـو عجيـب مسـتطرف مـن الحكايـات. وهكـذا امتزجـت الحقيقـة بالأسـطورة في هـذه الحكايـات. والعجيـب أننـا لا نجـد في الكتـاب حكايـة واحـدة ينسـبها بـزرك إلى نفسـه، رغـم أنـه كان واحـداً مـن نواخـذة البحـر وسـفاره.

كـما نـراه حريصـاً عـلى التدقيـق فيـما ينسـبه إلى الـرواة مـن أقـوال وأحاديـث، مـن ذلـك مثـلاً، قولـه إن مـن دعـاه بالعبـاس بـن ماهـان: «أخـبره عـن نفسـه، أنـه جهـز مركبـاً مـن (سـندان) أو (صيمـور) – الشـك منـي يعنـي أن الشـك في أن العبـاس جهـز المركـب مـن (سـندان) أو (صيمـور)، مـن بـزرك وليـس مـن العبـاس، فهـو لا يتذكـر اسـم الميناء الـذي كان العبـاس جهـز منـه المركـب.

ولا نعنـي فيـما تقـدم أن كل مـا جـاء في الكتـاب مـن العجائـب ليـس فيـه شيء مـن الحقيقـة. فركـوب البحر في

ذلـك العـصر عـلى مراكـب تسـير بقـوة الريـاح، عـلى بحـار ترتادهـا العواصـف الهوجـاء، يعـدّ حقـاً مخاطـرة قـد لا يسـلم منهـا راكبـه. لذلـك كان المسـافرون فيـه قديمـاً يكتبـون وصاياهـم قبـل ركوبـه، ومـن سـلم بعـد تحطـم مركبـه، ووصـل إلى جزيـرة غـير مأهولـة لا يسـلم مـن السـباع، أو مـن أخيـه الإنسـان. فقـد كان الإنسـان في كثـير مـن الجـزر، والأراضي البعيـدة، عـن حيـاة المدينـة، يـأكل لحـم مـن يقـع بيـده مـن البـشر. ومـن أجـل الخـروج مـن مثـل هـذه الجـزر جـاءت أسـطورة (طـير الـرخ) وهـي الأسـطورة التـي جعلـت الإنسـان يفكـر في الطـيران في السـماء. لكـن هنـاك بـين الأسـاطير في الكتـاب حقائـق تاريخيـة لا يمكـن إنكارهـا كاتسـاع حركـة الملاحـة العربيـة، في المحيـط الهنـدي، في عـصر مؤلـف الكتاب، ومشـاهير نواخذتهـا وربابنتهـا في عـمان والخليـج العـربي، واليمـن. وصفـات البلـدان البحريـة، التـي كانـت المراكـب العربيـة تـتردد إليهـا خـلال هـذه الفـترة، وشـعوب هـذه البلـدان وعاداتهـم وتجاراتهـم، وطـرق الملاحـة وقواعدهـا في هـذه الفـترة.

كتاب البحر في التراث الشعبي الإماراتي لفهد المعمري

يرصـد الكتـاب الواقـع في 276 صفحـة مـن القطـع المتوسـط، العلاقـة القويـة التـي ربطـت أبنـاء الإمـارات بالبحـر، إذ عقـدوا معـه صداقـة طويلـة الأمـد، فأخـذوا منـه وأخـذ منهـم، وانعكـس ذلـك في حياتهـم الأدبيـة، فـكان نتـاج ذلـك الكثـير مـن الأشـعار والأمثـال التـي كتبـت عـن البحـر، وكذلـك الكنايـات البحريـة وحكايـات أهـل البحـر، إلى جانـب المصطلحـات البحريـة الكثـيرة التـي دخلـت لغـة أهـل الإمـارات وألفاظهـا، فألّفـت المعاجـم البحريـة، وبـرز شـعراء عرفـوا بشـعراء البحـر مثـل الشـاعر راشـد بـن طنـاف، والشـاعر يعقـوب بـن يوسـف الحاتمـي، ومـن المعاصريـن الشـاعر حميـد بـن ذيبـان، الذيـن أفرغـوا مخزونهـم مـن الألفـاظ والمصطلحـات والتشـبيهات البحريـة في نصوصهـم وأشـعارهم.

يتطـرق المعمـري في كتابـه أيضـاً إلى الكتّـاب والنقـاد الأوائـل الذيـن انتبهـوا إلى أدب البحـر، وأكـدوا بأنـه أدب قائـم بذاتـه، ولـه خصوصيتـه في دولـة الإمـارات، ومنهـم الأديـب الراحـل الدكتـور أحمـد مـدني في كتابـه "الشـعر الشـعبي في دولـة الإمـارات"، والدكتـور مانـع سـعيد العتيبـة الـذي تحـدث عـن صيـد السـمك واللؤلـؤ، ورحـلات الغـوص في كتابـه "البـترول واقتصاديـات الإمـارات العربيـة"، والدكتـور فالـح حنظـل في كتابـه "معجـم الغـوص واللؤلـؤ في الخليـج العـربي"، وكتـاب "الغـوص في دولـة الإمـارات العربيـة المتحـدة" لمجـدي كامـل مـراد ومحمـد خليفـة المعمـري وغيرهـم.

ويشـير الكاتـب إلى أنـه تتبّـع الكتـب عـن البحـر في الإمـارات، ووجـد بعضهـا تاريخيـاً، وبعضهـا جغرافيـاً، وبعضهـا اقتصاديـاً، وبعضهـا شـعراً، وبعضهـا في الأمثـال الشـعبية البريـة والجبليـة والبحريـة، ومنهـا الخراريـف، ومنهـا الحكايـات وتعـرف بالسـوالف، ولمـا رأى أن أدب البحـر لم يُضـم في كتـاب واحـد، انـبرى يجمـع أشـتاته لينظمـه في عقـد فريـد.

فهد علي المعمري
باحث - الإمارات

الخاريف

وأدب الحكايات البحرية

الخاريف هي جزء من أدب الحكايات البحرية، ويقول الدكتور عبد العزيز المسلّم: الخاريف هي الجمع للخروفّة(2)، و يتابع في تعريفه الخروفّة فيقول: أما صفتها الخاصة و مضمونها فإنها تأتي ضمن باب المعتقدات الشعبية وصيانة التقاليد، وفي كلام آخر عن الخروفة يقول: البحر هو أهم رمز لدى الإماراتي لما يمثله من اتساع وشمولية واحتواء لرموز أخرى فرعية تستمد أصلها منه فهو يدل على 1ـ الخير 2ـ الجود 3ـ العلم 4ـ الأسرار 5ـ الكتمان 6ـ الاتساع 7ـ الضياع 8ـ الهروب 9ـ التيه 10ـ الغرق 11ـ المفاجأة 12ـ الموت

1ـ الخير 2ـ الجود 3ـ العلم 4ـ الأسرار 5ـ الكتمان 6ـ الاتساع 7ـ الضياع 8ـ الهروب 9ـ التيه 10ـ الغرق 11ـ المفاجأة 12ـ الموت

و بعد هذه المقدمة الموجزة للتعريف بالخرّوفة، سنرى الآن ما هو دور البحر في أدب الخروفة و كيف كان موردا من موارد القاصين الذين أبدعوا بخاريفهم فجاءت متوافقة مع بيئة وحياة البحر في دولة الإمارات العربية المتحدة، ونبدأ مع الخروفة الأولى

والخروفة تقول: إن الأجداد القدماء يروون حكاية مفادها أنّه كانت هناك جنية هائلة الحجم ، عندها عدد من البنات ، تسكن في قعر البحر في منطقة مضيق هرمز، فإذا شاهدت سفينة قادمة، دارت على نفسها في البحر فشكلت دوامة هائلة في الماء فيتلاطم عندئذٍ الموج و تقوم بابتلاع السفينة بمن فيها، فكان الناس قديما، إذا أرادوا السفر إلى اليمن أو قارة أفريقيا من خلال الصومال وتنزانيا وجزيرة سقطرى، أو موانئ باكستان والهند، مجبرين على عبور مضيق هرمز، ولذلك فإنهم يأخذون معهم عددا من الأغنام والماعزوالخراف فإذا أصابتهم الدوامة وهم في مضيق هرمز صاحوا: جاءت إليهم سلامة وبناتها فيلقون بالخراف والماعز والأغنام إلى الماء، و ذلك اعتقادا منهم أن سلامة و هي الجنية الهائلة الحجم سوف تقوم في هذا الوقت بابتلاع هذه الخراف وتشبع وبالتالي سوف تتركهم في حال سبيلهم ولن تبتلع سفينتهم ظنّا منهم أنها قد شبعت ولا حاجة لها في الطعام.

والقصة لها أصل من الحقيقة وهي أن مضيق هرمز تحيط به الجبال فتتلاطم الأمواج فيه مكونة دوامات أكبرها غبّة سلامة، ويقال قديما صادف أن مرّت سفينة هندية مبحرة من الساحل العربي إلى الهند ففكر الربان بطريقة تخلصهم من هذه الدوامات والغرق فيها ،فقال للركاب: إعلموا أن هناك جنية هائلة الجسم مخيفة المنظر و عليكم أن تلقوا بمتاعكم وعفشكم إليها لتلتهمه وتترككم، فاستجاب الركاب لقوله طلبا منهم النجاة و السلامة، فخف حمل السفينة وسهلت حركتها فدفعتها الرياح بسرعة عبر الأمواج الصاخبة، فعبرت المضيق بدون أن تغرق، و من هنا كانت مصدر الخرّوفة.

وهناك خرّوفة ثانيه تروى ضمن خرّوفة سلامة و بناتها، و تقول الخرّوفة الثانية إن سلامة كانت زوجة صياد ظالم شديد القسوة، و كان يضرب زوجته كل يوم، حتى رزقه الله منها ثلاث بنات كأنهن البدر، وكان الأب شديد الغيرة على بناته، فكان يضربهن مع زوجته ضربا مبرّحا فلما يئست الزوجة

وخافت على حياة بناتها هددته بأن تبلغ شيخ المنطقة بتصرفاته، و عندها خاف الزوج على مكانته وسمعته، ما كان منه إلا أن حمل زوجته وبناته وألقاهن في وسط البحر، فقيل إنّه بمعجزة الله تحولت الزوجة إلى جبل شامخٍ تحيط به ثلاثة جبال صغيرة هنّ بناتها، وأنهن مع أمهّن التي تسمى سلامة ينتقمن بإغراق سفن البحارة لظلمه للزوجة و البنات.

الخروفة الثانية، وهي خروفة بابا درياه، و ننقلها كما هي واردة في المصدر، وتقول الخرّوفة إن الأصل في التسمية "بابا درياه" لكن الشائع في التمسية هو "بو دريـاه"، و هو اسم سواحيلي يتكون في الأصل من شقين هما بابا و درياه، و كلمة بابا تعني راعيا أو سيدا أومالكا أو قائدا أو حاكما أو مسيطرا، أما كلمة درياه فتعني في السواحيلية و الفارسية و الأوردية البحر.

وعليه يكون هو سيد البحر أو حاكمه أو المسيطر عليه أو كلّ المعاني الآنفة الذكر، فهو بقوته وجبروته يستطيع فعل أي شيء في البحر أو على الساحل.

ووصف هذا المخلوق هو أنه مبتور اليدين فكل من ذكره أو زعم أنه رآه بالفعل قال إن به "زموعا" أي أنه خلق و يداه بلا كفين، و هو أسود نحيل، مبتور الشفتين، مما يزيد شكله رعبا، كما يذكر البعض أنه كان مخفي الملامح لأنه يظهر دائما في الظلام الدامس ولكنه بهيئة رجل قوي ضخم.

و تقول الخرّوفة: يروي بعض الرواة أن "بابا درياه" كائن من الجن مرعب مخيف كان يتسلل إلى مراكبهم في الفترة ما بين صلاة العشاء وصلاة الفجر، و يختطف أحد البحارة ليأكله و يعبث في السفينة ليتلفها فتغرق، لذا فإنهم يجعلون في كل سفينة نوبة للحراسة لاتقاء حيله و شروره.

و يقولون إنهم كثيرا ما سمعوا حركته على ظهر السفينة وأرعبوه بصوت المناشير والمطارق كي يهرب.

و هناك رواة آخرون يقولون إنه من المرّدة العفاريت وإنه يعيش في لجج البحر و كان يظهر على هيئة إنسان بشع مخيف الخلقة، يسمعون صياحه من بعيد في عرض البحر و كأنه غريق، فإذا أنقذوه سرق طعامهم و ربما أتلف سفينتهم، و إن استفرد بأحد البحّارة قتله.

الخروفة الثالثة، وهي خروفة "خطّاف رفّاي"، و ننقلها كما هي واردة في المصدر، و قد تعددت التسميات فالاسم الأشهر هو خطّاف رفّاي، كان البعض يسمّيه "بو دقل" و أهل الفجيرة يسمونه "بوشراع" و البعض الآخر يصغر الاسم إلى "بو شريّع" و في رأس الخيمة يطلقون اسم "أم شراع" على امرأة تشبهه.

ووصف هذا المخلوق خرافي ضخم طويل جدا أبيض اللون، يشبه الشراع العربي المثلث إلى حدّ كبير، و قد يظهر على هيئة سفينة كاملة بشراع كبير، ملامحه غير واضحة بسبب ضخامته وبياضه، فتّاك في جميع حالاته.

و يظهر في عرض البحر في المناطق التي تشتهر بلججها العميقة المسمّاة "الغبيب" فالمشهور أنه يسكن الأعماق السحيقة، و أغلب الروايات تجمع على أن خطّاف رفّاي يظهر في الليل عندما تشتد حلكة الظلام فيعترض السفن و هي في عرض البحر و يكون ظهوره على هيئة شراع كبير جدا - خرافي الطول - يتأرجح في الماء و كأنه سفينة، ثم يهوي على السفينة الضحية فيرتطم بوسطها حتى يفلقها فلقتين من شدّة الارتطام.

و يذكر عدد آخر من الرواة أن خطّاف رفّاي غير مؤذ بحد ذاته ولكنه مضل، فهو يظهر للسفن من بعيد على هيئة شراع كبير يرتفع و ينزل ثم يختفي، لكنه قد يوهم البحّارة أحيانا بأنه منارة بحرية، فإذا قصدوه أضلهم و جعلهم يتيهون في مجاهل البحر مما قد يتسبب في غرقهم و ضياعهم.

ويقول عبدالعزيز المسلم: سألت كثيرا من الناس عن ظهور خطّاف رفّاي على اليابسة، و هل تختلف هيئته عن تلك التي يظهر بها في الماء، فأجمع الغالبية على أنه مختلف بعض الشيء خاصة حجمه فهو على اليابسة أصغر قليلا و أقل سرعة وفتكا.

و الثابت أن أهل الإمارات استمدوا اسم هذا الكائن الخرافي من حركة الشراع، فالشراع يخطف و يرفي أي يهبط و يصعد، أو ينزل و يرتفع، و الخطّاف الرفّاي صفة للاستمرارية في النزول و الطلوع.

طلال سعد الرميضي
كاتب - الكويت

هل تم توثيق تراثنا البحري ؟؟

ارتباط البحر بحياة الشعوب العربية له عدة دلالات مهمة منذ القدم ، فهو مصدر لكسب قوتهم الذي يشتغلون لأجل جني كنوزه رغم المشقات والأخطار والصعاب ، فكانت القصص والحكايات والأشعار المتعلقة به قد امتلأت بها الفلكلورات الشعبية من حياتنا ، لنجد أن ذاكرة البشر من الرواة من كبار السن قد سجلت لنا بعضاً من ذكرياتها التي شهدتها ونقلتها من الذين قبلهم ممن عانوا من البحر وأهواله ، ولكن هل تم توثيق ما حوته هذه الذاكرة البشرية من الكنوز البشرية في مؤلفات مطبوعة لنحفظها للأجيال القادمة ؟.

اجتهد الباحثون والمؤرخون في الخليج العربي خلال النصف الثاني من القرن العشرين وحتى يومنا بجمع جوانب الحياة البحرية في مؤلفاتهم القيمة ، وحاولوا تسليط الضوء على كل مهنة عريقة مارسها الأجداد في ركوبهم البحر عبر السفن الشراعية كالغوص على اللؤلؤ والتجارة البحرية أو على جال البحر كمهن صيد الأسماك ، فصدرت عدة كتب في نواحي التراث البحري المختلفة الزاخر بالأصالة والجمال والعراقة .

ولكن نلمس من خلال جلوسنا مع البقية الباقية من المعمرين من كبار السن الذين عاشروا البحر وعملوا على متن أمواجه الزرقاء أن هناك حوادث وقصصا وأشعارا لم تصلها أقلام المؤرخين في كتاباتهم ولم تجمع من أفواه الرواة ، لذا سيكون مصيرها الشتات والضياع ما لم يتم إنقاذ ما يمكن إنقاذه في هذا الصدد.

والتأخير في جمع الروايات الشفهية لانشغال الكُتاب بمسايرة الحياة العصرية والتراخي في العناية بالتراث الشعبي قد يكون سبباً مباشراً لفقد هذه الكنوز البشرية ، وقد ذكرت ذلك بمقدمة كتابي المعنون (أعلام الغوص عند العوازم خلال قرن) في طبعته الأولى والصادرة عام 2001م عند جمع مادة هذا الكتاب من كبار السن الذين قابلتهم آنذاك بدءاً من رحلة البحث والتأليف في عام 1996م أ، حيث أشرت إلى أن : (... البعد التاريخي نسبياً قد أثّر في تقليص حجم المادة التاريخية، مما يحتم علينا القول إنه لو بذل نصف هذه الجهود المبذولة الآن قبل ثلاثين سنة لتم جمع أضعاف هذه المادة التاريخية بتفاصيل وحيثيات أكثر دقة، وبالمقابل نجد أنه لو أرجئ البحث لثلاثين سنة قادمة لكان عناء البحث أكثر مشقة وأقل فائدة) .

وهذا ما حدث بالفعل بعد مضي أكثر من عقدين من كتابة هذه المقدمة توفى أغلب من قابلتهم في كتابي قبل ربع قرن نسأل لهم الرحمة والمغفرة ، واليوم لو حاولت جمع مادة عن تراث الغوص لن أستطيع جمع ربع المادة التراثية بذات الدقة والصحة لرحيل مصادر الرواية .

ونجد بالمقابل أن بعض المؤرخين قد بدأ جمع مادته في تأليف كتاب يوثق جوانب من التراث البحري منذ

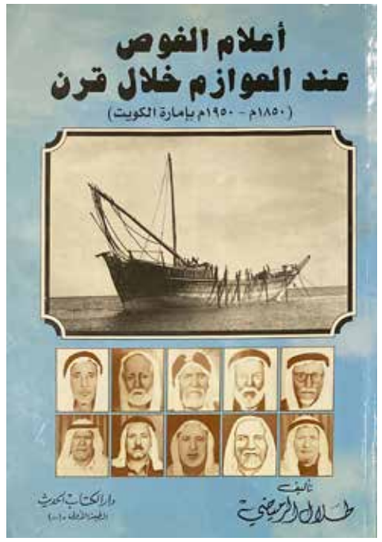

فترة طويلة ، وقابل كبار السن وسجل منهم أخبارهم النادرة ومعلوماتهم القيمة ، إلا أنه لم يستطع إكمال هذا المشروع الثقافي الجميل ، وذلك يرجع لعدة أسباب قد يكون المرض أو الوفاة من عوائق التأليف أو الانشغال بأمور الدنيا كالتجارة أو السياسة وغيرها ، وكلها تؤدي إلى عدم استكمال تأليف الكتاب التوثيقي لتراث البحر ، والشواهد على ذلك كثيرة في مختلف البلدان العربية .

أحمد بشر الرومي

ونجـد المـؤرخ الكويتـي أحمـد بـشر الرومـي المتـوفى عـام 1982م جمـع المفـردات البحريـة التـي كان الأجـداد يستخدمونها ويلفظونها في مـشروع معجـم لم يطبـع إلا بعـد وفاتـه بحـوالي أربـعّ عـشرة سـنة ، قـام بترتيبـه وإعـداده الباحـث القديـر الدكتـور يعقـوب يوسـف الحجـي وطبـع تحـت عنـوان (معجـم المصطلحـات البحريـة في الكويـت) ، حيـث قامـت ابنتـه الأسـتاذة دلال أحمـد البـشر بتقديـم مسـودات وجـذاذات تمثـل أصـل هـذا الكتـاب وهـي مجموعـة واسـعة مـن المصطلحـات البحريـة النـادرة التـي سـجلها البـشر مـن رجـالات البحـر وصنـاع السـفن وربابنتهـا عـبر سـنوات طويلـة خـلال اشـتغالهم بالبحـر ومعـاشرة أهلـه ، وتذكـر الأسـتاذة دلال البـشر في تقديمهـا للكتـاب أن :

(هـذا الكتـاب حصـاد جهـد دؤوب اسـتمر أكـثر مـن أربعـين عامـاً كان والـدي المرحـوم أحمـد البـشر شـغوفاً بجمـع مادتـه وتدوينهـا وتحقيقهـا مـن خـلال تجربتـه الشـخصية ودأبـه عـلى التنقيـب في عيـون الـتراث العـربي وتقليـب صفحـات المعاجـم القديمـة والحديثـة ، وتتبـع المصطلحـات الخاصـة بحيـاة البحـر عـلى أفـوه رجالـه الذين تمرسـوا في الإبحـار وصناعـة السـفن فوعـت ذاكرتهـم معجـماً كامـلاً للغـة البحـر ومصطلحـات الحيـاة البحريـة ، وقـد بـذل - رحمـه اللـه - أقـصى جهـده في هـذا العمـل الموسـوعي الفريـد في بابـه وكان مقـدراً لـه أن يـرى النـور في حياتـه ، ولكـن مشـيئة الأقـدار سـابقة و غلابـة فرحـل الوالـد - رحمـه اللـه – والكتـاب مرقـوم في جـذاذات وصفحـات مرتبـة ومحفوظـة بعنايـة، إذ كان يعتـز بهـذا الكتـاب ويوليـه رعايتـه وحنانـه ، وقـد كانـت النيـة معقـودة عـلى نـشره قبـل بضع سـنوات ولكـن العـدوان العراقي الغاشـم عـلى الوطـن حـال دون ذلـك ...) .

ونجـد كذلـك المـؤرخ المشـهور سـيف مـرزوق الشـملان المتـوفى بتاريـخ الرابـع عـشر مـن شـهر أكتوبـر سـنة 2021م عـن عمـر يناهـز خمسـة وتسـعين عامـاً ، ألـف كتابـاً قيـماً بعنـوان (تاريـخ الغـوص عـلى اللؤلـؤ في الكويـت والخليـج العـربي) وصـدر منـه جـزءان ، حيـث صـدر الجـزء الأول منـه في طبعتـه الأولى سـنة 1975م وطبـع الجـزء الثـاني منـه في سـنة1978م ، وذكـر في خاتمـة الجـزء الثـاني بأنـه انتهـى مـن الجـزء الثـاني من

سيف مرزوق الشملان

كتـاب تاريـخ الغـوص عـلى اللؤلـؤ في الكويـت والخليـج العـربي ويليـه الجـزء الثالـث عـن تاريـخ الغـوص عـلى اللؤلـؤ في الأحسـاء و البحريـن و قطـر ، ولم يصـدر هـذا السـفر البحـري المهـم في موضوعـه حتـى وفاتـه بعـد مـضي مـا يقـرب الخمسـة والأربعـين عامـاً مـن إعلانـه عـن هـذا المـشروع البحـري الكبـير ، ولعـل انشـغال الشـملان في تأليـف عـدة كتـب أخـرى في موضوعـات مختلفـة وكذلـك تقديمـه لبرنامجـه التلفزيـوني (صفحـات مـن تاريـخ الكويـت) لعـدة سـنوات والـذي كان يقابـل خلالـه بعـض كبـار السـن قـد منعـه مـن اسـتكمال العديـد مـن مشـاريعه الثقافيـة المهمـة ومنهـا مـا صرح بـه عـن الجـزء الثالـث لتاريـخ الغـوص عـلى اللؤلـؤ في الخليـج العـربي .

هـذه نمـاذج مـن تجـارب بعـض المؤرخـين الكويتيـين في جمـع الـتراث البحـري ، ولعـل الكثـير في مختلـف بلـدان الوطـن العـربي قـد عانـوا المعانـاة نفسـها في التراخـي بتوثيـق هـذا الجانـب العريـق مـن حيـاة الأجـداد الأوائـل نسـل السـندباد البحـري .

لـذا نحـن في حاجـة كـبرى للعنايـة بـتراث البحـر مـن خـلال الملتقيـات الثقافيـة عـلى مسـتوى الـدول وليـس جهـودا فرديـة يبذلهـا الباحثـون في الـتراث البحـري ، ولعـل اختيـار شـعار (حكايـات البحـر) لملتقـى الشـارقة الـدولي للـراوي لهـذا العـام يحفـز الباحثـين عـلى جمـع مـا علـق في ذاكـرة الـتراث الشـعبي الجميـل وينشـط الدارسـين في الوطـن العـربي لهـذا المبحـث الأصيـل .

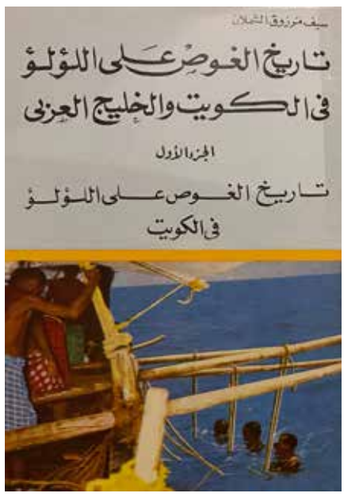

أسس ومقومات الموروث الثقافي

في المصطلحات البحرية والملاحية المغربية

د. حسن أميلي
أكاديمي - المغرب

في البدء أود الإقرار بأن تناول موضوع الموروث الثقافي المحلي الخاص بمجال البحر والملاحة ينطوي على صعوبة شديدة، وهي صعوبة تتصل بتعدد مجالاته (مناخ – طبوغرافيا بحرية – علوم الملاحة – سفانة – تقانة ملاحية – علم السماكة ...) من جهة، وبتنوع مصادره اللغوية (عربية، أمازيغية، إسبانية، متوسطية...) من جهة أخرى. ويزيد الأمر تعقيدا حينما يتسع حجم المدارك والمعطيات جراء ارتباطي الشخصي اللصيق بالموضوع البحري والملاحي في شقه التاريخي بنحو ثلاثة عقود، بما يرفعه ذلك من درجة التوتر حيال المنهجية الواجب الاطمئنان إليها للإجابة عن بعض الأسئلة المفترضة، كتقديم لخلاصات جانب من الأبحاث التي خرج بعضها للوجود[1].

وتتمثل أولى الصعوبات التي تعترض الباحث في ندرة الدراسات والأبحاث المتعلقة بثقافة المجال البحري عموما، والتي كان لها انعكاس مباشر على الدراسات المتصلة بالموروث اللغوي والثقافي المغربي في هذا الصدد؛ إذ باستثناء أسبقية المخطوط الصغير والقيم الخاص بالسفانة ومكوناتها الذي ألفه فقيه مدينة الرباط، إبراهيم التادلي، (1305هـ/1887م) زينة النحر بعلوم البحر[2]، لم ينطلق الاهتمام الأكاديمي بالموروث الثقافي اللغوي الملاحي بالمغرب إلا في عهد الحماية مع العملين الفرنسيين القيمين اللذين أصدرهما الباحث لوي برينو (Louis Brunot) ملاحظات لغوية حول المنطوق الملاحي للرباط وسلا[3]، والبحر في التقاليد والصناعات المحلية بالرباط وسلا[4]، وإلى جانبه نظيره إميل لاوست (Emile Laoust) في مقاله المهم صيادو سوس الأمازيغ[5]؛ بيد أن هذه الأعمال ظلت يتيمة ولا يلتفت إليها إلا عرضيا، ولم يشذ عن ذلك إلا إعلاميا من خلال البرنامج التلفزي للإعلامي محمد البوعناني (أطال الله عمره) الخاص برجال البحر، وتعريفيا من خلال إسهامي في إنجاز مواد متفرقة في أجزاء معلمة المغرب، دون أن تظهر دراسة أكاديمية تعيد إلى هذا الموروث الثقافي مكانته إلا مع إصدار الباحث عبد الرحيم العطاوي لعمله القيم السِّماكة (أو الإكتيونوميا) المغربية[6]، والذي خصصه لرصد ومعالجة مصطلحات الثروة السمكية المحلية.

لقد شجعنا إتمامنا أطروحتنا لنيل دكتوراة الدولة المغاربة والمجال البحري في القرنين 17 و18م، على التصدي للعراقيل التي واجهتنا في ضبط الموروث الثقافي الملاحي والبحري من خلال قيامنا سنة 2011 بإنجاز معجم لغوي ملاحي، جراء شعورنا بضحالة ما تمت صياغته من قبل بالفصيح، وغيابه تماما بالعامي،

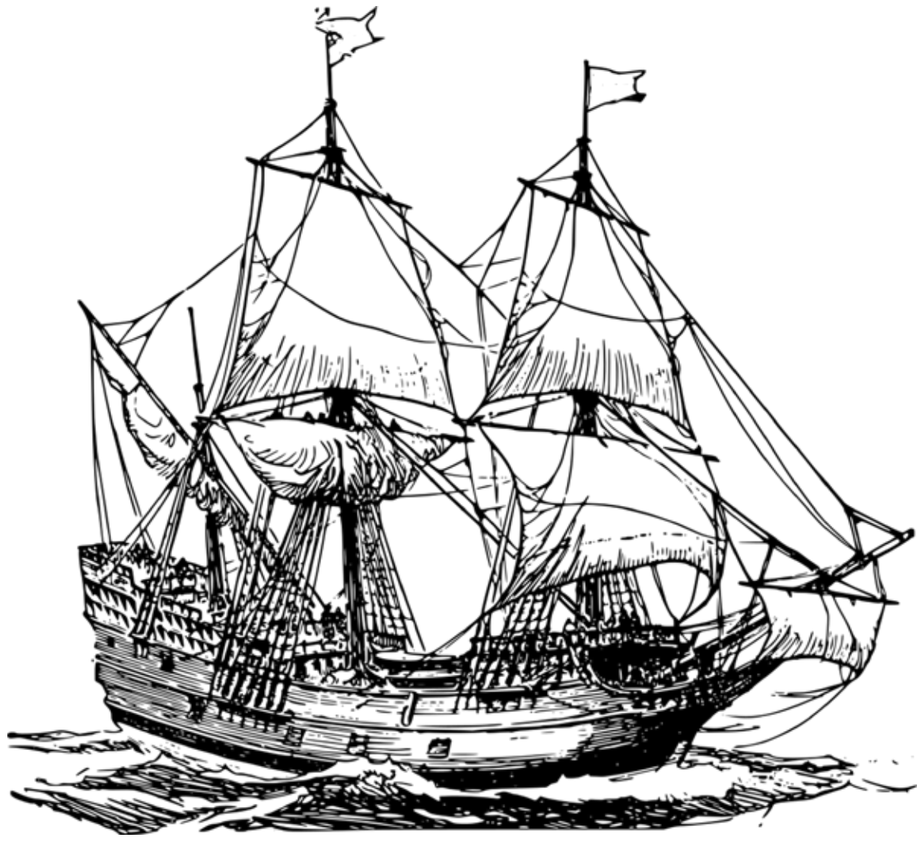

فكانت المعطيات والمعلومات التي توصلنا إليها، والتي طعمناها بالأبحاث الميدانية في المراسي المختلفة بين واد لاو وأكّادير، وبعض رحلاتنا على متن سفن الركاب، كانت دافعا لنا لإنجاز معجم خاص مقارن بالمعجم الفرنسي، ذي شقين: شق فصيح، وآخر عامي.

* مقومات الموروث الثقافي الملاحي المحلي

يتبين من الحصيلة التي تحققت لدينا في الشق المتعلق بالمعجم العامي مقلالية المصطلحات المتداولة في أوساط المهنيين والمتعاملين مع الشأن الملاحي في أبعاده المختلفة (حوالي 1050 مصطلح وتعبير)، ويرتبط ذلك بضعف الحضور الملاحي المغربي عموما، وضعف الاستقرار البشري على السواحل لظروف إثنوغرافية وتاريخية وطبيعية تناولناها في دراستنا المشار إليها أعلاه.

وقد أظهر لنا تتبع تلك المعطيات كون الموروث الثقافي اللغوي المغربي بوصفه عاميا وغير مقعد لغويا ليس ثابتا، ويتسم بتطوره الشديد والمتلاحق على المستوى الزمني، فضلا عن تداخله على مستوى المناكق والمجالات الساحلية، لا سيما مع المتغيرات التي عرفتها السواحل أكثر من غيرها، جراء تركز الثقافة الاستعمارية فيها بصورة أكبر؛ وبناء على ذلك ساد الحضور اللغوي الإسباني في المغرب الشمالي (من غرب مدينة السعيدية حتى مرسى العرائش) وفي الصحراء المغربية (من ما وراء طانطان حتى الكّويرة)، فيما تقاسم النفوذ مع الحضور اللغوي الفرنسي من ذلك المرسى إلى شمال طانطان)، وخصوصا في المجالات الملاحية المرتبطة بالإدارة والتنظيم والصناعة الملاحية والمادة الأجنبية. كل هذا كانت نتيجته الإسهام المتسارع في تقلص سلطة الموروث الثقافي المتداول في أوساط المهنيين قبل مرحلة الاستعمار، لم تسلم منها بصورة نسبية إلا مجالات الاستقرار الأمازيغي العصية عن الاكتساح، ولا سيما سواحل سوس حتى جنوب الصويرة، دون أن ينسحب ذلك على المجال الأمازيغي في الشمال (منطقة الريف الأمازيغية).

هذا على المستوى الأفقي، أما على المستوى العمودي، فإن قوة حضور المعجم اللغوي الأجنبي والاصطلاحات المتحولة عنه قد صارت أكثر قوة كلما تعلق الأمر بالانتقال من الأنشطة المشاعة (التقاط – صيد ساحلي – ملاحة المساحلة) إلى الأنشطة الأكثر تخصصا؛ حيث يحضر الموروث الثقافي المحلي الأصلي فيما يتعلق بمخلفات البحر على السواحل، مثلما على أدوات الصيد والقوربة التقليدية، وأيضا فيما يتصل بالمعجم الثقافي الإكتيولوجي لأسماك السطح الذي حافظ على نسبة مهمة منه بغيرة شديدة، واضطر إلى مزاوجتها بالمصطلحات الإسبانية، وأحيانا بالمصطلحات الفرنسية المحولة عاميا تماشيا مع التأثير المتبادل بين مراسي الشمال وأمثالها الجنوبية، وخضوعا لشروط السوق التي لم تعد منغلقة على الداخل؛ فيما كان تغلغل الاصطلاحات الأجنبية معتمدة في السفانة وتقانتها، وفي الصيد الثبجي (أعالي البحار) وسِماكته الغريبة عن المهنيين المحليين، ويتضح هذا الخضوع كلما كبر المركب، وتطورت التقانة، واتسع المدى البحري.

* مظاهر أسس المعجم الثقافي الملاحي المحلي

يوضح الجدول المرافق جوانب عامة من إحصائيات المكونات المختلفة للمعجم الثقافي المذكور، والتي بلغت 1078 مفردة وتعبيرا:

المصدر اللغوي	سفانة وتقانتها	أسماك وكائنات بحرية	المناخ البحري	أدوات الصيد	المجموع
عربية	308	175	104	32	619
أمازيغية	09	140	07	06	162
إسبانية	137	97	26	02	262
مصدر آخر	29	06	--	--	35
المجموع	483	418	137	40	1078

ويتضح من خلاله أن البعد العربي في صورته العامية يشكل أكبر كتلة في المعجم، نصف مفرداته وتعابيره مرتبطة بالسفانة والقوربة وتجهيزاتها ولوازمها (حبال متنوعة، صواري، أخشاب، أشرعة...)، ووظائف مهنييها (أمناء، رياس، قلفاطون، نجارون، بحارة...)، فيما يختص أزيد من الربع بالسّماكة والكائنات البحرية، على أن جزءا غير يسير من الباقي استأثرت به جوانب المناخ وحالات البحر (رياح، وضعية البحر...).

وفي المقابل نلاحظ أن إسهام اللسان الأمازيغي فقير إلى حد ما، واستأثرت السّماكة بالقسط الأوفر منه؛في حين لا يولي للسفانة ولا إلى المناخ إلا جزءا لا يبلغ العشر، نظرا لبساطة القوارب المستعملة من جهة، واستناده عند الحاجة على العامي العربي. والسبب الذي جعل المناطق الأمازيغية أكثر تمسكا بموروثها الثقافي اللغوي في حياتها المهنية هذه، كون التأهل يقوم على الاكتساب النظري للمهارات والمعارف شفاهيا من خلال التجربة المباشرة، حيث يحل النقل المتوارث للمعرفة بروحها وتقاليدها ومنطوقها بدل التعلم، إضافة إلى كون اللغة الفصيحة لم تستطع أن تنتشر إلا في مجالات محدودة جدا من تلك المناطق، دون نسيان تفاوت الغاية المهنية من الشأن الملاحي، إذ عده مهنيو الشمال بديلا عن الأنشطة البرية، فيما كان مهنيو الجنوب يعدونه مكملا لها.

فيما يحتل المصدر الإسباني مرتبة وسطى من خلال استحواذه على ربع المعجم، وهو حضور يرجع إلى وقت سابق عن فترة الحماية، ارتبط من جهة بالوجود المستمر للسان الإسباني على السواحل الشمالية من خلال قواعد الاحتلال منذ نهاية القرن 15م، وتعزيزا بالارتياد المهني للمياه الإقليمية منذ العهد السعدي انطلاقا من جزر الخالدات، وهو ما يفسر إثراءَه لمعجم السّماكة، ولاسيما فيما يتصل بأسماك الأعماق.

وما يفسر حضوره القوي على مستوى السفانة وتقانتها، مثلما في علم المناخ وحالات البحر، كون العناصر التي كانت تنشط المراسي المغربية في مجال الصناعة الملاحية وفي ارتياد عوالم البحار، تمثلت منذ

فترة ما قبل القرن 17، فضلا عن العناصر أوروبية الأصل، علوجا (نصارى اعتنقوا الإسلام) وأسرى[7]، في ما عرف بلقب «المورسكيين» النازحين أو المطرودين من إسبانيا في القرنين 16 و17 بعد سقوط غرناطة، والذين فضل جزء كبير منهم الاستقرار بالسواحل فيما بين تطوان والعرائش وما جاورهما أولا، ثم في سلا الجديد (الرباط) بصورة أكثر تركيزا، وهي عناصر أندلسية نزحت بشكل أو آخر من الأندلس، بعدما فرضت عليها الأسبنة لغة وتقاليد وألقابا؛ ونظرا لريادتها لهذا المجال الملاحي فرضت معارفها الأندلسية بمصطلحاتها الإسبانية. وانطلاقا من المراسي الرئيسية التي كانت تنشطها اتسع تأثيرها ليشمل الساحل ما بين واد لاو إلى

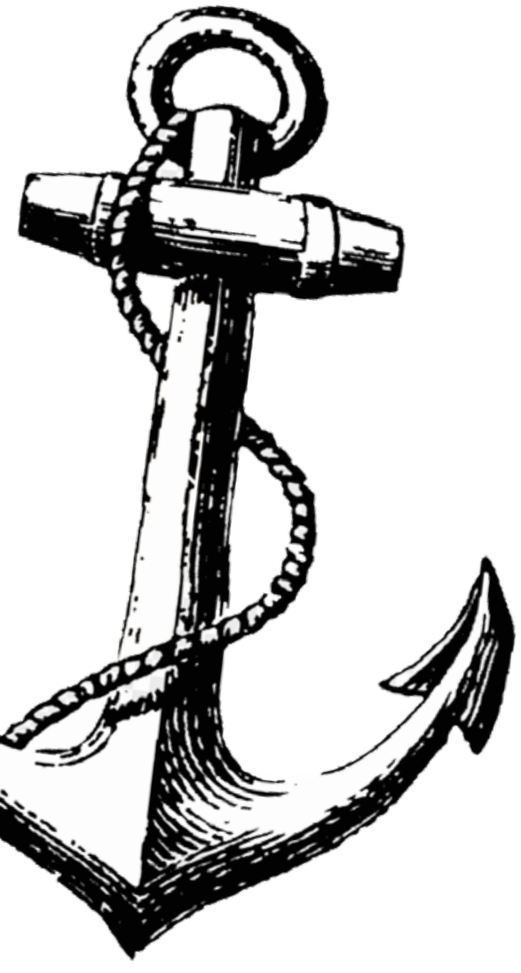

جنوب الجديدة حتى العقد الأول من عهد الحماية، دون أن يتجاوز مداه إلى مناطق الحضور اللغوي الأمازيغي ما بين أسفي وطانطان جراء احتفاظ ساحل هذه الأخيرة بعناصرها الأصلية الخالصة، وضعف تعرضها للمؤثرات الخارجية.

وسواء في الشمال أو في الجنوب، كانت التجربة وما تفرضه من تحديات عاملا رئيسا في استنباط المصطلحات والتعابير بناء على الحاجة إلى الإجابة عن الأسئلة المطروحة مهنيا، من خلال التمييز والتصنيف. ولهذا، وباستثناء المصطلحات العامة التي كانت تحملها اللغة العربية المتداولة على صعيد العامة (بحر، قارب، شبكة، حوت...) التي قد تعبر عن أنواع متعددة ومختلفة، ما فتئت العناصر الممارسة تولد الجديد من المصطلحات بناء على الأشياء المحسوسة، ملاحظة اختلافها عن غيرها، فيسعفها المعجم اللغوي الفصيح المتداول إن وجد (شَابَلْ – بُورِي – البَسِيطْ / العمق الصخري الضحل – بْلالْطِي / نجار البلوط – التَّرْنْ / الريح المستقيمة – الخَسِيبَه / أقصى الجَزر ...).

ويدفعه الاعوزاز إلى استنباط مصطلحات وصفية للسمك، إما بناء على الهيئة (مثل: كَوَالْ (تشبيها لآلة إيقاع مخروطة الشكل) – لَخْرَشْ (ذو الجلد الخشن) – تَاغْنْجَه (الملعقة الكبيرة) – السَّمْطَه (الحزام الجلدي)...)؛ أو على اللون (مثل: اللُّوِيزِي (الفضي المتلألئ) – أَوْرَاغْ (الأصفر) –أَزُوكَاغْ (الأحمر) – زْرَّاقْ (الأزرق)...)؛ أو على الخاصية (مثل: بُوجَمْرَه (المكلل بلون اللهب) – بُوشْلاَغَمْ (صاحب الشوارب) – بُومَخْيَطْ (صاحب الإبرة الكبيرة) – بُوشُوكْ (المكلل بالشوك)...)؛ وغالبا على التماهي مع الألفاظ المستمدة من الثقافة القارية، وخصوصا من الحيوانات البرية (مثل: كلبْ الْمَا (كلب البحر) – مَعْزَه (عنزة البحر) – حَلُّوفْ البَحَرْ (خنزير البحر) – حَوْلِي (كبش البحر)...).

كما دخلت ألفاظ أخرى تعود إلى الأصل اللاتيني خلال التاريخ الحديث، ولا سيما عن طريق اللغة الإسبانية نتيجة الإسهامات الكبيرة التي أسهم بها بحارة مصب أبي رقراق الممتزجون بالثقافة الملاحية الأندلسية، وصيادو جزر الخالدات النشيطون في المياه الجنوبية بين أسفي وسواحل الصحراء منذ مطلع العصور الحديثة مثل (مْرِينَه (morena)، بَقْلاَوْ (baclao)، قِمْرُونْ (camaron)، كابَايْلاَ (cavalla)).

أما بالنسبة للسفانة وصناعة المراكب، فإن المعجم المهني قد استند في بنائه الأساسي على معجم النجارة المتداول في بناء الهياكل الرئيسية، فكانت المفردات هنا إما ذات بعد عربي (قاع، تعلاق، عنق، حصيرة، تجلاد، جنب ...)، أو ذات بعد أمازيغي أدمج في اللسان الدارج وهي قليلة جدا (تتكّورة، بوديكّة، نختيل ...)؛ فيما تتداخل المنطوقات في الأجزاء الأكثر تقنية بين المتفرعات العربية الفصيحة (ضلوع، مرايا، لوح، فريش، حزام، عوينات ...) والمقتبسات اللغوية الأجنبية (بروة، كونطرا قرينة، سنطينة، باطا فورما، كَومينة ...)، وهي في الغالب إسبانية الأصل بناء على ما سبق التذكير به. ويستفحل انتشارها بصورة أكبر حين الانتقال إلى المكونات الرئيسية والتقنية للسفن الكبرى سواء في الأقسام الرئيسية أو في الملحقات والإكسسوارات (طابلة، صرادو، كابيلية، بروبازيو، كوبيرطا، بشكانطي ...)، والأمر نفسه ينطبق على أسماء أنواع السفن والصواري وبعض مراتب البحارة.

البيبليوغرافيا المعتمدة

* أميلي (حسن)، الجهاد البحري بمصب أبي رقراق خلال القرن 17، (رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا - 1989)، جامعة الحسن الثاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 9، الرباط 2006.
* المغاربة والمجال البحري في القرنين 17 و18، (أطروحة دكتوراه الدولة - 2002)، مختبر الأركيولوجيا والتراث الثقافي الساحلي، كلية الآداب، المحمدية 2011.
* المعجم الملاحي والبحري: عربي – فرنسي - مغربي، المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط 2011.
* التادلي (إبراهيم بن محمد)، زينة النحر بعلوم البحر، الخزانة العامة، الرباط، مخطوط رقم 1347 د (أقدمنا على نشره كاملا في مجلة المناهل الصادرة عن وزارة الشؤون الثقافية بالمغرب، ع 52، السنة21، شتنبر 1996).
* Brunot (Louis), Notes lexicologiques sur le vocabulaire maritime de Rabat et Salé, éd. E. Leroux, Paris 1920.
* La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé, éd. E. Leroux, Paris 1920.

ترجمنا هذا المؤلف تحت عنوان البحر في التقاليد والصنائع المحلية بالرباط وسلا، نشر المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط 2016.

* El Attaoui (Abderrahim), Ichtyonymie marocaine, Rabat 1999.
* Laoust (Emile), Pêcheurs Bérbères du Sous, in Hespéris, Vol 3, Rabat 1923.
* Dan (Pierre), Histoire de Barbarie et de ses corsaires, 2ème édition (1ère édition 1636), Paris 1649.

قمنا مؤخرا بترجمة هذا المؤلف الهام تحت عنوان تاريخ باربارِيا وقراصنتها -البحرية الإسلامية في بلاد المغارب والبحر الأبيض المتوسط، كلية الآداب، المحمدية 2020.

1- أميلي (حسن)، الجهاد البحري بمصب أبي رقراق خلال القرن 17، (رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا - 1989)، جامعة الحسن الثاني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 9، الرباط 2006.
المغاربة والمجال البحري في القرنين 17 و18، (أطروحة دكتوراه الدولة - 2002)، مختبر الأركيولوجيا والتراث الثقافي الساحلي، كلية الآداب، المحمدية 2011.
المعجم الملاحي والبحري: عربي – فرنسي - مغربي، المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط 2011.

2- التادلي (إبراهيم بن محمد)، زينة النحر بعلوم البحر، الخزانة العامة، الرباط، مخطوط رقم 1347 د. وقد أقدمنا على نشره كاملا في مجلة المناهل الصادرة عن وزارة الشؤون الثقافية بالمغرب، ع 52، السنة21، شتنبر 1996.

3- Brunot (Louis), Notes lexicologiques sur le vocabulaire maritime de Rabat et Salé, éd. E. Leroux, Paris 1920.

4- Brunot (L.), La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé, éd. E. Leroux, Paris 1920.
وبالنظر لقيمته الفائقة أقدمنا على ترجمته تحت عنوان البحر في التقاليد والصنائع المحلية بالرباط وسلا، نشر المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط 2016.

5- Laoust (Emile), Pêcheurs Bérbères du Sous, in Hespéris, Vol 3, Rabat 1923.

6- El Attaoui (Abderrahim), Ichtyonymie marocaine, Rabat 1999.

7- أفرد الراهب بيير دان فصولا من مؤلفه تاريخ باربارِيا وقراصنتها الذي أصدر طبعة منقحة عن الإصدار الأول (1636) بباريس سنة 1649 لتبيان الدور التقني الهام الذي لعبه العلوج والأسرى في تطوير النشاط الملاحي في شمال إفريقيا عموما، وفي المغرب على وجه الخصوص. وقد قمنا مؤخرا بترجمة هذا المؤلف الهام تحت عنوان البحرية الإسلامية في بلاد المغارب والبحر الأبيض المتوسط، كلية الآداب، المحمدية 2020.

البحر في روايات وتراث الخليج العربي

د. سمير الضامر
باحث ومستشار ثقافي
السعودية

قطة البحر بوصفها حارسة المياه وصانعة الأساطير

للروايات الشعبية في تراث المملكة العربية السعودية (روايات منطقة الأحساء نموذجا)، وتراث دول منطقة الخليج كافة حضور بارز في الذهنية الشعبية وذاكرة الجدات والأجداد، وليس هذا فحسب، بل تمازجت الروايات مع صناعة الطقوس/العادات والتقاليد في منظومة ثقافية ذات بنية سردية أسطورية.

وفي رواية/احزاية: (قطوة البحر وقطوة البيت). تتجسد الجوانب السردية والطقسية في منظومة واحدة، فمن العادات القديمة التي كانت تمارسها النساء في الخليج، أنهنَّ يذهبن مجموعات إلى شاطئ البحر عندما تتأخر عودة أزواجهن من رحلة الغوص في البحر، ويؤدين بعض العادات التي هي أشبه ما تكون بالطقس أو التعويذة، ويتكرر هذا بشكل موسمي قبل (القفال) وهو عودة البحارة من رحلة الغوص.

تأتي النسوة بسعفة يابسة من النخل، ويشعلن فيها النار، ويرددن: اشووه.. اشووه! ويأتين بـ(قطوة) ويغرقنها في ماء البحر ثم يخرجنها من الماء، ويتم تكرار هذا العمل من الحرق والإغراق، ويرددن أهزوجة تقول:

توب توب.. يابحر..
ماتخاف من الله.. يابحر
أربعة والخامس دخل
أربعة والخامس شهر
جيبهم.. جيبهم
توب توب .. يابحر

ثم يعدن لبيوتهن وبعد ذلك بأيام قليلة يعود البحارة من رحلة الغوص.

العمل الذي كانت النسوة يؤدينه عبارة عن حالة من التعامل مع البحر بوصفه كائناً يحس ويشعر ويتألم بحالة الحرق والتهديد بإغراق القطة! وكأن الطقس يقول للبحر: (ولكن بطريقة غير مباشرة) ذق حرارة النار التي نحس بها في قلوبنا لبعد رجالنا وغيابهم عنا! ولكن لم يكن عنصر (القطوة) مفهوماً في السياق! لماذا القطة تحديدا؟ لماذا يتم إغراقها في البحر؟ لم أجد تفسيراً لهذا العمل الرمزي الطقسي بشكل مباشر، لكن عند تدويني لاحزاية (قطوة البحر وقطوة البيت) اكتشفت هذا الأمر وتفسيره، بمعنى: أن الحزاية الشعبية فيها تفسير للطقس. وملخص الحزاية في العناصر التالية:

- أن امرأة غاب عنها زوجها في رحلة الغوص في البحر.
- يأتيها منام لمدة ثلاث ليال فيه امرأة تهدد زوجة الرجل البحار.
- المنام فيه تهديد بتنكيس الزوج البحار في البحر إذا لم ترسل الزوجة (مهادا، ومنزا، وعيشا حساويا).
- تتحاور الزوجة مع أختها وهي حزينة.
- تستمع لهذا الحوار القطة التي في البيت فتغيب أياماً.
- يعود المنام للزوجة ولكن بأسلوب الشكر فإن أختها قد أحضرت لها المهاد والمنز والعيش الحساوي.
- البشرى بعودة زوجها البحار.

ومن هنا يكون الربط مابين الطقس الذي كانت النسوة يعملنه، وفيه إغراق القطة في البحر، وبين وجود القطة في الحزاية الشعبية، بمعنى أن الحزاية وضّحت لنا أن في البحر قطة هي أشبه ماتكون بـ(حارسة المياه السفلية) كما في الأساطير القديمة، وتطلب، ومالم يتحقق طلبها فسوف تُغرق الرجال البحارة! وفي

الحزاية أن قطة البيت استمعت إلى مطلب أختها قطة البحر فهبّت مباشرة لتنفيذ الطلب وأرسلت لها ماتريد، ونلاحظ هنا اكتمالا وتقابلا مابين الطِقس والحزاية في ثنائيات: (البحر والبيت، الزوجة وأختها، قطة البيت واختها قطة البحر، ...).

شكّل المنام شفرة رمزية لم تستطع الزوجة حلها، وكانت هي بمثابة الوسيط أو الناقل من خلال الحوار مع أختها، والقطة فهمت الرسالة وقامت بتنفيذ طلب أختها قطة البحر فأرسلت لها ماطلبت. إذا فالحيوانات في الحكاية الشعبية (قطوة البحر وقطوة البيت) تحمل مدلولات رمزية متعددة، وذلك بحسب سياق ووظيفة كل حكاية، ومن خلال الحزاية المُستشهَد بها فإن رمزية الحيوان/القطة تتمثل في:

1. رمزية حارس المكان/ والقطة حارسة المياه السفلية، وفي بعض ثقافات شرق آسيا فهم يعمدون لوضع تمثال صغير أمام البحر لكائن بشري أو حيواني، وذلك لكونه حارسا لتلك المياه وقد رأيت ذلك بنفسي، والحزاية هنا تمارس الدور الأسطوري نفسه لوظيفة الحيوان/قطة البحر. كما أن في احزاية (اشحيمة ولحيمة) أيضا استلهام عالم النزول للعالم السفلي كعقوبة لمن ضرب القطة، فالقطة التي ضربتها المرأة اشتكت لأهلها في باطن الأرض، وقاموا بعمل ليقتص من المرأة التي ضربت ابنهم القط، والذي على غراره مرضت المرأة مرضاً أشرفت فيه على الموت، مالم يشفّ القط، وصارت حياة المرأة مرهونة بحياة القط الذي ضربته؛ إن شفي وعاش فستشفى وتعيش، وإن مات فستموت! وهذا ربط تقابلي بين الحيواني والبشري في الحزاية الشعبية. و(السقوط للعالم الأرضي هو نتيجة لذنب أو خطيئة أو عدوان على أهل الأرض؛ الكائنات الغير مرئية) جيلبردوران 89

2. رمزية التسخير، بمعنى: أن كل شيئ في القصص مسخر للحيوان، ولفرض مكانته وقوته وقدرته على السيطرة بالنفع أو الضر! حتى أن المنام أو الحلم مسخر لنقل طلبات ورغبات القطة التي في البحر، وتم نقل رغبتها من: البحر.. إلى الحلم.. إلى المرأة/ الزوجة.. إلى قطة البيت.

3. رمزية فهم الشفرة وتحقيق الطلب المراد، وهذا الأمر هو حالة تقنية سردية، وهي أن في الحزاية مشكلة يستعصي على البطل حلها أو كشف سرها، فيكون الحيوان/القطة بقدراته الخارقة (التي منحتها إياه الحزاية) هو الذي سيفهم الشفرة، وهو الذي سيحقق الرغبة، وبذلك يكون الحيوان هو العامل المساعد أو المنقذ للرجل في رحلة الغوص! وكأن الحزاية تستدعي سؤالاً مضمراً: ماذا لو لم تستمع القطة للحلم؟ ماذا سيكون مصير المرأة الحزينة؟ ماذا سيكون مصير الرجل في البحر؟ وعدد من الأسئلة تكون في الذهن بافتراض عدم وجود العامل المساعد، الذي كان هو الحلقة السردية لحل الأزمة.

4. رمزية التهديد .. الحيوان له قدرة في التهديد وتنفيذ تهديداته المتمثلة في معالم السيطرة والقوة على حياة البحارة. والإنسان/الراوي هو الذي يضع هذه الرمزية للحيوان لمعرفته أن قدراته البشرية محدودة، فيكون الحيوان وسيلة صناعة خيالية عجيبة كما سبق التنويه إليه.

5. رمزية السيطرة الكونية، فالحيوانات تسيطر على الكون البحري والكون البري أو حياة المدينة، والبشر هم وسائل نقل وتحقيق لمتطلبات ورغبات هذا الحيوان المخيف –بتهديداته- في تصور الناس.

6. رمزية صناعة الصراع الدرامي مابين الخوف والأمان، مابين الغيبي والواقعي، مابين الحلم والحقيقة.

7. رمزية الأنوثة، فكيان الأنثى هو الفاعل في صيرورة الأحداث والتصورات في الحزاية (المرأة- القطوة- السعفة) وما الرجل إلا مرتكزا ترتكز عليه حالة الصراع الدرامي وإن لم يوجد إلا وجودا ذِكْريا مباشراً. فالأنثى/ المرأة/القطة، هما اللتان شكلتا الأحداث، وتصورتا الأمكنة، وحددتا مكامن الصراع النفسي والدرامي حتى انفراج عقدة الحزاية في النهاية وهو عودة الرجال البحارة سالمين لديارهم وأهاليهم.

8. رمزية القربان، بمعنى أن ماطلبته قطة البحر (مهاد- منز- عيش حساوي) ماهو إلا قربان للقطة حارسة المياه السفلية، وتقديم تعويذة لحفظ الزوج من شرور القطة التي قد تلحق به وبمن معه من البحارة. وحضور القرابين كثيرة في الحزايات والألعاب والعادات الشعبية، ورصدتْ عددا منها من خلال طقس (الحية بيّة) وحكاية الشاعر (بن مسلم) الذي رمى بورقة في ماء العين (عين الحارة) الغائرة فعادت لتنبع من جديد، و (حكاية العين اللي تطلب) ومن لا ينفذ طلبها فستلتهم أي شخص يسبح فيها، وطقوس كسر البيضة على عتبة البيت، ورش ماء (دم الأخوين) على عتبة البيت، أو في السكة أو الطريق التي حدث فيها سقوط شخص أو ضربه.

9. إذا كانت قطة البحر هي حارسة الماء أو حارسة العالم السفلي، فإنها في ثقافات أخرى تقوم الحية أو الثعبان أو حورية البحر بما تقوم به القطة نفسه، فالبنية واحدة لكن الحيوانات والكائنات مختلفة، وقد تكون المياه؛ مياه البحر أو مياه الأنهار أو مياه العيون أو مياه المستنقعات. وغالب تلك المياه ترمز للحياة والخِصب والأسرار العميقة. وكل مجتمع يتصور الحيوان الذي هو قريب الصلة من طبيعته وبيئته المكانية، والقطة دلالة على مكان ريفي أو بيوت مدنية متحضرة. و القطة في الأساطير ترمز للإله كما في الأساطير المصرية القديمة.

إن روايات وحكايات البحر في التراث الخليجي كثيرة وعميقة الدلالة، وتحتاج جهدا كبيرا من الباحثين في التدوين والدراسة والتحليل، إضافة إلى تمكين إعادة صياغتها في المنتجات الإبداعية المعاصرة كالسينما والمسرحيات والرسوم المتحركة والمسلسلات. إن تراثنا غني وثري، وحري بنا العمل بكل جدية وشغف وحب.

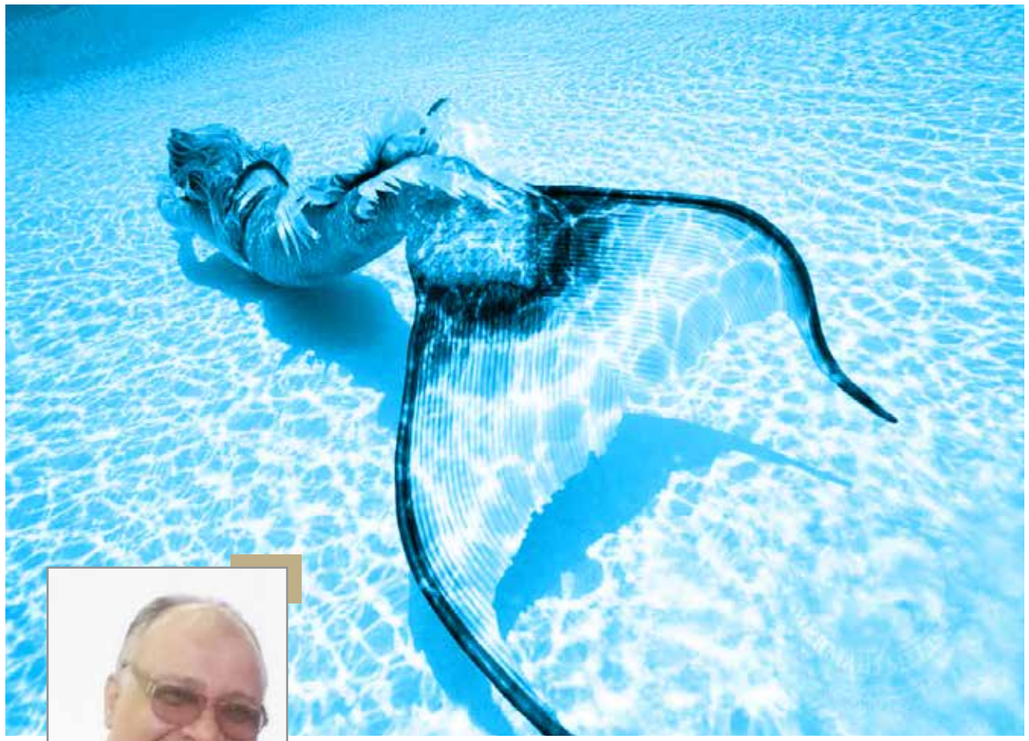

البحر
يغازل أبطال الحكايات

أ.د. مصطفى جاد
عميد المعهد العالي للفنون الشعبية بالقاهرة

تصنف الحكايات الشعبية إلى عدة أنواع منها: الحكاية الخرافية- الحكاية المرحة- حكايات الحيوان- الحكاية الاجتماعية- الحكاية الدينية- الحكاية الواقعية- حكايات الأمثال- حكايات الأولياء..إلخ. وجميع هذه الأنواع قد يدخل البحر عنصرًا أساسيًا فيها أو فرعيًا هامشيًا، ومن ثم لا يمكننا تصنيف نوع من الحكايات باسم «حكايات البحر»، لكن يمكننا القول إن بعض الحكايات الشعبية -على اختلاف أنواعها- تضمنت الكثير من العناصر المرتبطة بالبحر، فقد يكون البحر هو مسرح الأحداث لأبطال الحكايات والسير الشعبية والأولياء، وقد يكون حاجزًا منيعًا يحاول البطل عبوره ليبلغ غايته، وقد تعيش في البحر كائنات خرافية تصطدم بالأبطال، أو تعينهم، أو تقوم هي بدور البطولة مثل «حورية البحر»، أو النداهة، أو الدوجري، أو «أم الشعور»، أو «بو درياه»، أو «شنق بن عنق.

وعلى هذا النحو يغازل البحر أبطال الحكايات، تارة فوق سطحه بالمراكب والأشرعة والمشي على الماء، وتارة في أعماقه حيث عالم السحر والكائنات العجيبة.. لنجدنا أمام مئات الحكايات التي حفظتها لنا الذاكرة الشعبية العربية.

البحر في حكايات ألف ليلة وليلة

لا نستطيع أن نتحدث عن حكايات البحر دون أن نغوص في ألف ليلة وليلة وحكاياتها الساحرة، إذ تحفل الليالي بالكثير من الحكايات التي كان البحر عنصرًا أساسًا فيها، وأشهر هذه الحكايات "حكايات السندباد البحري"، التاجر البغدادي الذي يروي حكايات مثيرة خاضها في رحلاته البحرية حول الكثير من الأماكن السحرية والكائنات الأسطورية التي قابلها في البحر، وفي الجزر والبلدان التي مر عليها، ومغامراته في هذه الأماكن، وكيف نجا منها.. وتشمل حكايات السندباد سبع رحلات أساسية روى فيها مغامراته في الجزيرة المتحركة والخيول البحرية، ثم سفره إلى وادي الألماس، ومواجهة الغول الأسود، ونجاته من تناول الوليمة الغريبة، ولقائه مع شيخ البحر بعد نجاته في إحدى الجزر، ومقبرة الأفيال وقصة حصوله على العاج، ثم رحلته الأخيرة "القافلة"، حيث عاد متزوجًا، وأنهى حكاياته بعبارته: وعشت مع زوجتي وأهلي هانئًا، راضيًا مطمئنًا، ولم يعد بي شوق إلى السفر والترحال، بعد أن تقدمت بي السن، ووهن مني العظم. كما احتفلت الليالي بمجموعات أخرى مرتبطة بالبحر منها: حكاية "الصياد والعفريت"، و"بنت الملك السمندل" التي تجري أغلب حوادثها في قاع البحر، وحكاية «بلوقيا» التي تدور أحداثها في أعماق البحر وعلى أطرافه، وحكاية قمر الزمان بن الملك شهرمان، وحكاية سيف الملوك بن عاصم، وحكاية عبد الله البري، وحكاية جانشاه، وحكاية حسن البصري الذي تحفل حكايته بالكثير من المغامرات في البحر.

سفينة البحر

وفي سيرة سيف بن ذي يزن نجد السحرّة والأولياء يساعدون البطل في رحلة بحثه عن كتاب النيل، فيرشده سطيح الزاهد إلى سفينة سليمان التى يعبر بها البحر ليتحقق له مراده أما "نصر" ابن الملك سيف، فيحصل على "القضيب المسحور" الذي يضرب به البحر فتخرج منه بغلة تسير به إلى حيث يريد. ثم يظهر الأولياء للبطل سيف مرة أخرى ليرشدوه إلى طريق النجاة عبر البحر، وكيفية عمل السفينة التي يحتاجها، وارتباط السفينة بالولي فى السيرة، قد يشير إلى عنصر الطقوس الخاص بالأولياء، إذ أن السفينة كانت وما زالت تمثل أحد العناصر الطقوسية الهامة فى المعتقد الشعبى المصري. حيث نلاحظ أن أغلب الأضرحة الكبيرة نوعًا، والتى يقام لأصحابها مولد سنوى تملك سفينة... وتزين تلك السفينة بأنواع الزينة المختلفة، وتوضع على عربات وتسير كموضوع رئيس فى موكب مولد هذا الولي.. وسفينة الولي صغيرة الحجم نسبيًا، ويتم حفظها فى غير أيام المولد داخل الضريح أو قريبًا منه. ويتردد بين الناس الاعتقاد بأن تلك هى سفينة الشيخ (الولى) وأنه يقوم بواسطتها برحلاته البحرية.

الفرس يصطحب البطل إلى أعماق البحار

وتحكي سيرة سيف بن ذي يزن أيضًا عن امتلاكه أنواعا من الأفراس ذات الطبيعة الخارقة، وأشهرها "الجواد الخواض" الذي يتميز بأنه ذو رأسين، يصحب البطل إلى أعماق البحار دون أن يصيبه شيئ ودون أن يبتل أو يتأثر بالماء، ويصف الراوي لنا اللقاء الأول بين البطل وهذا الفرس، في صورة أشبه بالصورة السينمائية الخلابة: ".. وإذا بالبحر اضطرب بعضه ببعض، وتكاثرت أمواجه بالرفع والخفض، وخرج من وسط البحر حصان عال أحمر من الخيل مضمر، ولكنه أعجوبة بين الخيل وله رأسان ورقبتان.. وأن ذلك لما طلع من البحر حتى صار قريباً من الملك سيف بن ذى يزن، ووقف ولا خاف من الملك سيف ولا ارتجف، فقام سيف على حيله، وسار إلى الحصان، وتقدم عنده وأمسكه من عنقه، فطاوعه الحصان واستأنس به حتى أخرجه بعيداً عن البحر".

خاتم البحر لا يفارق البطل

يعد "خاتم البحر" من أكثر العناصر التي ارتبطت بشخصية بطل السيرة كعنصر سحري يستخدمه البطل لمواجهة العدو، وأحيانًا يسقط هذا الخاتم في البحر دون أن يملك البطل القدرة على استرداده، وأحيانًا أخرى يستطيع استخراجه من قاع البحر ليواصل رحلته. والبطل يحصل على "خاتم البحر" لاجتياز البحار دون أن يغوص فيها. ويستخدم البطل هذا الخاتم فى رحلة عودته من كنوز سليمان، حيث يقع فى طريقه وسط جماعة من آكلي لحوم البشر وهم من البحارة، ويجد البطل فى حصوله على هذا الخاتم طوق النجاة الذى سيذلل له صعوبات الطريق وهو غير مصدق لقوة الخاتم السحرية.

البطل يسير على الماء

ولاشك أن ظهور البطل فى الحدث ماشيًا على صفحة الماء- بقوة الخاتم السحرية- دون أن يصيبه أذى يمثل صورة قريبة الشبه بكرامات الأولياء، وهو ما نلحظه في حكايات بعض الأولياء، وكذا الحكايات التي تدور حول كرامات الخضر الذى يظهر أحيانًا متقدمًا بخطواته على صفحة الماء، ووظيفة الخاتم السحرى هنا مرتبطة بقدرات الولي، ومن ثم البطل عن طريق استخدامه الخاتم يقوم بدور مشابه للولى فى هذه الحالة، وهو ما جعل البحارة الذين يقابلون سيف بن ذى يزن ماشيًا وسط البحر يعتقدون أنه واحد من الأولياء وقد ظهرت كرامته على هذه الصورة.

كائنات البحر

وتحفل بعض الحكايات الخرافية بالكثير من الكائنات الخرافية التي تعيش في البحر، وقد سجل عبد العزيز المسلم في موسوعة "خرايف" بعضًا منها، مثل "خطاف رفاي" الذي يظهر في شكل شراع ويعترض السفن ليلاً في البحر، وله عدة أشرعة وأطراف تساعده على اللحاق بضحاياه إلى البر، ودائماً يحمل بيده حبلاً يلوح به، محاولاً اختطاف من يراه أمامه خاصة النساء اللواتي يخرجن من البيت ليلاً. أما "شنق بن عنق" فيوصف بكونه كائنا عملاقا طويل القامة ، كان وحشًا ضخمًا يعيش على البر وأيضا في البحر، فإذا خرج لليابسة أثار الغبار والزوابع ودمر المزارع والقرى التي يمر بها، أما إذا عاد إلى البحر فإنه يسبب هيجان الماء، فتعلو الأمواج ويغرق السفن. كما يشتهر أيضًا الجني "بو درياه" بـ «أبو البحر»، حيث يظهر دائما مبتور اليدين، وعُرف بإذائه الصيادين والبحارة. أما "روعان" فهو كائن مزدوج الشخصية، يؤذي البشر، وتشير الروايات إلى أنه كان بحاراً ماهراً ثم أخذ يعترض الناس ويؤذيهم دون إرادة منه.

البحر في حكايات الأمثال

والبحر حاضر بقوة في أمثالنا الشعبية العربية وحكاياتها، وقد يكون البحر مفردة في مثل شعبي، وقد يكون غاية في حد ذاته، وقد يكون وسيطًا إبداعيًا لشرح معنى المثل ومضربه، ومن هذه الأمثال: إللى يقعد على البحر ياما يعد الموج- زي البحر مالوش قرار- البحر يحب الزيادة- البحر يروق ويتعكر- المركب أم ريسين تغرق.. وهناك بعض الحكايات وراء تلك الأمثال كان للبحر الدور البارز في تشكيل عناصرها، نختار منها المثل الشهير: "يوديك البحر ويرجعك عطشان"، وهذا المثل منتشر في عدة دول عربية في صيغ متنوعة منها مصر والعراق، ويضرب للشخص الذكي أو المحتال (أحيانًا) المتمرس على خداع الآخرين، ويقصد بالبحر هنا (بحر النيل) . وقد رصد الميداني في جمهرة الأمثال حكاية شعبية رويت حول هذا المثل، جاءت على النحو التالي: يحكى أن رجلاً راهن آخر على أن يذهب به إلى النهر ويعيده دون أن يدعه يشرب منه فقبل ذلك الرهان، ثم انطلقا إلى النهر، و لما أراد أن يشرب منه قال له الرجل: ليس من الحكمة أن تشرب منه دون أن نأتي بشاهدين يشهدان بأنك شربت من النهر، فلنعد لنأتي بهما، فرضي بذلك وعاد به إلى المكان الذي انطلقا منه، و حينذاك قال له: لقد كسبت الرهان لأنك ذهبت إلى النهر وعدت بك ولم أدعك تشرب منه.

البحر في فنون الحكي الشعبي واسع المدى.. ويحتاج إلى جهود مكثفة لتوثيقه ونشره.

البحر في الأمثال الشعبية في دولة الامارات

د. سالم زايد الطنيجي
كاتب وباحث تراثي - الإمارات

ارتبط ابن الإمارات والذي يعيش في البيئة الساحلية بأروع معاني التضحية في الحياة وضرب الأجداد والآباء المثل الواضح والصريح لهذه الحالة والتي صارعو فيها قسوة الحياة ومعاناتها لكسب لقمة العيش بشرف وعزة نفس ، وتعد الأمثال الشعبية انعكاسا للصورة الحياتية التي عاشها هولاء الناس وهي علاقة قوية ربطتهم بالبحر وهنا يتضح لنا بأنها علاقة قديمة بها أخذ وعطاء وتضحية وفداء وصبر وعناء .

ولا شك أن البحر قد أدى دوراً اقتصادياً كبيراً لأبناء الإمارات وبالتالي هذا الدور أنعكس تماماً على الجوانب الأخرى مثل الجانب الاجتماعي والجانب الاقتصادي والجانب الثقافي.

هذه العلاقة التبادلية بين أبناء الإمارات والبحر ولدت حرفا جديدة ومهنا وصناعات نوعية خاصة بالبحر مثل مهنة صيد السمك والتجارة والغوص على اللؤلؤ ، هذا الارتباط الذي ولدته البيئة البحرية والظروف الحياتية يعد عهدا جديدا وأملا فريدا من نوعة للعيش والدخل الاقتصادي لكل الأسر الإماراتية على الساحل وأيضاً ولد علاقة وثقافة تنتقل من الأجداد للآباء للأبناء ، حيث أنها ثقافة بحرية لها مسمياتها وأفكارها وأمثالها ومحاذيرها ومن ثم أصبحت علاقة وجدانية بحرية وهذا أفضى إلى الكثير من الأمثال البحرية التي تعكس أسلوب الحياة والخبرات البحرية التي مرت عليهم وأدّت إلى ترديد هذه الكلمات والأقوال والأمثال في مواقف مشابهة للموقف الذي قيلت فيه.

ويمثّل البحر عند أهل الإمارات الحقيقة الواعية المتأصّلة في الأذهان والوجدان، تلك الحقيقة التي لا تغادر ذكرياتهم أبداً. ولهذا فهم حين يكونون على ظهور السفن فهم يتحرّكون وفق متطلّبات الحياة، وهم في تلك البحار يلجؤون إلى ترنيمة النّهام التي تخرج مجلجلة، شجيّة، شادية تعلن للوجود أنّهم يجوبون البحار طلباً للحياة.(البيان ، 2019) [1]

ومن هنا تنطلق تلك العلاقة المتجذّرة في نفوس سكّان الساحل فهم على قربهم أو بُعدهم عن الساحل في تواصل دائم مع البحر، ومنه تحدّرت قصصهم وحكاياتهم وخراريفهم التي عدّها الأستاذ علي قناعة مغلوطة ولكنّها راسخة، وفي الوقت نفسه يراها سلوكاً إنسانيّاً عامّاً لا علاقة له بالتطوّر العقليّ.(مرجع سابق).

ويلمح أبوالريش في كتابه الذي بعنوان البحر في الذكرة الإماراتية ، إلى أنّ البحر هو الأب الحنون الذي يضفي وجودُه وُجوداً على الوجود، وهو مصدر القوّة ومثال الصبر والتحمّل. وهو القدرة التي تدرأ خطر «بابا درياه» الذي يخرج من البحر وليس من الصحراء، وهذا من المفارقات العجيبة.

والبحر عبارة عن تجمّع كبير من المياه المالحة التي تشغل جزءاً كبيراً من سطح الأرض ولكن بشكل أصغر من المحيط، ويمُكن تلخيص الفرق بين المحيط والبحر من ناحية العمق، والمساحة، والحياة البحرية من خلال الآتي:[2]

يُعرّف البحر بأنّه تجمّع كبير من المياه ولكن بشكل أصغر من المحيط، ويتمّ تصنيف بحار العالم تبعاً لدرجة اتصالها بالبر وعلاقتها بجسم أكبر من الماء، فالبحار إمّا أن تكون هامشية، أو إقليمية، أو داخلية، فعلى سبيل المثال تحيط بالبحر الأبيض المتوسط أراض برية من جميع الجهات تقريباً، وبالتالي فهو بحر ذو قدرة محدودة على مشاركة تياراته المائية مع محيط أو بحر مجاور.[2]

وتُعَدّ الأمثال الشعبية إلى جانب الحكايات والألغاز الشعبية أهم أنواع الأدب الشعبي، فهي محببة إلى أبناء دولة الإمارات العربية المتحدة وأبناء منطقة الخليج العربي، ويحفظها عامة الناس ويرددونها في مختلف المناسبات، لذا سيلاحظ المتصفح لهذا الكتاب أن موضوعات الأمثال الشعبية الدارجة تناولت جميع أنماط الحياة لبيئات الشرائح الاجتماعية المختلفة والأساسية في دولة الإمارات العربية (البدو، والحضر، وأهالي المناطق الجبلية والزراعية)؛ فالأمثال الشعبية ارتبطت ارتباطاً وثيقاً باللهجة العامية متأثرة بتنوع المفردات والألفاظ التي كان مصدرها البيئات المختلفة لمجتمع دولة الإمارات العربية المتحدة.

وتزخر البيئة البحرية بالكثير من الأمثال والأقوال الدارجة على ألسن أبناء الساحل ومنها : [14]

• إذا كان هواك من الصدر كيف تعلى

وهذا المثل إذا دققنا في كلماته يتضح لنا المقصود من قوله ، هو يرتبط بصعوبة الموقف والظرف الذي يواجه الإنسان في الحياة ، حيث في حال وجود مثل هذا العائق هناك استحالة في تحقيق المطلوب ، وعودة للمثل يقصد بالصدر هنا هو مقدمة المركب أو السفينة وتعلى أي: تتقدم للأمام وتبحر بانسيابية في البحر ولكن عندما يكون الهواء والرياح ضدك هناك مقاومة شديدة وصعوبة كبيرة في الوصول للمكان المراد .

• إذا كانت السايبه في الصدر كيف بنعلى

وهنا يقصد بالسايبه الهواء ، والصدر كما هو معروف بمقدمة السفينة ، تعلى دلالة لفظية على الإبحار في جهة الشمال للبحرين والكويت ، وهذا المثل قريب من المثل الذي قبله وهذان المثلان تشابها في المعنى واختلفا في اللفظ .

• اللي يطلب العالي يصبر على الراش

ويقصد هنا في هذا المثل بالعالي الجلوس في مقدمة السفينة والراش رذاذ الماء الذي يتصاعد ويتطاير أثناء سير السفينة إلى الأمام ويلاحظ من هذا المثل بأن الإنسان الذي يريد أن يرتقي ويتميز ويكون في الصدارة دائماً ويحقق هدفه في الحياة ، عليه بالصبر وتحمل المشاق والتحديات التي تواجهه أثناء سيره في الطريق مثلما تحمل الماء الذي يبلله في حال الجلوس على صدر السفينة .

• البحر له ناس لفيحه يعرفون التوح م اليرّه مب كل من تاح سريحة قال هذا خيط بيرّه

هذه في الأساس أبيات من قصيدة ولكنها أصبحت مثلاً يتناقله أبناء الإمارت في جميع البيئات وهو متداول عند الكثيرين على ألسنة الناس ، ويقصد بهذا المثل أن كل مهنة لها ناسها والمختصون بها ، منهم من يعرفون أصول الصيد بالطريقة الصحيحة والخالية من الأخطاء وليس كل من يحاول الصيد ينال المطلوب ، والبحر له أهله الذين يعرفون كل التفاصيل الدقيقة به ولفيحه يعني أصحاب خبرة ودراية والتوح هو رمي السنارة واليرّة هو جر وسحب هذه السنارة للأعلى ، وسريحه هي قطعة قماش أخذ منها خيط وهي لا تتناسب مع أصول الصيد ومهنتة.

• سوّ خير وعقّه في البحر

هذا المثل يدعو للإيجابية في التعامل والعطاء كقيمة حضارية في الحياة ويدعو هذا المثل الإنسان لعمل الخير دائماً وأن لا ينتظر الشكر والثناء من أحد لأن من يجزي على هذه الأعمال هو الله سبحانه وتعالي ، وأحيانا هذا المثل يلفظ على نحو(اعمل الخير وعقه في البحر) ، حيث تعني كلمة سوّ أداء الخير .

• لوثات البحر وايد

ويعني هذا المثل أن البحر يقذف الكثير من المخلفات من السفن الغارقة ويقصد بذلك أن الحياة بها الكثير من الارزاق ورزق الإنسان موجود ومكتوب له ولكن لمن يعمل ويجد ويجتهد في الحياة وهذا الأمر يتطلب من الإنسان أن لا ييأس مهما واجه وبدا له أن الرزق محدود.

• الغرقان يتعلق بالشبو

وهذا من الأمثلة التي لها ارتباط واضح بمفردات البحر ، هذا المثل يعطي صورة واضحة حول الإنسان الذي يتعلق بكل شيء يعينه على تحقيق أهدافه ، والشبو هو نوع من أنواع الطحالب التي تتكون في المياه الراكدة ويطلق عليها الطحالب البحرية ورغم أن الطحالب خفيفة الوزن في الماء لكن الإنسان يتعلق بها ويحاول الإمساك بها للنجاة .

• قيس قبل ماتغيس

ويعطي هذا المثل خارطة طريق للإنسان لكن يكون دائما في الموقف الصحيح والنتيجة الطيبة المشرفة، لذلك على الإنسان أن يقيس الأمور بطريقة علمية وعملية والغوص هنا للتأكد من المسافة التي بين سطح البحر وقاعه ويدعو هذا المثل الإنسان إلى الاحتياط والتخطيط لأي عمل قبل البدء فيه دائماً وأن يترك العواطف جنباً في أمور حياته .

• المسافر له في البحر طريح

هذا المثل له دلالة واضحة على أن التوفيق وتسهيل الأمور والإيجابية والتفاؤل وخاصة في السفر أمور كلها بيد الله سبحانه وتعالى لأنه هو المعين ، ويجب على الإنسان أن لا يصاب باليأس حيث أن البحر به عقبات عديدة ورغم كل ما يواجهه الإنسان من تحديات إلا أن الله سبحانه وتعالي هو من يتولى الانسان برعايته وحفظه في مثل هذه المواقف .

• طبعان ويهوّس على تريجه

طبعان تعني باللهجة المحلية غريق والطبعه تعني أن المركب في طريقه للغرق ، ويهوّس تعني الضغط ويدوس على شيء ما تحت رجلة ، وتريح هنا تعني حافة المركب وهذا المثل يدل على أن الإنسان يجب ألا يضغط ويعتمد بثقله على حافة المركب المتبقية لأن ذلك سوف يؤدي لإغراق المركب بأكمله ، وأحيانا ينطبق على الإنسان الذي لايبالي بأي شيء في سبيل نجاته .

• عق الخيط وعلى الله الصيد

عق الخيط تعني ارم الخيط ويقصد به السنارة التي في آخر الخيط ويقصد بهذا المثل أن الانسان عليه الاعتماد على الله رب العالمين والسعي باستمرار في الحياة لنيل مطالبه وبذل الجهد والتوكل على الله لأنه هو الموفق أولاً واخيراً .(https://islamstory.com/ar/artical/23844)

• الغوص عص بريجه ولوفيه ربيات

الغوص فيه هم وبه ألم وغصة ولوكان فيه مال (ربيات) جمع ربية ، وهذا المثل يوضح مدى صعوبة الغوص والنزول لقاع البحر وجمع المحار والمغامرة التي يقوم بها الغاصة لكسب العيش .

• السكران ينبر عن راسه

عملية النزول لقاع البحر فيها انقطاع تام عن التنفس بالأكسجين والرجل الذي يغوص يكون في وضع صعب من قلة التنفس وينبر عن رأسه أي يحرك الحبل لسحبه إلى الخارج .

• البحر سبعة والبلد سبعة

سبعة هي وحدة قياس لعمق البحر وأحيانا أكثر وأحياناً أقل حسب العمق ، لذلك قياس العمق من خلال حبل وبه قطعة من الحديد ، ويقال هذا المثل لكون ما يحصل عليه الغيص لا يكفي من المال وهنا يوضح ضيق ذات اليد التي تجبر الإنسان على هذه المهنه الصعبة والشاقة.

• اللي ما يقيس قبل لا يغوص ما ينفعه الغوص عقب الغرق

البحر والعمل فيه مخاطرة كبيرة وهنا يوضح هذا المثل ضرورة أن الإنسان يقيس العمق ويعرف الأمور بوضوح قبل أن يقرر الغوص في هذا المكان ، وإلا ستكون نهايته مؤلمة ويغرق في هذا العمق الكبير .

• الشيص في الغبة حلو

الشيص هو ثمار النخيل الغير ملقحة ، والغاصة في وقت الصيف يكونون في البحر والغبة هي العمق الكبير في البحر ، لذلك الغاصة لويحصلون على شيص يكون أفضل من لا شيء .

• لا يغرك حمر حيابة.. ترى ليحانه شريش

هذا المثل يقال وصفاً للسفينه عندما يكون لونها أحمر وهنا قديماً كانو يطلون السفينة بالصل لحمايتها من ماء البحر ، والشريش هو شجر النيم وأخشابه من النوع الضعيف وليس به جودة .

• كل هوا وله شراعه

السفن في الماضي كانت تعتمد على الأشرعة في حركتها بالبحر ، والشراع عندم يضرب فيه الهواء تتحرك السفينه للأمام بسرعة حسب الرياح ، وكل سفينه لها شراع حسب حجمها وحسب القوة الدافعة من الرياح لها.

• البِلْد شرات عكّاز العَمَي

البِلد هي وحدة قياس للغاصة ، وعكاز العمى يقصد به عصا الأعمى ، الأعمى يقيس به مسافة الحركة والحواجز أمامه أثناء سيره في الطريق، والغاصة دائماً يقيسون لكي يتأكدو من العمق بشكل أدق .

• حصباة فيها دقّة

هذا المثل من الأمثال التي ترتبط بالغوص وحصباة يقصد بها حبة لؤلؤ كبيرة ولكن يعيبها أن بها كسرا في أحد أطرافها وهو صغير ، وهذا المثل يقصد به أنك تمدح شيئاً معينا ثم تذمه أثناء الحديث بصورة سلبية .

علي العَبْدان
مدير إدارة التراث الفني
معهد الشارقة للتراث

البَحر في أرجوزة (الألفيّة الورديّة) في التعبير

أخذَ علمُ تفسير الأحلام مساحة لا بأسَ بها من مجمل الإنتاج المعرفيّ العربيّ طيلة القرون الماضية، وذلك لأهمية مادة الأحلام في التراث العربيّ والإسلاميّ الرُوحيّ، ويُعَدّ البحرُ أحدَ الرموز المهمةِ التي وضّح المُفسّرون المسلمون دَلالاتِها ومعانِيَها في المنام بأساليبَ فريدة، وتفصيلاتٍ عديدة، معتمدين في ذلك على نصوص شرعية، وخبرات نفسية، ومهارات الاشتقاق اللغويّ، وفهم الاستعارات والكنايات، وكذلك الأمثال السائرة، والعادات والتقاليد، فما الذي يَعنيه البحرُ في المَنام؟

إن تأويلَ البحر في الرؤى والأحلام في ضوء التراث الثقافيّ العربيّ والإسلاميّ، مُوضَّحٌ بتفصيلاتٍ كثيرةٍ عديدةٍ في كتب تفسير الأحلام العربية، ولكن معظمَ تلك التفصيلات تعودُ لأصولٍ معروفة، أو لتأويلاتٍ أساسيةٍ يعرفها المُفسّرون جيداً، منها أن البحرَ في الأساس يُعبرَّ بالملِك أو الحاكم، أو بالدنيا، أو التجارة، أو العلم، وغير ذلك، لكنهم يُجمعون على أن الأصل هو تعبيرُهُ بالملك أو السلطان، فعلى سبيل المثال يقول أبو سعد الواعظ في أول باب البحر من كتابه (البشارة والنذارة في التعبير): "البحر في التأويل سلطانٌ مهيبٌ قويّ"، وهذا هو التأويل الرئيس لدى معظم مَن وقفتْ على كتاباتهم في هذا السياق من المُعبرّين المسلمين كما أشرتُ إلى ذلك قبل قليل، وقد علّلَ أبو سعد ذلك التأويل بقوله بعدَه: "كما أن البحرَ أعظمُ الأنهار"، أي إن البحرَ يُؤوَّلُ بالسلطان الحاكم، لأن السلطانَ أعظمُ الناس في قومِهِ وشعبه، كما أن البحرَ أعظمُ الأنهار، والبحيرات، وعامة المياه على الأرض، وقد علّل ذلك أيضاً بأن كلاً من البحر والملك يُعطي ويمنح، وقد يأخذ أو يمنع، وقِسْ على ذلك بقية الرموز المتعلقة بالبحر، كالسفينة التي تأويلُها الأساسيّ لديهم هو النجاة، والسمك الذي يُؤوّلُ بالرزق إن كان كبيراً وكثيراً وطريّاً، وغير ذلك من الرموز، فكلٌ لهُ تأويلٌ أساسيّ، ثم تفريعاتٌ وتفصيلاتٌ لذلك التأويل، ولمّا كانت تلك التفصيلات كثيرةً كثرةً ظاهرة، قامَ بعضُ العلماء بتلخيص موضوعات تفسير الأحلام في شكل رسائل صغيرة، أو في شكل أرجوزة، وذلك

بغرض حفظ تلك التأويلات الأصول لرموز الأحلام.

ولمزيد توضيحٍ أقول إن موضوع تعبير الرؤى وتفسير الأحلام قد تنوّع في تناوله وعرضه، فمن المؤلفين من اهتمّ بذكر قواعد هذ العلم وتفريعاتها، ومنهم من اهتمّ بذكر الموضوعات والإكثار من أمثلتها، ومنهم من صنّفَ كتابه حسبَ حروف المعجم، بمعنى ترتيب أسماء الأشياء والأمور والرموز التي قد يراها النائم ترتيباً ألفبائياً، فإذا أراد طالبُ التفسير مثلاً أن يُفسّرَ رؤيا النمل في المنام، فما عليه إلا أن يذهبَ إلى باب النون من المعجم، ليقفَ على تفسير النمل إذا رُئيَ في المنام، وهكذا في بقية الأشياء، ومنهم مَن اهتمّ بتلخيص أصول تفسير الأحلام في شكلٍ منظوم، أي في شكل الأرجوزة، والتأليف في شكل الأرجوزة لا يخرجُ في جوهرهِ عن التأليف حسبَ الموضوعات، إلا من حيث التلخيص والشكل فقط، فتأليفُ الكلام فيه يأتي حسب ترتيب الموضوعات في بقية المؤلفات، ولكنه يكون ملخصاً منظوماً في أبيات، وهو على كل حال منهجٌ مفيدٌ في تيسير حفظ أصول هذا العلم، وتأويلاته الأساسية، كما ذكرتُ قبل قليل، وهذا شأنُ الأراجيز العلمية جميعاً كما هو معروف، فالأرجوزات العلميّة إنما تُصنعُ من أجل تلخيص العلوم، وسبكِها في نظمٍ يُيسّرُ حفظَ قواعِدِها وأصولِها، ثم تُشرَحُ في كتبٍ مُوسّعة.

ومن الأمثلةِ على الأراجيز المصنفة في موضوع تفسير الأحلام أرجوزة (الألفيّة الوَرديّة في التعبير)، وهي من نظم عمر بن الورديّ، وهو أبو حفص، زينُ الدين، عمرُ بنُ مُظفَّر بنِ محمد بنِ أبي الفوارس، ابن الورديّ المَعرّيّ الكِنْديّ، (ت. 749 هـ)، وكانت قد نُشِرت أكثرَ من مرة في نهاية القرن التاسع عشر، ثم حققها الأستاذ عبد الحميد العَلْوَجي من مخطوطيْن، ونشرها في مجلة (المَورِد) العراقية ، وقد جاء في مطلعها:

قالَ الفقيهُ عُمَرُ بنُ الوردي .. الحمدُ للهِ المُعيدِ المُبْدي

مُبَشِّرِ المُحسِنِ في المَنامِ .. ومُنذِرِ المُسيءِ في الأحلامِ

ولقد اخترتُ ألفيّة ابن الورديّ مثالاً على الأرجوزة العلمية المنظومة في علم تفسير الأحلام، لشهرتها بين الدارسين والمهتمّين بموضوع تفسير الأحلام، ولكثرةِ شرّاحِها، وأيضاً لإبراز جانبٍ طريفٍ من تنوع طرائق التأليف المعرفيّ في الثقافة العربية والإسلامية، وفي موضوع البحر يقول ابنُ الورديّ :

والبحرُ سلطانٌ، ودُونهُ النَهَرْ .. شارِبُهُ بمالِ سلطانٍ يُسَرّ

والسفُنُ النجاةُ واكتسابُ .. وراكبو السُفْنِ بِبَرٍّ خابوا

والنهْرُ سَيرٌ، والسفينُ جارِيَة .. لمَن شرى، أو هيَ أمٌّ حانِيَة

وقيلَ بل سمينةٌ، ومَن ركِبْ .. سفينةً لم تَجْرِ، في السِجنِ تَعِبْ

فنحنُ هنا نرى ابنَ الورديّ يُلخِّصُ أهمَّ التأويلات التي تتعلقُ بالبحر في المنام مما فصّلَ فيه بقية المُفسّرين في كتبهم، فالبحرُ سلطانٌ، أو ما في معناهُ من كل عظيم، ومَن شربَ منه نالَ من السلطان مالاً وأرزاقاً يُسَرُّ بها، والسفينةُ نجاةٌ، لقصة النبيّ نوحٍ عليه السلام، ووسيلة اكتساب، لأنها تنقل التجارات والبضائع، ولكنها في البرّ ليست أمراً جيداً، والسفينةُ أيضاً فتاةٌ لمَن أراد الزواج، أو أمٌّ، لأنها تحملُ الركابَ في بطنها كما تحملُ الأمُّ جَنينَها، وقيل السفينةُ امرأةٌ سمينة، وذلك لأن العربَ تُشبّه النساءَ السمينات بالسفن كما جاء في بعض الشروح، ومَن رأى نفسَهُ في سفينةٍ لا تجري فهو إلى الحَبْس والسجن، وإذا قارنّا هذه الأبيات بما جاء في المُطوّلات من كتب تفسير الأحلام في باب البحر وما يتعلقُ به، وجدنا ابنَ الورديّ قد اقتصَرَ فعلاً على ذكر الأصول والأساسيات فقط من ذلك الباب في تلك الكتب، وبهذا يمكن حفظ تلك الأصول في شكل أبياتٍ قليلةٍ منظومة، تُعينُ على حفظ مبادئ العلم، وتذكّرها.

سلطة البحر
وحكايات الشعراء

محمد عبدالله نور الدين
كاتب وناقد ـ الإمارات

لطالما كانت قصائد الشعراء مسرحًا لسلطة الشاعر وهيمنته على النص الشعري، من خلال الاعتزاز بالذات أو الافتخار بالمقدرة الشعرية أو بقوة قومه أو بمدح الآخر والإعلاء من شأنه، وهذه السلطة سواء كانت داخلية في نفس الشاعر أو خارجية في مجتمعه وبيئته لم تكن تعبيرًا عن طبيعة الحال، فالإنسان مهما كانت قدرته وسطوته فإنه لا يخلو من مراحل ضعف وهوان وقلة حيلة، وهذا ما يظهر جليا في القصائد الغزلية حينما يستسلم الشاعر أمام سلطة وإرادة المحبوب ويبدأ في قصيدته مستعطفًا إياه لعل وعسى أن يصل إلى مبتغاه.

ولكن هناك قصائد غير غزلية أيضا يستسلم الشاعر فيها أمام سلطة البحر ولا يجد أمامه سوى الرضوخ لحالات وظروف البيئة البحرية كي يصل إلى بر الأمان، وأثناء ذلك يسرد لنا قصته الشخصية التي تبدو غير مهمة إلا لصاحبها ولكنها في حقيقة الأمر قد تكون:

1. إما تعبيرًا عن لسان حال الآخرين فيحفظونها ويرددونها جيلًا بعد جيل،
2. أو حالة خاصة جدًا يتعاطف معها المجتمع فيستذكرونها لسنين طويلة،
3. أو حدثًا تاريخيًا تكون القصيدة وعاءً لنقل الحكاية بتفاصيلها.

والواضح أن ما يجمع بين الحالات الثلاث هي سلطة البحر والقصة التي سرعان ما تتحول إلى حكاية شعرية يضيف إليها الرواة من دلالات المفردات والأسلوب والسياق والأخبار الواردة تفاصيل تجعلها جاذبة ومحفوظة في الصدور.

القصيدة التالية من شعر الشيخ سعيد بن طحنون عندما تنازل عن الحكم وارتحل من أبوظبي أنشدها متحسرًا لابتعاده عن مكان كان فيه هو الحاكم:

اعْطِ الْيُوشِ تْعَمِيرَهْ يَا وَالِي الْسُّكّانْ
خَلْنِي بَشُوفِ الدِّيرَهْ مَا دَامِ لْهَا بِيَانْ

نجد الشاعر يخاطب قائد السفينة بأن يُرخيَ حبل "اليوش" وهذا يكون لسببين الأول كي يخفف سرعة السفينة الشراعية لأن الشراع لا يمتلئ بالهواء في حال ارتخاء أهم حباله والسبب الثاني هو الاقتراب من الساحل لأن الحبل "اليوش" المشدود سيملأ الشراع بالهواء وستذهب السفينة بعيدا عن الساحل القريب من الساحل إلى العالي في داخل البحر، وهذا المعنى نجده في البيت الثاني حيث يعلل الشاعر طلبه برؤية الديرة / البلد قبل أن يرحل عنها لمدة غير معلومة، فالشاعر يرجح أن تكون هذه النظرة هي النظرة الأخيرة وقد لا يعود مرة أخرى إلى البلد أو لا يعود عما قريب، وهذه الأبيات تدل على تقابل سلطة الحاكم الحزين مع

سلطة الطبيعة وهل يوجد أقوى من سلطة الطبيعة و البحر حيث نجد كيف يحاول طاقم السفينة التفاعل مع البيئة المحيطة بتحريك الحبال والشراع لأجل الوصول إلى مقصدهم بأقل العناء. وهنا مثال آخر:

بِينْ الْبَزِمْ وِ جْنَانَهْ خَيَّرْتِنِي يَا كُوْسْ
بي مِنْ طَانِ الْآمَانَهْ وِ لَا رَمَّسُوْه طْفُوسْ

مطلع القصيدة يبث الحيرة وهو انعكاس لحيرة الشاعر في الذهاب باتجاه البزم أي الشمال الغربي داخل البحر أو باتجاه جنانة أي الجنوب الشرقي نحو الساحل، والغريب أيضا أن هناك خورا جنوبي جنانة يسمى البزم، على أية حال فإن قصد الشاعر ليس الجزر التي تسمى بهذين الاسمين وإنما الاتجاه، فالكوس من الرياح الشرقية التي تهب من ناحية جنوب الشرق أو شمال الشرق وبما أن اتجاه الغاصة نحو جزيرة أبوظبي شرقا على ما يبدو نجد الشاعر يخاطب نسائم الكوس التي تهب مواجهة السفينة ليسألها عن السبب الذي يجعلها تراوح اتجاهها ما زاد حيرة قائد السفينة في شد الحبال المناسبة بالمقابل. وأما الشاعر فقد مال قلبه إلى المحبوب ويريد من "الكوس" ألا يتلاعب بأعصابه ويحيره في قراره الذي اتخذه وما زاد إزعاجه حركة رياح الكوس التي أبطأت تقدم السفينة.

هنا نلاحظ كيف أن البحر استطاع أن يفرض سيطرته على السفينة ولم تعد الرياح موائمة لإرادة الشاعر أو قائد السفينة، ونلاحظ كيف أن الجميع أصبحت حيلتهم قليلة أمام هذه الأجواء التي قد لا تكون صعبة أو خطيرة لدرجة كبيرة.

وفي قصيدة أخرى للشاعر خلفان بن يدعوه :

يا ناس ما في حالي مْزيد و باجي شرى لي يْجاسي يْروح
يلين طافت ليلة العيد و انتو ع أم العنبر طْروح

يشير الشاعر إلى بقائه ليلة العيد بعيداً عن المحبوب في هير "أم العنبر" وهو من الهيرات المهمة التي يأتيها النواخذة بحثاً عن اللؤلؤ ونلاحظ من خلال أسلوب الصياغة؛ أنه اختار ضمير "نحنا" بدلا من أن يقول "انتو" بالرغم من أن رحلة الغوص رحلة جماعية في عرض البحر لا يستطيع أن ينفصل أحد عن الآخرين؛ لكونهم جميعاً في مركب واحد يربطهم عقد عمل ومسير رحلة ومصير مشترك، ولكن الشاعر أراد أن يقول إنه وإن كان جسدُه معهم، لكن روحه وفكره ومشاعره ليست معهم بل مع المحبوب الذي سيأتي ذكره في سياق بيت قادم، وبهذه الطريقة خبأ بعض الأسرار في باطن معاني الأبيات، كي يشوّق المتلقّيَ إلى تتبع الأبيات.

بين الذي يلبس مساويد غلج المواسم مالي فْسوح
اليوم ما بجّيت وآعيد و للدار لا غادي و لا يروح
و ما حلّ خلّني عني بْعيد كل ليلةٍ تسري له الروح

في البيت الأول يصف لنا الشاعر صورة لأحد "الغاصة" وهو يلبس "مساويد" أي "الشمشول"، وهو لباس أسود يحميه من لسعة "الدول" أو قنديل البحر، ويريد بهذا الوصف أن يبين قساوة وخطورة العمل الذي يقومون به، وأن يشرح ضيق حاله في هذا الموسم كما أشار إلى ذلك في "غلج المواسم" كأنه يقول إن المحصول في رحلتهم قليل والمخاطر كثيرة، وإنهم سيتأخرون عن العودة إلى الدار؛ لعدم حصولهم على كفايتهم من المحصول. وهذا المعنى واضح في البيت الثاني الذي يأتي بصيغة المفرد بدلاً من أن يكون بصيغة الجمع كما هو معروف في رحلة الغوص؛ فلا أحد يستطيع أن يعود وحده، ولكن يشير الشاعر بهذه الصياغة إلى أمنياته بالعودة دون الآخرين لملاقاة المحبوب الذي يظهر لأول مرة في القصيدة وهو بعيد عن الشاعر "خلي عني بعيد"، ولكن بالرغم من ذلك فإن روح الشاعر تنتقل كل ليلة لتكون بجوار المحبوب دون جسده المنهك في هذه الرحلة الشاقة.

هذه القصيدة تشير إلى أن البحر يفرض سيطرته على الشاعر وفكره وهو عضو في طاقم سفينة الغوص لا يستطيع أن يقرر شيئا ، فإرادته محكومة بالجمع والظروف غير المتوقعة حتى يعود إلى الوطن حين تبدأ رحلة العودة ليقابل المحبوب في أقرب فرصة، بعد تحرره من سطوة البحر وسيطرته.

وفي قصيدة أخرى للشاعر محمد المطروشي، وهي من القصائد المشهورة يقول فيها :

يوم شلّوا بي من الديره قلت يا المضنون لوداعي
وسط فلكٍ سلك في فْسيره في طرنشيب البحر ساعي

في هذه القصيدة يصف الشاعر نفسه وقد أُجبِر على ركوب سفينة الغوص كما هو واضح في فعل "شلوا بي" وفي الوقت نفسه طفق يودّع المحبوب. وهو بذلك يرسم للمتلقي منظر الشاطئ والمحبوب الواقف مبادلاً النظرات مع الشاعر، ويرسم إبحار سفينة الغوص وتحركها السريع، وهو نوعٌ من إسقاط المشاعر على العالم الخارجي، فالشاعر يود أن يستمر اللقاء مع المحبوب؛ لذلك تمر عليه هذه اللحظات بسرعة فائقة يعبّر عن ذلك بسهولة مسلك السفينة كما هو واضح في شطر "وسط فلكٍ سلك في فْسيره" وبوسع مدى البحر كما هو بيّن في "طرنشيب البحر ساعي"، فقد صوّر المطروشي نفسه مجبرًا على الرحيل وصوّر البحر والسفينة في سعي عكس إرادته ليؤثر على المتلقي ويستعطفه؛ ويؤكد أنه في حالة ضعف وهوان وفقد للحرية حينما يخرج من سلطة اليابسة ويكون رهينا لسلطة البحر كما هو واضح في صدمته وبكائه في البيتين التاليين:

اذهلوا قلبي بحاحيره هاض ما بي هلّت دْماعي
من يسليّ القلب و يْديره عمّن أقفا شاعه و شاعي

ويصف بعد ذلك محبوبه في بيتين:

لي خويٍّ نفسه صْغيره مالي الساقين و ذراعي
دمن وحشي في غناديره أغنج ادعج خدّ لمّاعي
في بحر ستين تفسيره لبحرين بها حكم راعي

وقد تكون أوصافاً كثيرة كما هو الحال مع " مالي الساقين وذراعي" أو "دمن وحشي" أو "أغنج أدعج" من الأوصاف التقليدية المكررة والدارجة عند باقي الشعراء، ونلاحظ بعد ذلك تعبيراً عن بعد المنال أو الوصول إلى المحبوب في البيت الثالث حين يقول "في بحر ستين تفسيره" والعبارة كناية عن الأقواع / القيعان العميقة، ولذلك تكون القصيدة خير تعويضٍ لهذه الحاجات الإنسانية الأساسية غير المتاحة التي يصعب الوصول إليها، إذن فالشاعر يستخدم الشعر وسيلةً لبلوغ المحبوب والتعايش معه رغماً عن الزمان والمكان والعوائق، ولكن هذا لا يستمر طويلاً فسرعان ما يرجع الشاعر إلى الواقع، ويصطدم بالحقيقة مستسلما لسلطة البحر المهيمنة، ويحاول استيعاب ذلك بمعالجة نفسية وتعبيرٍ شعوري كما سنلاحظ في الأبيات التالية:

آه يا من صابته حيره بين صير و صري أنواعي
يضرب الغربي مزاميره كلّ يوم ينوح و يلاعي
قلت له يا بْريح لك خيره دوّح و داور هوى الداعي
قال أمر الرب تقديره لازم المأمور مطواعي

وبالوصف يسوّغ الشاعر لنفسه البدء بالشكوى، ويخاطب الرياح الغربية كي تهدأ وتدور لتعود بالسفينة نحو المحبوب؛ فجميع طاقم السفينة كما يبدو لا يشعرون بمعاناة الشاعر إذ إنهم ذاهبون إلى رحلةٍ طويلة غير مبالين بما يشعر به الشاعر الذي يكمل الحوار الديالوجي لترد الريح، ويكشف هذا الحوار سراً مهماً من أسرار المعاناة؛ لأنها تبيّن المصاعب، وتضع الحلول النفسية كما أشرنا إلى ذلك أيضا:

كمْ غني يحسب مخاسيره بالربح تايه و لاطماعي
يا ملا معكم تغثبيره صلّب الغربي من الفاعي
زاهي الصّير بسناييره لا بجي فرمن و لا شْراعي

هنا يحوّل الشاعر وجهة الحديث نحو الإنسان، ويختم القصيدة ويبين أنه في رحلة الغوص، وأن ما سيحصلون عليه من ربح لا يساوي ما فقدوه في فراق الأحباب بل هو خسارة كبيرة يظنها الغني ربحاً يسعى إلى زيادته، وهنا يكشف لنا الشاعر سر القصيدة؛ فالمحبوب ليس محبوب الشاعر فقط بل الحديث عن مشاعر جمعية يشعر بها البحارة الراحلون بعيداً عن أهاليهم والتعبير الفردي هنا جاء لإثارة الذات والغوص في النفس وكوامنها، وبيان مدى صعوبة ما يواجهونه في مواجهة عالم البحر وسطوته.

فن الهوسات

علي العشر
خبير تراث فني
معهد الشارقة للتراث

فن الهوسات من فنون البحر القديمة التي تؤدى في أثناء الغوص حيث توجد السفن في أعماق البحار، ويبدأ ذلك عندما تهب عواصف شديدة تجعل البحارة غير قادرين على سحب وجر حبل الخراب (المرساة) الا بصعوبة من شدة العاصفة وعدم استقرار المحمل لقوة أمواج البحر التي تلاطمه، في مثل تلك الأثناء ومن باب الحيطة والحذر يتم إلقاء اثنين من المرساة او السن وذلك لحماية المحمل من التأرجح والانحراف عند انقطاع الحبل وعليه فإن البحارة يجلسون مكونين صفين متقابلين في أثناء سحب المرساة او الخراب وذلك خوفا من أن يسقط أحد منهما بسبب حركة المحمل مع تلاطم الأمواج.

فن الهوسات له أكثر من اسم، ومن أسمائه "الصوريات" و"الجلاسي" و"التاري"، والاسم الدارج هو الهوسات بمعنى التهوس أي: الضغط او الدفع باللهجة العامية وهي الحالات التي يكون عليها المحمل في أثناء هبوب الرياح حيث يحدث التهوس بسبب دفع الرياح أو أثناء تجديف اليزوة .

تستخدم في هذا الفن الإيقاعات الشعبية البسيطة مثل الطبل والطوس ويقوم بعض البحارة بالتصفيق.

ومن الكلام الذي يقال في فن الهوسات ما يلي:-

ليش زعلان ما يحاجيني
حملوه بالسلامه
والشغل هذا تمامه
في عدن شيد اخيامة
في منا شيد اخيامة
على الصخر ما يطبع بومه
كاكا يمشي في المدينة
ادق هيلة واسمع رنة

علاقة الأطفال بالبحر

د. فهد حسين
أكاديمي وناقد - البحرين

حينما نفكر مليًا تجاه موجودات الطبيعة التي خلقها الله سبحانه وتعالى، وجعلها مسخرة لبني الإنسان ليستفيد منها في حياته العامة والخاصة، كان البحر من ضمن هذه الموجودات، فإننا نعيش حالات كامنة في تلك العلاقة التي نسجناها طوال طفولتنا، وحياة شبابنا، كما أن بعض العلاقات تبقى طوال العمر، وهذا يعني أن الإنسان عامة، والعربي بصورة خاصة مهما بعد أو قرب من شواطئ البحار لا بد أن ينسج رابطًا بينه وبين هذه المياه المالحة، ومع شواطئه ورماله، ومع تلك القوارب التقليدية التي كان يصنعها ليتمتع بها وهو في المياه القريبة من الشاطئ.

لقد ارتبطت حياتنا الأولى في منطقة الخليج بالبحر دون خوف أو وجل أو تردد، هذه الحياة البسيطة التي كرست جماليات التعامل مع مياه مالحة وكأنها عيون عذبة حينما تسكب على أجسادنا من قبل أترابنا، أو عندما نعوم متسابقين نبحث عن بعض ثروات هذه المياه، أو كنا في انتظار سلطان هذا العالم أن يدر علينا بعض أسماكه الصغيرة التي عادة تعوم عند الشواطئ وبين أحجاره وثقوبها.

هناك علاقة قوية متشابكة ومتداخلة بين الخوف والرغبة والشغف عند الأطفال مع البحر وشواطئه، فهم يقبلون عليه من دون وعي بمخاطره، وقد تجذبهم زرقته وتموج مائه ليكونوا مأخوذين به ويسوقهم هذا الجمال إلى مواصلة المسير أو السباحة أو اللعب فيه تقدمًا من دون شعور بخطورته أو غدره، هكذا هم الأطفال حينما يحبون شيئًا قراهم يقبلون عليه بحب جانح، وفرح زائد ورغبة متطايرة بين أجنحة الهواء، حتى لو استغرق بقاؤهم وقتا طويلا بين هذه المياه وحركة الأسماك الصغيرة والرمال الباردة، وبعض الأشواك التي لا يشعرون بألمها إلا حينما يعودون إلى منازلهم، فإذا كانت العلاقة بين الكبار والبحر يدور فيها الحذر واليقظة والخوف من المجهول، فإن العلاقة بين البحر والأطفال علاقة تكاد تكون ذات ملامح بريئة صافية المشاعر خالية من التردد والخوف الذي لا يجعلك تقدم، وعلى الرغم من مقولات الأهالي المغلفة بالخوف والغدر والبقاء خارج هذا المكان، فإن الأطفال لا يكترثون بتحذيرات أهاليهم؛ إنها علاقة حب متبادل بينهم وبين البحر، وهنا يعتقد الأطفال أنهم يجنون الكثير من هذه العلاقة، يجنون المرح الدائم والعوم المتواصل، واللعب بين لحظة وأخرى، وهنا نرى الأطفال وقد تعاملوا مع البحر في حالة الصيد، والسباحة واللعب بالكرة أو غيرها. إنها حياة أخرى تضفي على الأطفال مشاعر القرب والتودد والتمسك بهذا المكان بوصفه جزءًا من تاريخ المكان والتراث والتاريخ، وهذا ما يتحصل عليه الأطفال حينما يكبرون ويدخلون المدارس والجامعات، إذ يقفون على قيمة البحر ودوره في حياة الإنسان بكل تمفصلاته ومستوياته الاجتماعية والاقتصادية والوجدانية.

ونتيجة العلاقة نجد الأحلام التي يحفرها الأطفال في وجدانهم كثيرة ومتنوعة، فهناك من يحلم وهو يصطاد السمك الكبير، أو السمك الذي سمع عنه من أبيه أو كبار السن، وهناك من يحلم بقيادة سفينة صيد أو سفينة ركاب وسفر يجول بالمسافرين أرجاء هذه المياه وينقل الناس من مكان لآخر، وهناك من يحلم أن يكون قبطانًا أو نوخذة أو غواصا، وآخر يحلم باستخراج مكنونات هذا البحر من الأحجار الكريمة واللؤلؤ، وآخر يحلم بالتجارة العامة التي تعتمد البحر طريق مواصلات لها، إنها أحلام ليست بعيدة المنال والتحقيق، لأن البحر صديق المنطقة وله تاريخ عريق مع أبنائها، وهؤلاء الأبناء لديهم التجارب والخبرات والمهن التي تؤهلهم لركوب البحر، ومصارعة أمواجه.

وهنا نقف عند ما قدمه المشهد الثقافي والأدبي للطفل وعلاقته بالحياة المحيطة به عامة، والبحر بصورة خاصة، على انطلاقا من أن الطفل له حقوق

وعليه واجبات، مثله مثل أي إنسان في أي مجتمع، لذلك ينبغي أن نعيها نحن جميعًا، والطفل معنا في هذا الوعي بشكل تدريجي وفقًا للمرحلة العمرية والتعليمية والاجتماعية والثقافية والفكرية فيما بعد، بمعنى أننا لا نطالب بأن يكون الطفل واعيًا منذ الصغر بكل شيء وإنما مع الوقت وتعليم المهارات ونقل التجارب، ولكن الطفل وهو يلتصق بالبيئة عامة والبحر وما فيه من مخاطر علينا أن نكون واعين بطبيعة هذه العلاقة من جهة ودورنا في التوجيه غير الصريح من جهة أخر، حيث التوجيه عادة ما يكون من خلال المشاهد والقصص والأفلام الكارتونية والحكايات الشعبية والموروثات التاريخية والتراثية، وكل هذا لن يستقيم إلا أذا أحسنا الاحتضان والدفء الاجتماعي والعاطفي له.

ولكي يتمكن الطفل من تقوية العلاقة بينه وبين البحر أو أي مكون من مكونات البيئة المحلية لابد من دور يقوم به الكتّاب والمبدعون في المجالات الأدبية والفنية البصرية والأدائية المختلفة، فالطفل بحاجة إلى ترجمة هذه العلاقة التي تربطه بعفوية وبراءة بالبحر أن تكون منسوجة أمامه ومعروضة إليه من خلال البرامج المتلفزة، والحكايات والقصص والشعر، فضلاً عن اللوحات الفنية والتصوير الضوئي، وهنا أذكر دور مجلة ماجد وكيف كانت تمارس دورها بحرفية متقنة وبقدرة كبيرة في نسج علاقات متنوعة بين الأطفال وما يحيط بهم من كائنات ومكونات، إضافة إلى الدور الذي تقوم به الأسرة ثم المدرسة والرفاق ومؤسسات مواحل التعليم المختلفة، ففي ظل هذه العمليات نستطيع أن نغرس في الطفل منذ الصغر طبيعة علاقته مع المكان عامة، والبحر بصورة خاصة، ومدى أهمية البحر بالنسبة إليه صيفًا أو شتاء، في مناسبات التنزه أم في أوقات أخرى، في اللعب أو في السباحة، وهكذا دواليك.

ولأن البحر من أهم مكونات البيئة المحلية في المنطقة الخليجية، وكذلك العربية، فدور المؤسسة التربوية والتعليمية كبير ومهم لما له من بناء شخصية الطفل وعلاقته بالمكان، فليس المهم أن نجعل الأطفال يحبون البحر أو البيئة المحلية، فهذا أمر سهل بالتدريب والممارسة، ولكن الأهم هو بناء استراتيجيات وإعداد خطط تشكل وعي هؤلاء الأطفال ببيئتهم، وأهمية علاقة هذه البيئة عامة والبحر بصورة خاصة في تعزيز موروثاتهم وتاريخهم والتمسك بالعادات والتقاليد التي جاءت لنا من خلال تجارب الإنسان مع البحر، فلا نقلل من هذا نظرا لأن الأمر لم يعد صالحًا لحياتنا اليوم، بل أقول إننا بحاجة ماسة ليس الأطفال فحسب، وإنما كل أفراد المجتمع للمحافظة على تراث بيئاتنا المحلية وغربلة ما يسئ لها من مقولات أو حكايات أو ممارسات.

ومع مراجعة سريعة لما كتبه القاصون والشعراء للطفل منذ بداية القرن العشرين وحتى وقت قريب، سنجد الكثير من النصوص التي تجعل الطفل يفكر، ويعرف من خلال النصوص القيم الإنسانية ومعاني الحياة والصداقة والمحبة والأمانة والوفاء، وكذلك معرفة الصفات السيئة والسلوكيات غير السوية، وقناعته هذه جاءت وفق حياة وطبيعة ومساحة من التفكير أوجدتها أنظمة التعليم، لكن مع الوقت باتت الأمور متغيرة ومتحولة ومتجددة، لهذا علينا أن نتساءل أيضًا حول ما كتبه كتّاب أدب الطفل، هل كتبوا نصوصًا ذات علاقة بالبحر بوصفه أحد أركان البيئة المحلية؟ هل حاولوا أن يقدموا مادة مختلفة لطفل القرن الحادي والعشرين؟ الطفل الذي ينام وبجانبه جهاز الهاتف الذكي، ويستيقظ مبكرًا، وقبل الذهاب إلى الحمام يبدأ يومه بالتصفح والتجول والانتقال بين مواقع شبكة النت من خلال هذا الجهاز. ماذا ينبغي على الكاتب هنا حينما يتناول ثيمة البحر ويريد تقديمها إلى الأطفال، هل سيقول لهم إنه البحر والزرقة والجمال، أم سيقول احذروا هذا الكائن المخيف؟ أم سيطلب منهم عدم الاقتراب منه؟ أليس على الكاتب أن يفكر في كيفية تناول الموضوع وكيف يقدمه لطفل هذا القرن، فالطفل اليوم لم يعد مثل طفل الثمانينات أو التسعينات أو ما قبلهما، بل هو طفل ذكي متصل بالعالم، وله معرفة تكنولوجية تفوق الكبار، وله معرفة تقنية وعلمية جعلته مختلف التفكير والرؤية والاستبصار لأمور حياته البسيطة هذه، لهذا فالكاتب عليه أن يفكر ويخطط ويعد مسوّدة كتاباته الإبداعية التي تواكب تطلعات ومعارف الأطفال، من هنا لم يعد إقناع الطفل بأن البحر خطير، وأن الخوض في مائه قد يؤدي إلى الموت ممكنا ، ولا يمكن أن نقنعه بأن ركوب البحر من مهمات الكبار، وغيرها من تلك الحكايات التي كانت تنسج قبل ذلك، ويعجب بها الطفل، أما يومنا هذا فهناك قبل كل شيء مادة ينبغي غربلتها وتصفيتها من شوائب التاريخ والتراث، وكيف يمكن ربطها بالتكنولوجيا والحاضر والمستقبل، وكيف يمكننا أن نوصل المعلومات إلى الطفل ليس بالفرض والهيمنة، بقدر ما نوجه إليه مجموعة من الأسئلة التي تجعله يفكر ويدرس ويطرح ليس تجاه البحر فحسب، بل تجاه كل مكونات الحياة، هذا ما نأمله في الكتابات الجديدة للأطفال.

أهازيج وطقوس النساء الكويتيات في القفّال البحري

حسين الراوي
كاتب من الكويت

الغناء البحري سِمة من سِمات الشعوب التي لها علاقة وطيدة مع البحر، وهذا النوع من الفلكلور الشعبي يكون بمثابة مُعجمهم وقاموسهم وكِتابهم الخاص بهم، الذي دوّنوا به الكثير من تاريخهم وسيرتهم وحكاياتهم وجغرافيتهم وعاداتهم وتقاليدهم، والكثير من صوّر حياتهم.

في البداية كمدخل لابد أن نحدد معنى الأهازيج في اللغة، حيث جاء في معجم المعاني أن (أُهزوجة) اسم، والجمع (أَهَازِيجُ)، وأن (هَزجَ) فعل. ومعنى (هزِج) الشَّخصُ: أي تغنَّى، ترنَّم أو طرب في قراءته أو غنائه.

وعن معنى الأهازيج وفق الموروث الشعبي جاء في كتاب(الأهازيج الشعبية في الخليج والجزيرة العربية) للمؤلف عبدالحكيم الزبيدي، أن الأهزوجة هي"نشيد شعبي في لغة العامة من الناس، ينشده القرويون في مناسبات كثيرة ومتنوعة، مثل الحروب، وعند الوفاة، والاستعراض(العراضة) والأعراس، والاستقبال والتوديع".

وعن تعريف الأهازيج البحرية تذكر الكاتبة ولاء الحمود في كتاب (الأهازيج والرقصات البحرية بالمنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية) أن"أهازيج الغوص هي أهازيج تُردَّد عندما يكون البحارة في طريقهم إلى سفنهم لإنزالها إلى داخل البحر، أوعند قدومهم إلى الشاطئ يسحبون السفن إلى المرسى بعد رحلة الغوص، وكذلك أثناء الغوص وهم في عرض البحر، وقد تُستخدم بعض الأدوات مثل الطبول أو المزامير في أداء بعض الأهازيج والرقصات."

ما هو القفّال؟

يقصد بـ (القفال) "عودة سفن الغوص من رحلتها وانتهاء موسم الغوص، وهي تسمية شعبية قديمة ومعروفة عند أهل الكويت وباقي دول مجلس التعاون، ولقد اعتاد الأهالي فيها إقامة احتفالات شعبية على الشاطئ عند عودة السفن بعد غياب استمر لعدة شهور. وكانت (الدشة) ويقصد بها بدء موسم رحلة الغوص وكذلك (القفال) يُحددان من قِبل إمارة الغوص".

وعن الطقوس التي تصنعُها بعض النساء عندما يشعُرن بتأخر رجوع السُفن ومن عليها من أحبابهن في وقت القفّال، ما ذكره الكاتب صالح حمدان الحربي في مجلة (الثقافة الشعبية) البحرينية، في عددها السادس عشر. حيث قال: " فالنساء هنا يتذكرن دائما هذه الصورة قدوم السفن ودخولها إلى النقع أي: وصولها إلى الشاطىء ورؤية أحبابهن وهم يقومون بالتجديف لسرعة الوصول ،هذه المرأة تظل ترى هذه الصورة وتقلق كثيرا عندما تغرب الشمس قبل مجيء الأحباب، ولهذا فهي تقوم بعدة طقوس تخاطب فيها البحر وتمثله كالمارد أو الغول الذي يحاول أن يخطفهم، ولهذا فإنها تعمل على تغطيس قطة في البحر فداء لروح الرجال وعادة تتجمع النسوة على تغطيس القطة سبع مرات متتالية وعندما تختنق القطة تصرخ صياحا عاليا (نيو نيو) تفرح النسوة بأن القطة قد رأت السفن داخل البحر فيبتهجن وتتحول البهجة إلى أصوات مثل "ياو، ياو، أي: عاد البحارة، وقربت السفن، وفي حالة أخرى تقوم النسوة بتسخين قطعة من الحديد (الهيب) ويغطسنها بالبحر

وهنا يعترفن بأن البحر كائن حي يجب كيه كي يخرج من فمه البحارة فهي تعاقبه لتأخره بعودة الأهل وتغنى النساء أثناء ذلك: يا اللهيب هات الحبيب ".

ومن الطقوس التي ذكرها أيضاً الكاتب صالح حمدان الحربي التي تصنعها بعض النساء في وقت القفّال: " كما تشعل بعض النساء سعفة ويذهبن بها إلى البحر إلى مسافة طويلة ثم يكوين البحر قائلات: (نكويك إذا ما جاو الغواويص). وتقوم مجموعة النسوة بهذه الفترة بعمل حلقات دائرية يغنين ويخاطبن البحر ويتوسلن إليه أن يعيد الأحباب فقد انقضت فترة الغوص الرئيسية وأصبح البحر باردا وبدأت العواصف بالهبوب، وتغني النسوّة:

توب توب يا بحر أربعة والخامس دخل
جيبهم خاطفين بجيبهم
ما تخاف من الله يا بحر
أربعة والخامس دخل .

وبعد هذه التوسلات إلى البحر تتذكر النسوة أسماء النواخذه التجار والطواشين كي يكتفوا مما قد جنوه من لؤلؤ، كما يخاطبن الدانة (اللؤلؤ الكبيرة) أن تعيد التاجر شملان مثلا من أذنيه كي يكتفي ويعود إلى اليابسة.

يا لجوهره
هاتى حسين من ابحره
يا للومى
هات بن رومى
يا لدانة
جري شملان من اذانه
يا ملة الزري
هاتي حسين بن على

وذكرالباحث في التراث الكويتي حسين القطان لوكالة الأنباء الكويتية (كونا) في يوم الخميس 23 نوفمبر 2017، " إن الفِرق النسائية الشعبية الكويتية التي كان يطلق عليها آنذاك (العديد أو العدة النسائية) مثل (فرقة عودة المهنا) و (فرقة أم زايد) و (فرقة سعاد البريجي) كن يجسدن

استقبال البحارة في يوم القفال على السيف (جال البحر) أي شاطىء البحر وهن ينشدن أهازيج شعبية جميلة تعبر عن هذه المناسبة". وأضاف القطان "أن من بين أشهر تلك الأهازيج الشعبية الخاصة بعودة البحارة من رحلة الغوص على سبيل المثال (يا خوي ماحلا الخشب لو لزت السيف، كلها صبيان تير الميادیف، يا نوخذاهم لا تصلب عليهم، ترى حبال الغوص قصص أيديهم، ويا ليتني دهينه وادهن ايدهم، ويا ليتني خيمة واخيم عليهم، ويا صاجة ويا صاجة ما صدقتي). وأنه بعد غناء هذه الأغنية تقوم إحدى النسوة وكنوع من التقليد (بحل البحر) أي صب ماء الحلول في البحر ثم (تجوي البحر) أي تقوم بكيّ البحر أو حرقه عن طريق حرق طرف سعفة من سعف النخل تعبيرا منهن عن حرقة الشوق لرؤية أولادهن وأزواجهن وآبائهن وتغطيسها بماء البحر أي كأنهن يعاقبن البحر لتأخر وصول الأهل".

في النهاية .. يمكن القول بعد إمعان النظر في تلك الأجواء والطقوس والكلمات المتعلقة بموسم القفّال عند النساء، إن تلك الحياة على الرغم من صعوبتها فإن تفاصيلها كانت بسيطة! وإن ذلك الجيل الذي كان يتعامل بصفة مباشرة وبشكل متكرر مع البحر ومواسمه ابتكر لنفسه طرقا خاصة في التعامل مع سطوة البحر وجبروته، ومع ذلك لابد من الإشارة إلى أن تلك الطرق التي سلكتها النساء والطقوس التي دأبن على القيام بها في تعاملهن مع البحروالمتمثلة في تغطيس القطة في البحر وحرق السعف به وغير ذلك من الوسائل ، لم يكن ذلك كله ليغير شيئا في إرادة المولى – جل جلاله - ومشيئته في خلقه .

قصص البحر ذكريات من التراث والتقاليد الإماراتية

فاطمة سلطان المزروعي
رئيس قسم الأرشيف الوطني

ربابنة السفن الإماراتية استعانوا بالشمس والنجوم والسحب والعلامات الطبيعية الأخرى

البعض من الآباء والأجداد ما زالوا على قيد الحياة وقد سجلوا ذكرياتهم وقصصهم ضد الحروب التي كانوا يعانون منها بشكل يومي مع الطبيعية والمناخ والبيئة وغيرها ، كانت الحياة في جوانبها المختلفة تحديا يوميا تبدأ سفن الغوص رحلاتها الموسمية مع إشراقة الصباح بحثاً عن اللآلئ في الأعماق ، إذا كان الصيادون يجوبون بمراكبهم بين مواطن تكاثر الأسماك في مياه الخليج ليل نهار ، ومتى طابت لهم الرحلة منذ الصباح الباكر وحتى فجر اليوم التالي من شهور الشتاء فإن شمس شهور الصيف تحرمهم من فرصة الحصول على غنائمهم المنشودة من الأسماك خلال فترة منتصف النهار حتى بعد صلاة العصر

لكن تنطلق رحلات الصيادين في مواسم الصيف منذ الصباح الباكر لتعود قبل الظهر ، والمثل الدارج (إذا غاب القرص وطلع القرص انصب ليخك) أي اذا غابت الشمس وطلع القمر انصب شباك الصيد في سبيل صيد وفير .

للبحر قصص تفوح منها رائحة الماضي وملوحة البحر فالحاج سعيد بن أحمد آل لوتاه يقول عن محطات حياته : رشحني والدي لقيادة إحدى سفنه إلى أفريقيا كتاجر وكنوخذة ، ذلك أن تجارة اللؤلؤ يومها بدأت تضعف شيئاً فشيئاً ، والقصة في السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية ، فقد كانت السفن تسافر إلى الهند وأفريقيا لاستيراد بعض احتياجات المنطقة من الأقمشة وغيرها ..

ولما جاء موسم السفر إلى أفريقيا في أول الشتاء توكلنا على الله والحمدلله وصلنا إلى مدينة (ممباسا) الإفريقية وعدنا منها إلى البلاد بالسلامة والتوفيق ، فيما بعد ذلك قضيت خمس سنوات مسافراً بين البلاد والهند وكنا نسافر في أول الشتاء ونبقى هناك قرابة سبعة شهور ، لنعود في أول الصيف وكانت سفننا يومها شراعية ، وبعد فترة عدتُ مرة أخرى لتجارة اللؤلؤ بين الخليج وسواحل فارس .

ويحكي السيد عبدالله بن الشيخ عبدالرحمن بن فارس عن ذكرياته "بما أن تعاملي في "الطواشة" بشكل متخصص دفعني إلى المشاركة مرات عديدة في رحلات الغوص والنزول إلى الأعماق أيضاً للتعرف إلى أسرار عالم البحار بعد أن كنت خبيراً بأنواع وأوزان اللؤلؤ من خلال عمليات البيع والشراء ، وفعلاً مع مرور الزمن أصبحت خبيراً بالمغاصات موقعاً موقعاً ، فعرفت أراضيها المختلفة ما بين "القوع" الخالية من الرمال و"السمحة" الرميلة ولا تتوالد المحارات إلا في القيعان الصخرية على ما يسمى "باللحف" و"العريشة" و"البيمة" و"الحية" هي نوع من الصخور في قاع البحر ضاربة جذورها في باطن الأرض وجسدها على شكل فك تفتح وتغلق ، وإذا ما حدث وأغلقت على "سن" السفين مثلاً فإنه يستحيل الفكاك منها وفتحها بأية قوة مالم تنفتح بنفسها ، المهم أن عالم الأعماق الذي تعرفت إليه بدافع المعرفة والاستكشاف ساعدني في معرفة مواقع المحارات واللآلئ الجيدة عن غيرها ، الأمر الذي يسهل علينا بالتالي العودة لها مرة أخرى ، ولم تكن في البحر من علامات ، بل إن معرفة المغاصات كانت تتم بواسطة أداة "البلد" التي كانت ترمى من مواقع مختلفة وإلى أعمال تصل ما بين ثمانية وستة عشر باعاً.

ومن العجائب ما رأيت أن المحارة حين تنبت تكون مفتوحة الفكين في قاع البحر ، ولا يدخل فيها ماء البحر ، بل إن الماء الذي بداخلها حلو المذاق ، ذلك أن الماء المالح يفسد اللؤلؤ وإذا حدثت أن دخلت فيها سمكة وإذا أحدثت فيها ثغرة فإن المحارة تموت .كما أن المحار إذا لم تكن قابضة على صخر فإنها تكون معرضة لما يسمى (بالييلة) وهي حركة الأمواج التي تجرفها إلى الخيران وتدفنها في الرمال ، ومن ذكريات تلك الأيام أنني في رحلاتي كنت أحمل بندقية أعلقها في السفينة ، وذات يوم هبت علينا رياح عاصفة رمت بالبندقية في قاع البحر ، فلجأنا إلى أقرب ميناء هو جزيرة "الصير" وقياس المسافات بالتقدير ، فإننا سرعان ما عرفنا موقع سقوط البندقية واسترجعناها من قاع البحر

وأن البحر فيه الأسماك والجوارح ولكن مثلما يخاف الإنسان من الجوارح كذلك تخاف وتهرب بمجرد أن تسمع صوت تلك الصخرة التي تضرب القاع بعد أن يرميها "السيب" من السفينة ، فينزل بحبلها الغواص، فلا يجد الأسماك الجارحة .

السيد الشيخ حمد بن محمد المشغوني يتحدث عن ذكرياته عن الغوص واللؤلؤ :"كان جدي يخبرني عن رحلاتهم التي تستمر سنة أشهر إلى السواحل الأفريقية وكانوا يحملون معهم من هنا بعض أنواع البضائع ، منها أكياس مليئة بعظام "اليريور" أي أسماك القرش

، ومـن هنـاك كانـوا يأتـون بالخـدم ليمدوهـم إلى رحـلات الغـوص "والجنـدل " جـذوع الأشـجار و"النارجيـل" واسـتمرت تلـك الرحـلات التجاريـة بـل اتسـع نطاقهـا في أيامنـا

أمـا علاقتـي الشـخصية بتلـك الظـروف فقـد اقتـصرت عـلى "الطواشـة" و"دلال " وكنـت أبيـع وأشـتري اللؤلـؤ في البادية مرافقاً لوالـدي ، ومـن ثـم مستقلاً بنفسي، أسـافر للبيـع والـشراء إلى المغاصـات في البحـر حينـاً ،وأقيـم في دبي أحيانـا أخـرى ، حيـث كان يـأتي التجـار الخليجيون بغية شراء اللؤلـؤ ، وكنـت أسـافر إلى السـواحل الإيرانيـة لـشراء (القـماش) كـما كنـت أمتلـك "لنجا(مركبـاً) يديـره ابنـي "سـعيد" وخـلال فـترات إقامتـي الطويلـة في تلـك المناطـق كنـا نشـحن "اللنـج" بالأغنـام ونصدرهـا للبيـع في قطـر والبحريـن ونعـود مـن هنـاك بالسـكر وبعـض أنـواع المـواد الغذائيـة للتجـارة بهـا .

السـيد محمـد بـن رحمـة العامـري يقول:"امتـدت أسـفارنا إلى عـدن التـي كنـا نأخـذ لهـا مـن هنـا التمـر والطحـين والسـكر وفي الطريـق إلى عـدن كنـا نمـر بخورفـكان وكلبـاء والباطنـة ومسـقط صـور وظفـار وصلالـة وأرض المهـرة وفي كل محطـة نبيـع مـا نشـحن مـن بضائع ونشـتري غيرها القابلـة للـرواج في المحطـات الأخـرى حتـى نصـل إلى عـدن وكانـت الرحلـة تسـتغرق عـادة شـهرين مـن الزمـن وقـد أكسـبتني سـفرات(عدن) التـي دامـت أربـع سـنوات متواصلـة خـبرات كثـيرة وحينـما ضعفـت التجـارة في (عـدن) أدرنـا أشرعـة سـفننا إلى الهنـد ولم نوفـق في الحصـول عـلى بضاعـة مناسـبة فيهـا ، فسـافرنا عـلى ظهـر باخـرة إيطاليـة إلى "بومبـي" وهنـاك التقينـا بمعـارف وأصحـاب كثيريـن ، وكانـت الهنـد لا تـزال تحتفـظ ببعـض البضائـع التجاريـة بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة وعـلى الرغـم مـن بعـض الضوابـط والقيـود الجمركيـة عليها إلا أن المسـافرين والتجـار عرفـوا طرقـاً أخـرى لاسـتخراجها ، وبعـد أن تعرفنـا عـلى التجـارة في الهنـد تركـزت أسـفارنا إليهـا مبـاشرة بواسـطة السـفن حينـاً والبواخـر أحيانـاً أخـرى

أحمـد بن سـالم بـن مزروع يتحـدث عـن ذكرياته :" منـذ الصغر ومعاملتنـا مرتبطـة "بالطواشـة" أي بيـع وشراء اللؤلـؤ ، وقـد كنـا نستأجـر "محملاً" مـن قـوم العبـار أو"جالبوتـاً" مـن خـلف العتيبـة فيـما بعـد ، وكان يقودهـا "نوخـذة" يسـمى عيسـى بـن مرشـد بإيجـار شـهري قـدره أربعمائـة روبيـة وبرفقـة هـذا النوخـذة الـذي يعـرف مختلـف "الهـيرات" أي المغاصـات كنـا نصـل حتـى دلمـا و"بالبخـوش" و"زركـو" و"دينيـة" و"داس" وغيرهـا مـن الجـزر .

ومـن ذكريـات الحـاج بـدر بـن عبيـد البـدر :" لقـد كنـا نسـتقل مراكـب تجاريـة تابعـة للشركـة الهنديـة البريطانيـة مثـل "دارا" و"دانـا" ودريسـا" وهـي المراكـب التـي انقرضـت الآن ، عـلى ظهرهـا كان كثـير مـن العوائـل مـن تجـار الإمـارات ينتقلـون مـا بـين دبي والهنـد ، وأذكـر أن تذكـرة المركـب كانـت تكلـف مائـة وعشريـن روبيـة للشـخص الواحـد وأربعمئـة روبيـة للغرفـة العائليـة ، كـما أن الإيجـارات والمعيشـة في الهنـد كانـت رخيصـة يومهـا ، إذ كنـا نسـتأجر غرفـا مـن "المسـافر خانـة " ببومبـي بمئـة وسـبعين روبيـة في الشـهر الواحـد ، وكثـيراً مـا كنـا نغطـي نفقـات رحلاتنـا السـياحية إلى الهنـد ، حيـث كنـا نحمـل معنـا مـن أسـواق دبي بضائـع متنوعـة في صناديـق وكراتـين "ومزامـي" وتكـون عبـارة عـن أقمشـة و"بنطلونـات" وأقـلام وسـاعات وغيرهـا ، وتلـك البضائـع لم تكـن تتعـرض لرسـوم جمركيـة ، إذ تحسـب ضمـن حمولـة العائلـة الخاصـة .

وعنـد العـودة إلى البـلاد نجلـب معنـا دهـن العـود و"الـوزرة" و"الغتـر" والهيـل والعطـور للاسـتهلاك والبيـع .

إن الشـيخ مانـع بـن راشـد آل مكتـوم اسـتطاع وضـع أشـهر خريطـة خليجيـة لمغاصـات اللؤلـؤ لهـا أهميتهـا :" لمـا رأيـت الحاجـة داعيـة لوضـع خارطـة لهدايـة أربـاب السـفن الغواصـة وتجـار اللؤلـؤ وغيرهـم مـن الذيـن يبيعـون عليهـم مـا يحتاجـون مـن طعـام ومـاء ، وقـد راجعـت الخرائـط الصحيحـة عـلى صحتهـا ، ولمـا كنـت أزاول تجـارة اللؤلـؤ وترددت كثـيراً عـلى تلـك المغاصـات رأيـت أن هـؤلاء الغواصـين وغيرهـم كانـوا يضلـون الطريـق لأن سـيرهم غالبـاً يكـون مجـرد تخمـين ، فطـرأ عـلي أن أضـع خريطـة جامعـة لمغاصـات اللؤلـؤ في الخليـج بـين السـواحل العربيـة والإيرانيـة ، مـن رؤوس الجبـال إلى رأس الخيمـة مسترشـداً بتلـك الخرائـط وبـالأدلاء المعروفـين ، وقـد وضعـت صـور المغاصـات في الخارطـة نفسـها ، وذكـرت أسـماءها فالتوجـه إليهـا مـن جهـة يجـب أن يضـع نصـف الدائـرة مـن المكان الـذي هـو فيـه ، ويجعلهـا جـاه وقطب أو مطلـع ومغيـب ، أو بالعكـس ، ويجعـل خيطـاً ممتـداً مـن النصـف المذكـور ويمـده إلى الجهـة التـي يريدهـا ، وبذلك يعـرف تلـك الجهـة مـن النجـم المقصـود مـن الدائـرة ومـع ملاحظتـه للمسـير ويلاحـظ مسـألة الأميـال ، انظـر إلى الأميـال في الخارطـة عـلى قـدر مسـيرة سـفينة "

يمكـن القـول إن الشـيخ مانـع بـن راشـد آل مكتـوم واحـد مـن تلـك الشـخصيات التـي بـرزت بعـد ازدهـار تجـارة اللؤلـؤ في الفـترة التـي سـبقت الحـرب العالميـة الثانيـة ، ولقـد كانـت أغلـب تلـك الشـخصيات مـن تجـار اللؤلـؤ الذيـن مكنتهـم وضعيتهـم الاقتصاديـة والاجتماعيـة مـن التواصـل مـع المـد النهضـوي والقومـي الـذي بـدأ في الانتشـار عـلى امتـداد الخريطـة العربيـة ، وحقيقـة تتعلـق ب(النالية) فقبـل ظهورهـا حتـى منتصـف القـرن التاسـع عـشر كانـت أسـاطيل سـفن الغـوص الخليجيـة تتوجـه نحـو (الهـيرات) المتنائـرة في الأعـماق هنـا وهنـاك دون اسـتخدام بوصلـة او خرائـط ، بـل إن ربابنـة تلـك السـفن كانـوا يسـتعينون بالشـمس والنجـوم والسـحب والعلامـات الطبيعيـة الأخـرى وحركـة الموج وأعماق البحـر ، وذلـك في توجهاتهـم البحريـة وهـذا مـا تؤكـده المصـادر الأجنبيـة وروايـات الأجـداد والآبـاء ،تقـدم (نالية)الشـيخ مانـع طريقـة للوصـول والتنقـل بـين (الهـيرات) الخليجيـة ، والحقيقـة أن تلـك المعنيـة كانـت وسـيلة إرشـادية متطـورة وميـسرة بدرجـة بالغـة الأهميـة للغواصـين مـن الأجـداد والآبـاء في مرحلـة مـن الزمـن وسـوف تبقـى كذلـك لهـذه الأجيـال المتتاليـة مـن أبنـاء الخليـج .

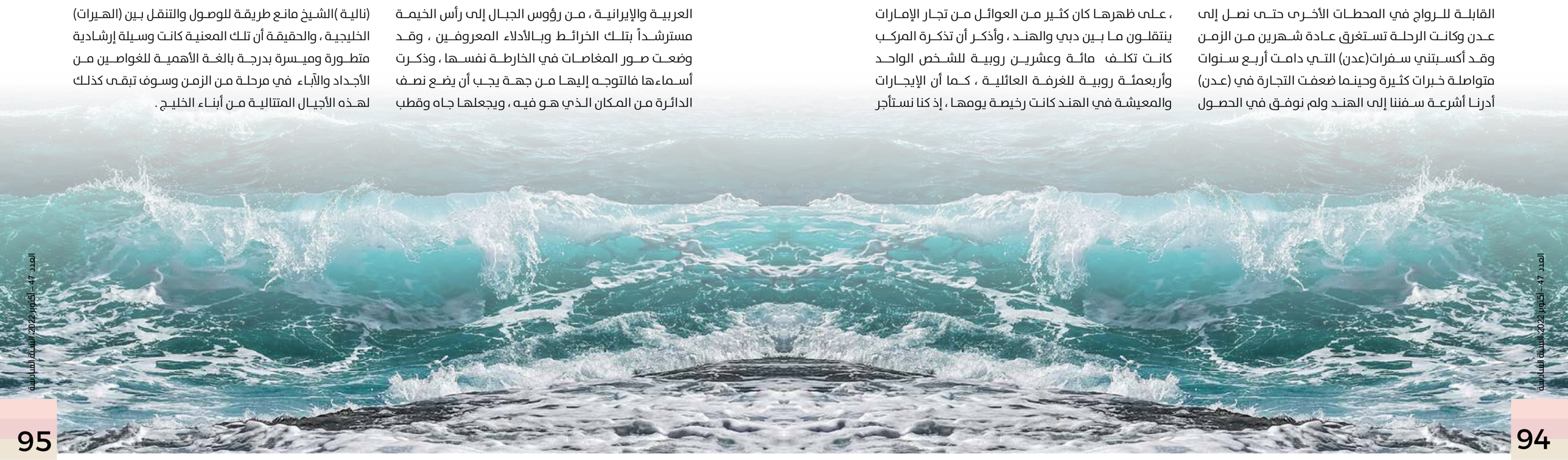

مريم سلطان المزروعي
كاتبة - الإمارات

حكايات من البحر ذكريات مروية محفورة في الذاكرة

أبناء الإمارات ارتبطوا ارتباطاً وثيقاً بالبحر منذ القدم، وذلك لحاجتهم الشديدة له، فقد أدى دوراً فعالاً وحيوياً في فترة لم يكن هناك غيره، فالبحر له عدة أدور اجتماعية وثقافية واقتصادية لا يستهان بها، فقد كان المصدر الرئيس للدخل، الذي أجبر الرجال للاتجاه إليه، إذ إنه لا بديل له، سواء كان بصيد الأسماك أو الغوص على اللؤلؤ. وإن استخراج اللؤلؤ كان من أصعب المهن، فالإنسان يخاطر بحياته من أجل لقمة العيش.

يذكر أحد الرواة :" أن مهنة الغوص على اللؤلؤ لم تكن سهلة بل من أصعب المهن، فالغيص كان يحبس أنفاسه دقائق متواصلة تحت الماء، وبأعماق قد تصل إلى عشرين متراً، وتكون المياه شديدة البرودة، ولا يحمل معه غير أدوات الصيد البسيطة التي تتألف من : "الديين" الذي يشبه السلة أو الكيس الذي يضع فيه الغيص ما يجمعه من أصداف ومحار، ويُعلقه في رقبته أثناء قيامه بمهمة الغوص، والفطام قطعة من عظم الحمس (السلاحف) أو ظلوف الماعز (الظّلْف للبقر والغنم كالحافر للفرس والبغل والخُفّ للبعير..لسان العرب) يوضع على أنف الغيص لمنع تسرب الماء إلى أنفه، وكذلك الزبين (حبل يربط في قدم الغيص حتى يسهل عليه النزول إلى أسفل حتى قاع البحر)، والخبط عبارة عن قطعة من الجلد يلف بها الغيص أصابعه ليتجنب خطر الصخور والأشواك البحرية الخطيرة، وحبل النجاة " اليدا"، الذي يبلغ طوله سبعين متراً، يربط ب " الديين"، ويمسك الغيص بأحد طرفي الحبل وينزل إلى قاع البحر، بينما الطرف الآخر يكون عند "السيب" الذي يبقى على ظهر السفينة، ويسحب الغيص بعد انتهائه من جمع المحار، يهز الغيص بعدها الحبل، فيسرع إلى سحبه إلى الأعلى، "، يقول راوي آخر: " إن الغيص عانى كثيراً من المتاعب والمخاطر منذ نعومة أظافره، ويبقى في هذه المهنة طوال حياته سواء انتهت بالموت بين أمواج البحار العاتية وقيعان البحار المظلمة يناضل من أجل أبنائه وأسرته، أو يبقى فيها حتى يصيبه الهرم والكبر، ولكنه في الآخر ينال ما يسعى إليه، قال الأعشى:

قدْ رامها حججاً، مذْ طرّ شاربهُ
حتى تسعسعَ يرجوها وقد خفقا

وكثيراً ما كنا نسمع: " الغوص قطعة من جهنم، وكانوا يقولون (الغوص غص بريجه لو فيه روبيات) وهذا يقصد به أن الغوص هم وحزن على البحارة حتى ولو كان هو مصدر رزق ومال وفير".

وعند لقائي بأم راشد المزروعي ذكرت لي: "لقد كانت علاقة أسرتي ووالدي علاقة وطيدة وقوية مع البحر علاقة منذ مئات السنين، فوالدي ورث المهنة من والده، فمهنة الغوص مهنة متوارَثَة، ورزق أساس متوفر ذلك الوقت والكل يسعى إليه، ورحلات الغوص هذه كانت موجودة ومستمرة في كل موسم، وقد حكى لي والدي حفظه الله الكثير عنها، الا أن هذه المهنة تم القضاء عليها بعد ظهور اللؤلؤ الصناعي وبالتالي اندثرت وتدهورت، مما أجبر والدي على الذهاب للعمل في الكويت في فترة من الفترات ليس بسهولة الحصول على عمل، ليس فقط على مستوى الإمارات ولكن على مستوى الخليج العربي بلا استثناء. والدي كان "سيباً" ذهب معه عدد لا بأس به من أصدقائه وأصحابه، ومعظمهم كانوا من الجيران منهم النوخذة سعيد بن شرهان والمرحوم سيف بن سباع وسالم بن سباع وغيرهم. وقد كانت منطقة خور المزاحمي الساحلية من أشهر المناطق في رأس الخيمة، للذين يذهبون بصفة مستمرة للصيد، وهذه المنطقة معروفة بكثرة الأسماك وبها الرزق والخير

الوفير، كانوا يقولون:

دشيت الغوص شدة وعذاب

عن صافي الأخدود حيّر علي

والمقصود بهذا البيت: أن الرجال تركوا زوجاتهم وأسرهم وأبناءهم، ثم أن الشباب حديثي الزواج كانوا عندما يأتي موسم الغوص، يجبرون على الالتحاق به ". كما أنهم كانوا يحدّقون بالقرب من البحر، فالحداق بفتح الحاء والدال، هي عملية الصيد بالميدار، يقول الشاعر حميد بن ذيبان:

منهم حداديج يبرز خيطه وْيطْوي

ونْ كان ضعّاي يضحي يْعابل رْوابه

يقول السيد محمد بن علي: " إن البحر هو مصدر الزرق والخير الكثير، فقد كنا قبل خروجنا إلى البحر نستلف من النواخذه لنشتري بعضا من المستلزمات والحاجيت الضرورية من الأرز والقهوة، لنؤمن بها أسرنا قبل بدء الرحلة وكذلك لثقتنا بأن هذه الرحلة ستكون من الرحلات المثمرة والتي منها نستطيع أن نقضي ديوننا، لقد كانت حياة البحر قاسية فنحن منذ الصباح الباكر وحتى غروب الشمس منهمكون في النزول إلى قاع البحر والخروج منه، ومن المواقف التي لا تفارق خيالي، عند فقدان الغيص وهو في عرض البحر، كنا نكتشف مدى قسوة بعض النواخذه، أو موت أي أحد منا بسبب الظروف الصعبة التي نعيشها على ظهر السفينة فيتم رميه في البحر الذي يصبح مقبرة له، بدلاً من أن يدفن بطريقة لائقة له". كما ذكر لي أحد الرواة: " أن متاعب العمل والمعيشة في البحر لم تكن تختلف عن قساوة الحياة في البر أو الجبال، فقد كانت أصعب اللحظات التي كانت تمر علينا ونحن في عرض البحر، العواصف والأمواج في غياهب البحار، والتي كنا نحسب أنها لن تنتهي، وقد تؤدي بحياتنا وتزهق أرواحنا، فقد كانت الموجة تركب السفينة من الصدر وتخرج من التفر (وهو الجزء الخلفي من السفينة، وكذلك مكان جلوس ونوم البحارة)، والبحارة ينهمكون في نزع المياه منها، وذات يوم وكان الوقت مظلماً صادفتنا رياح قوية وكنت أقف بجانب حبل الشراع الذي دفعته الرياح ليدفعني وأسقط بين

الأمواج العاتية، وبقيت أصارع الأمواج فترة طويلة، شعرت بأنها كالدهر، ولم يشعرأحد بسقوطي، حتى مرت السفينة بالقرب مني وتم إنقاذي من الموت، الذكريات كثيرة بعضها مفرح وبعضها حزين، ومضت الحياة بحلوها ومرها، والله مد أعمارنا وعرفنا الاتحاد وعشنا حياة هنيئة سهلة ولله الحمد".

لقد كان الصيادون يجوبون بمراكبهم بين المواطن التي تكثر فيها الأسماك ليلاً ونهاراً ومتى طابت لهم الرحلة منذ الصباح الباكر وحتى فجر اليوم التالي، يقول أحمد بن محمد: " إن شمس شهور الصيف اللافحة تحرمهم من فرصة الحصول على غنائمهم من الأسماك، خلال فترة الصيف في فترة الظهيرة وحتى بعد صلاة العصر؛ حيث تضطر فيها الأسماك بأنواعها وأشكالها المختلفة إلى البحث عن الأماكن الباردة أوالأماكن الظليلة، لذلك كان الصيادون يستفيدون من هذه الفرص التي لا تعوض بوضع مظلات مصطنعة تجذب إليها الأسماك الهاربة بوضع قراقير (مفردها قرّقوْر،هي أقفاص نصف كروية قاعدتها دائرية الشكل مدعمة بإمدادات من سيقان جريد النخيل أو الجنا، الحجم الكبير يطلق عليها دوباية والوسط فردي والصغير قرقور، وهي مصنوعة من شباك السلك الحديدة "السّيم" وقديماً تصنع القراقير من عذوق النخيل وله فتحة تسمى البابه يدخل منها السمك ولا يستطيع الخروج)، طوال اليوم، فتقع في المصائد، يقول الشاعر:

سوّ لي قرقور نشّالي من حديد وْعسق باباته

كما كنا نستفيد من حرارة الشمس بتجفيف الأسماك كسمك "العومة" أي السردين والتي كانوا ينشرونها على الشواطئ بعد الصيد لتجف ثم تخزن في أكياس كبيرة وتشحن بها السفن التجارية للتصدير إلى العديد من الموانئ لتباع في الأسواق". في كل جانب من جوانب الحياة القديمة ذكرى، شكلت شكلاً وخطاً من رتابة الحياة، وعشعشت في الذاكرة بل ورسخت بها، وهي صورة مطبوعة في ذهن كل واحد منهم، أثبتت مدى معاناة الغيص أثناء عملية البحث عن اللؤلؤ ومحاولة انتزاعه من الأعماق. وبهذا رسموا لنا طريق المستقبل.

البحر في القرآن الكريم

د. مهدي الشموط
محاضر لغة عربية
في كليات التقنية العليا

يشكل البحر مكونا أساسيا من مكونات الكرة الأرضية التي سخّرها الله عز وجل للإنسان لينتفع بمائها وهوائها ونباتها وحيوانها ومعدنها وكل ما فيها.

فقد ذكرت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على أن هذه المخلوقات جاءت لخدمة الإنسان وطلبت منه أن ينتفع بها، وأن يتنعّم بخيراتها وأن يحافظ عليها وأن يتفكّر بها؛ لأن العاقل من تأمل في نفسه وفي كونه كي يصل إلى الحقيقة الوجودية الكبرى وهي ان الله عز وجل هو من أوجد هذا الكون واستخلف الإنسان فيه وطلب منه ان يكون خليفة الله في الأرض ليصلحها ويعمرها ويقيم حدود الله عليها لكسب رضا الله وتحقيق مبتغاه.

(وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنىِّ جَاعِلٌ فىِ ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنىِّ أَعْلَمُ مَا لَا تعلمون) . البقرة 30.

ومن أهم ما أوجده الله سبحانه وتعالى في هذا الكوكب الذي نعيش عليه البحر الذي عرفه الإنسان منذ الأزل فخافه من خافه وأحبه من أحبه؛ فللناس فيما يعشقون مذاهب" فثمة من يسكن قريبا من البحر أو بمن يسمّون شعوب الساحل وآخرون يقطنون مناطق بعيدة عن البحر فيسمون شعوب البر أو أهل البر؛ ولكل فريق من هؤلاء مزاج خاص؛ فأهل الساحل يعشقون البحر ويحبونه ؛ فيرونه الملاذ لهم حين تضيق بهم أنفسهم ومصدر رزقهم حين يغوصون في أعماقه فيعودون بالصيد الوفير ويرونه أيضا كاتم أسرارهم ومهوى أفئدتهم وراحة أنفسهم؛ فلهم معه حكايات وقصص وأساطير وخرافات.

لابد من الوقوف على لفظة البحر في اهم مصدر من المصادر العربية وهو القرآن الكريم الذي تناول البحر في آياته الكريمات، فقد ذُكِرَ البحر في القرآن الكريم في خمسة وثلاثين موطنا مرة بصيغة المفرد (بحر، البحر)، ومرة بضيغة المثنى(بحران، بحرين) وأخرى بصيغة الجمع (أبحر جمع قلّة، وبحار جمع كثرة)؛ وسنقف على بعض الآيات التي ذكرت البحر والسياق القرآني لها، وسأحول في هذه العجالة أن اختار بعض الآيات والسياق القرآني لها مع ملاحظة أن الآيات التي ذكرت البحر تذكره أحيانا في معرض الحديث عن النعم التي سخّرها الله عز وجل للإنسان، ومن ذلك قوله تعالى في سورة النحل : {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، سورة النحل 14ومعنى ذلك (هو الذي سخّر لكم البحر؛ لتأكلوا مما تصطادون من سمكه لحمًا طريًا، وتستخرجوا منه زينة تَلْبَسونها كاللؤلؤ والمرجان، وترى السفن العظيمة تشق وجه الماء تذهب وتجيء، وتركبونها؛ لتطلبوا رزق الله بالتجارة والربح فيها، ولعلكم تشكرون لله تعالى على عظيم إنعامه عليكم، فلا تعبدون غيره) . وهنا يتضح للقارئ المتدبر أن الحق جل وعلا جعل البحر مصدرا من مصادر الرزق للإنسان المسلم الذي يأكل من سمكه، ويلبس من حليه، ويتخذه وسيلة للانتقال من مكانٍ لآخر.

وفي آية أخرى من سورة الجاثية تتناول الآيات الكريمات البحر في الحديث عن معرض النعم والتسخير للإنسان، يقول تعالى: { اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} الجاثية12، ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى هو الذي سخَّر لكم البحر؛ لتجري السفن فيه بأمره، ولتبتغوا من فضله بأنواع التجارات والمكاسب، ولعلكم تشكرون ربكم على تسخيره ذلك لكم، فتعبدوه وحده، وتطيعوه فيما يأمركم بهن وينهاكم عنه) .

والآيتان السابقتان تتناولان البحر بمعرض النعم التي تستوجب الشكر لله _عز وجل_ على الإنسان الذي سخّر له الله البحر ليكون وسيلة نقل ومصدر رزق؛ لذلك نلاحظ أن الآيتين السابقتين انتهيتا بقول تعالى: (لعلّكم تشكرون) والشكر يكون في معرض النعم كما أن الصبر يأتي في معرض الابتلاء، فسياق الآيات هنا سياق نِعَم وعطاء وفائدة للإنسان الذي يجب عليه أن يشكر الله على هذه النعم.

أما ماجاء في القرآن الكريم من ذكر للبحر في موطن الخوف قد جاء ذلك في موطن الحديث عن يوم القيامة حيث جاء في كتاب الله العزيز قوله: { وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} سورة التكوير الآية6 ومعنى ذلك (وإذا البحار أوقدت، فصارت على عِظَمها نارًا تتوقد). وهذا من أوصاف وأهوال يوم القيامة التي جاءت في سورة التكوير؛ فالبحار هنا تتوقّد نارا، وهذا بالطبع في سياق التخويف والتهويل من أهوال وأحداث يوم القيامة لذلك جاء في هذه الآية بعد ذكر الأهوال ... {علمت نفس ما أحضرت} الآية14.

وفي سياق آخر يذكر الله سبحانه وتعالى البحر في قوله {وِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ في الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلىَ الْبرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا} الإسراء 67.

ومعنى ذلك (وإذا أصابتكم شدة في البحر حتى أشرفتم على الغرق والهلاك، غاب عن عقولكم الذين تعبدونهم من الآلهة، وتذكَّرتم الله القدير وحده؛ ليغيثكم وينقذكم، فأخلصتم له في طلب العون والإغاثة، فأغاثكم ونجَّاكم، فلمَّا نجاكم إلى البر أعرضتم عن الإيمان والإخلاص والعمل الصالح، وهذا من

جهل الإنسان وكفره. وكان الإنسان جحودًا) ويظهر هنا اقتران البحر بالشدة والخوف فكان لابد للإنسان من العودة إلى الخالق الحقيقي الذي يملك النفع والضر؛ ففي البحر يوحد الإنسان ربه ويفرده بالعبودية وفي البر يشرك الإنسان المشرك لأن عارض الخوف زال فالبحر هنا يأتي في سياق التخويف والتهويل والحجة .

وقوله أيضا {قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} سورة الأنعام 63 ومعنى ذلك –قل يا أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: من ينقذكم من مخاوف ظلمات البر والبحر؟ أليس هو الله تعالى الذي تدعونه في الشدائد متذللين جهرًا وسرًا؟ تقولون: لئن أنجانا ربنا من هذه المخاوف لنكونن من الشاكرين بعبادته عز وجل وحده لا شريك له) . وهنا تجعل الآيات الكريمات البحر دليلا على توحيد الربوبية؛ فما إن يشعر الإنسان بالخوف والرهبة حتى يفزع بعقله وقلبه وفطرته إلى دعاء إله الحق والتخلي عمّا سواه، وكأن البحر هنا جنديٌ من جنود الله التي يعرف من خلالها الإنسان أن الله عز وجل خالقه وموجده ورازقه؛ فقد سئل أعرابي عن الدليل على وجود الله تعالى فقال: البعرة تدل على البعير، والروثة تدل على الحمير، وآثار الأقدام تدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، تدل على الصانع الحليم العليم القدير؟.

أما ما جاء في القرآن الكريم من ذكر للبحر في معرض علم الله المطلق الأزلي فمنه قوله تعالى: {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} الأنعام 59، ومعنى ذلك عند الله -جل وعلا- مفاتح الغيب أي: خزائن الغيب، لا يعلمها إلا هو، ومنها: علم الساعة، ونزول الغيث، وما في الأرحام، والكسب في المستقبل، ومكان موت الإنسان، ويعلم كل ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة من نبتة إلا يعلمها، فكل حبة في خفايا الأرض، وكل رطب ويابس، مثبت في كتاب واضح لا لَبْس فيه، وهو اللوح المحفوظ) . وهذا يدل على قدرة الله وعلمه الغيب في السماوات والأرض والبحار وعلمه المطلق وهو الذي لا يخفى عليه شيء، ومن المعلوم أن الإنسان الحديث حين تطورت وسائله عرف أشياءً من أسرار وعالم البحار؛ فكان ذلك معززا ليعرف المسلم عظمة الخالق جل وعلا الذي يعلم مافي البر والبحر.

وكذلك لابد من الإشارة إلى ما جاء في سورة لقمان في قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (فلو أن أشجار الأرض كلها بُريت أقلامًا والبحر مداد لها، ويمّد بسبعة أبحر أخرى، وكُتِب بتلك الأقلام وذلك المداد كلمات الله، لتكسرت تلك الأقلام، ولنفِد ذلك المداد، ولم تنفد كلمات الله التامة التي لا يحيط بها أحد) . وهنا يحضر البحر بعظمته وكثرته ومفرده وجمعه سبعة أبحر لينفد حبره ولن تنفد كلمات الله.

أما ما جاء ذكره للبحر في القرآن الكريم في معرض القصص القرآني فقد كان ذلك في سورة الكهف، وذلك في قصة سيدنا موسى مع الخضر عليهما، قال تعالى: {وإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا&فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا} وبعد الحوار الذي جاء بين سيدنا موسى والخضر عليهما السلام وما جرى بينهما وتعجّل سيدنا موسى في سؤاله للخضر عن سبب ما يقوم به من أعمال في ظاهرها الشر، وفي باطنها الخير وتخالف ما يجب أن يكون عليه من الصلاح تنتهي الآيات الكريمات بالحديث عن قدرة الله المطلقه {قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} وهذا فيه دليل على أن قدرة الله ليست محدودة، ويحضر البحر في سورة الكهف في معرض القصص القرآني، وما حصل مع سيدنا موسى، واللافت في الأمر أن لسيدنا موسى عليه السلام قصص مع البحر حين ألقته أمه في اليم خوفا عليه من فرعون، ثم تكون نجاته من فرعون حين أنجاه الله وبني إسرائيل وأغرق آل فرعون وأنصاره، وحين استسقى لقومه فقال له فقال له الله تعالى {وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} البقرة 60، وحين أراد الله أن يعلّمه _الله عز وجل _أرسله للرجل الصالح (الخضر عليه السلام) ليتعلم منه فكان البحر حاضرا في السياق القرآني العظيم في قصص سيدنا موسى عليه السلام.

وكذلك فقد أقسم الله سبحانه وتعالى في البحر في قوله تعالى {وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ} سورة الطور6، (أي المملوء ماء) .

وقد أشار القرآن لفساد الإنسان الذي ظهر في البر والبحر في قوله {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} سورة الروم41والواضح أن الآية تتحدث عن إفساد الإنسان في البر والبحر مما أوجب عقوبة _الله عز وجل _ على الناس لعلهم يتوبون إلى الله ويرجعوا عن المعاصي.

ومن الإعجاز القرآني العلمي قوله تعالى في سورة الرحمن {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ،20}بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ {21}فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ {22}يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ 4}وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ} سورة الرحمن 19-22.

(والمعنى خلط الله ماء البحرين – العذب والملح- يلتقيان. بينهما حاجز، فلا يطغى أحدهما على الآخر، ويذهب بخصائصه، بل يبقى العذب عذبًا، والملح ملحًا مع تلاقيهما فبأي نِعَم ربكما- أيها الثقلان- تكذِّبان؟ يخرج من البحرين بقدرة الله اللؤلؤ والمرْجان وله سبحانه وتعالى السفن الضخمة التي تجري في البحر بمنافع الناس، رافعة قلاعها وأشرعتها كالجبال) وفي هذا دلالة على أن السياق القرآني جمع بين البحر والنهر؛ أي الملح والعذب وجعل بينهما حاجز لايطغى جانب على آخر، مع تسخير الله البحر للإنسان ليفيد منه في الشرب والأكل والزينة والسير فالبحر عنصر من عناصر الحياة لايمكن الاستغناء عنه.

وأخيرا لابد من الإشارة إلى الآيات التي صوّرت حال الكفار ووظفت البحر ليكون صورة تقريبية للمتدبر في كتاب الله عز وجل وذلك في قوله تعالى في سورة النور {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ40} سورة النور الآيات 39، 40، فأعمال الذين كفروا كسراب، وهو ما يشاهَد كالماء على الأرض المستوية في الظهيرة، يظنه العطشان ماء، فإذا أتاه لم يجده ماء. فالكافر يظن أن أعماله تنفعه، فإذا كان يوم القيامة لم يجد لها ثوابًا، ووجد الله سبحانه وتعالى له بالمرصاد فوفَّاه جزاء عمله كاملا. والله سريع الحساب، فلا يستبطئ الجاهلون ذلك الوعد، فإنه لا بدَّ من إتيانه كون أعمالهم مثل ظلمات في بحر عميق يعلوه موج، من فوق الموج موج آخر، ومن فوقه سحاب كثيف، ظلمات شديدة بعضها فوق بعض، إذا أخرج الناظر يده لم يقارب رؤيتها من شدة الظلمات، فالكفار تراكمت عليهم ظلمات الشرك والضلال وفساد الأعمال. ومن لم يجعل الله له نورًا من كتابه وسنة نبيه يهتدي به فما له من هاد).

والتشبيه الذي جاء في آية البحر (أو كظلمات في بحر لجي)يوضح ويبين للمشاهد حال الكفار الذين عملوا أعمالا ظنوها تنجيهم يوم القيامة ولكن حالهم كحال من يتيه في بحر عميق تعلوه الأمواج، والسحاب والظلمات المتراكمة التي تجعلها تائها خائفا حائرا ضائعا، أعمى لايكاد يرى يده.

والمتأمل في الآيات السابقة يجد حضورا كبيرا للبحر الذي خلقه الله تعالى وجعله مظهرا من مظاهر قدرته، ودليلا على عظمته ومصدر رزق لعباده، وفيه من الأسرار ما لايعلمه إلا الله، وقد وظفت الآيات الكريمات البحر في سورة النور للتشبيه والصوير الذي يحتاجه المتلقي لتتضح له الرؤية ويصبح كأنه يشاهد مشهد الكافر الذي خسر أعماله فصار في العمى والضلال والتيه والخسران، (ويجب مراعاة جهة التشبيه مراعاة تامة؛ لأنها عنوان الدقة، ومظهر الإصابة ومجلى الذوق السليم، والمنطق المستقيم والنظر العميق النافذ إلى صميم الأشياء، ودليل القدرة على المقارنة المستوعبة، وإصدار الأحكام العادلة المتزنة)، ومن الواضح أن الآيات الكريمات راعت ذلك، وكان لحضور البحر مع أداة التشبيه الكاف ما يقرب الصورة للمتلقي فيكون في ذلك العبرة والعظة ليتوب التائب ويزيد الله الذين آمنوا إيمانا وتكون الحجة على الكافر يوم القيامة وتتضح الصورة أمامه لعله يتوب قبل فوات الأوان.

«قصصنا البحري»

ومخيلة القاص الشعبي

إيهاب الملاح

مدير تحرير سلسلة «عالم التراث»
الصادرة عن معهد الشارقة للتراث

- 1 -

منذ اختتام فعاليات الدورة الماضية من ملتقى الشارقة الدولي للراوي عن «قصص الحيوان»، وإعلان أن قصص البحر وحكاياته هي موضوع الدورة التالية، وأنا أعكف على دراسة هذا الموضوع الممتع من منظور نصي خالص، بمعنى محاولة استكشاف حدود هذا التراث السردي الذي تمحور حول «البحر»، معتقدا أو هكذا ظننتُ أن الأمر لن يتعدى أكثر من ورقة بحثية أشارك بها في جلسات الملتقى العلمية الممتازة، ولن يكون الموضوع مرهقا بحال ولن يتجاوز جهد شهر أو شهرين أو ثلاثة على الأكثر لأنتهي من الورقة بصورة لائقة!

ودائما ما نكتشف أننا مهما قدرنا محدودية المادة أو ظننا القدرة على تأطير موضوع للبحث بما يسمح بالظن بتقديم رؤية كاملة له، نكتشف أننا واهمون حقيقة لا خيالا! فما لدينا كثير جدا وما وصلنا في هذه الدائرة غزير جدًّا!

على مدى عام كامل، وأنا غارق حتى النخاع في إعادة اكتشاف وقراءة عشرات النصوص التي يزخر بها تراثنا السردي في موضوع "البحر" و"القصص البحري"، والحكايات والمرويات التي وصلتنا في كتب ومدونات ومخطوطات، ويدور موضوعها حول "البحر" بعوالمه الواقعية المرجعية منها والمتخيلة.

إن تراثنا هائل فعلًا وزاخر وغني وخصب لدرجة تذهل وتثير الإعجاب. لم أكن أتصور هذا الثراء وهذا التنوع وهذا التباين وهذا الخيال المبدع المحلق وخاصة في جانبه الشعبي! وتحول ما كنت أظنه ورقة بحثية تقع في عشرات من الصفحات إلى دراسة تتجاوز المائتي صفحة، بل كتاب استغرقني بالكلية لما يشارف العام، ورغم ذلك كله، فقد صرت أكثر قناعة بأن هذا كله مجرد (قراءة استشكافية) أولى، وليس نهاية!

- 2 -

تراث زاخر من القصص والحكايات في تراثنا العربي، الرسمي والشعبي، المدون والشفاهي على السواء، التي تمحورت حول "البحر" و"البحار"، والرحلة والارتحال في الحقيقة أو الخيال، وقد توفر على درس هذ التراث ووصفه وترسيم حدوده باحثون كثيرون في العالم العربي بل وفي أوروبا وأمريكا أيضًا. وإذا كانت الدكتورة سهير القلماوي رائدة دراسات (الليالي) وأول من يتوفر على درس حكايات وقصص «ألف ليلة وليلة» وتحليل موضوعاتها، فإنها لم تهمل القصص البحري والحكايات التي تمحورت حول البحر في الليالي، حتى وإن لم تفرد لها بابا بذاتها في أطروحتها التأسيسية.

ذلـك أنهـا وبعـد سـنوات مـن إتمـام أطروحتهـا اسـتكملت جانبًـا أو أكـثر مـن جوانـب الـدرس والتحليـل في قصـص (الليـالي)، ومنهـا قصـص البحـار في الـتراث الشـعبي عمومًـا، وليـس في «ألـف ليلـة ليلـة» فقـط في مقالـة مهمـة موجـزة مكثفـة ، لكنهـا احتـوت عـلى إشـاراتٍ وأفـكارٍ في غايـة الأهميـة، خاصـة فيـما يتصـل برصـد واسـتخلاص سـمات وخصائـص القصـص البحـري والحكايـات البحريـة في الـتراث الشـعبي خاصـة.

وكان مـن ضمـن أبـرز مـا أشـارت إليـه في مقالهـا المهـم هـو رصـد انعـكاس هـذا الموضـوع "البحـر" في مخيلـة القـاص الشـعبي الـذي أبـدع فيـه أيمـا إبـداع، وتـرك لنـا روائـع وكنـوزا هـي في الحقيقـة إبداعـات إنسـانية خالـدة.

وقـد كان هـذا القصـاص حـرًّا تمامًـا ومطلقـا العنـان لخيالـه كي يبـدع ويبتكـر ويخـترع الحـوادث، ويـؤزم المواقـف ويصـل بهـا إلى ذروة الـذروة مـن التشـويق والإثـارة وحبـس الأنفـاس، ثـم يعـود ليخـترع "حـلًّا سـحريا" أو "حالـة قدريـة" أو تدخـلا مـا "بصـورة غـير معقولـة ولا منطقيـة"، كي يوفـر -في النهايـة- وسـيلة نجـاة لبطـل حكايتـه لـيرضي جمهـوره، وينـال استحسـانهم.

إن مـن أهـم مـا يشـوِّق بـه القـاص الشـعبي، بـل القـاص بعامـة، سـامعيه، هـو حديثـه عـن أشـياء لم يألفهـا السـامع أو عـن بـلادٍ وعـادات ومرئيـات لا تقـع في نطـاق تجـارب الفـرد العـادي، وكلـما تفنَّـن القـاص في وصـف هـذه العجائـب والطرائـف كان إنصـات القـوم إليـه أكـثر وتشـوقهم إلى أحاديثـه وطلبهـم لهـا أقـوى، ولذلـك "نجـد القصـاص الشـعبي يـرضي هـذه الرغبـة لـدى مسـتمعيه بـالإسراف في جمـع أو اخـتراع المخلوقـات العجيبـة والعـادات الشـاذة والمناظـر الطريفـة التـي لم تـر، ولعلهـا لـن تـرى، وإلى جانـب ذكـر هـذه الأعاجيـب والطرائـف يعتمـد القـاص الشـعبي أيضًـا عـلى الأحـداث العنيفـة والمواقـف المشـحونة بالقلـق والتعقيـد حتـى لا يبـدو الخـلاص مسـتحيلًا، والنجـاة ميئوسًـا منهـا، وفجـأة بعنايـة السـماء أو بشـذوذ الأحـداث تنحـل العقـدة ويعـود كل شيء إلى نصابـه، بـل وهـذه خاصـة شـعبية يعـود كل شيء إلى مـا يجـب أن يكـون، وإلى مـا يحـب المسـتمعون أن يكـون" .

- 3 -

لقـد كان "البحـر" و"البحـار" ومـا ورائهـا، بالنسـبة للقصـاص الشـعبي، هـي مهـاد أحـداث يمكـن أن تجمـع في يـسر طرافـة الموجـودات وشـذوذ الأحـداث وتلاطمهـا واصطخابهـا، فالبحـر يعـرف أولـه ولا يُعـرف آخـره، يُـرى سـطحه ولا يُعـرف مـاذا في قاعـه ومـا يحتـوي عليـه مـن كنـوز وعجائـب وغرائـب، وهـو في بعـده وعمقـه وتلاطـم أمواجـه وعواصفـه حقيـق بـأن يوحـي بالغمـوض والإبهـام والإثـارة التـي تمثـل فضـولا وشـغفا عظيـما للإنسـان المتطلـع إلى "ومـاذا بعـد؟"، ودائمـا مـا يضعـف الإنسـان ولا يقـاوم فضولـه ولا رغائبـه، لـولا رحمـة الخالـق بـه، وهـو حـري بالتأمـل المـؤدي إلى الاعـتراف بعظمـة الكـون، لذلـك وجـد القـاص الشـعبي في الـشرق والغـرب مـادة وفـيرة لمناظـر القصـص وحوادثهـا وأبطالهـا في هـذه البحـار، وصراع الإنسـان مـع البحـر، وتأملـه لعظمتـه وضياعـه في تيهـه، كانـت موضوعـات قصـص شـعبي وغـير شـعبي عـلى مـدى العصـور وفي مختلـف البـلاد.

ولقـد مهـدت قصـص التجـار العـرب البحريـة، بحسـب الدكتـورة سـهير القلـماوي، لظهـور قصـص "السـندباد"، وهـي أعظـم أعـمال أدب البحـر اكتـمالًا وتأثـيرًا في الـتراث الشـعبي العـربي، وفي الأدب العالمـي كلـه. فظهـرت «رحـلات السـندباد» أولًا ككتـاب مسـتقل، وشـكلت أكـثر أعـمال أدب البحـر العـربي العبقريـة، فنيـا وعلميـا.

كـما أفـادت هـذه القصـص البحريـة، بدورهـا، في تطـور أدب البحـر عنـد العـرب فيـما بعـد عـلي أيـدي ابـن ماجـد (الملاح العـربي)، وملاحـي الخليـج في أدب المرشـدات البحريـة، «الرهنامـج» أو «الرهـماني»، في القرنـين الخامـس عـشر والسـادس عـشر .

- 4 -

وفضـلًا عـلى ذلـك فقـد رصـدت الدكتـورة القلـماوي بـذكاء ومـن واقـع اسـتقراء النصـوص التـي وصلتنـا ارتبـاط هـذا اللـون مـن القصـص والحكايـات البحريـة بمنطقـة الخليـج العـربي تحديـدا، إذ مـن اللافـت أن معظـم مـا وصلنـا مـن نصـوص (إن لم يكـن كلهـا) يـولي وجهـه شـطر الـشرق بالأسـاس بمحـاذاة السـواحل الجنوبيـة لقـارة آسـيا مـن الخليـج العـربي إلى المحيـط الهـادي، مـرورا بالهنـد والجـزر المتاخمـة والمقابلـة لهـا وصـولا إلى أبعـد نقطـة اسـتطاعوا الوصـول إليهـا في الصـين وهـو مـا فصلتـه تفصيـلا كتـب الجغرافيـا الوصفيـة والرحـلات وتحديـد مسـارات الملاحـة العربيـة. تقـول القلـماوي:

"أمـا الخليـج العـربي فقـد كانـت لـه الصـدارة في قصـص التجـار في الأدب الشـعبي، والضيـاع فيـه، والمغامـرات التجاريـة والإنسـانية عامـة، وجـدت فيـه مصـدرًا خصيبـا للخيـال المتنـوع، والأحـداث المختلفـة المشـوقة، فالجـزر التـي تصـادف المشـرف عـلى الغـرق كثـيرة وأخبارهـا عجيبـة، فمـن جزيـرة القـرود إلى جزيـرة النسـاء إلى جزيـرة واق الـواق؛ حيـث جزيـرة الآدميـين الذيـن يتغـذون عـلى لحـم الإنسـان ويصبـح البطـل صيـدا ثمينـا لهـم" .

فكيـف أبـدع القـاص الشـعبي في تأليـف هـذه الحـوادث؟ ومـا الطريقـة أو الكيفيـة التـي كان يخترعهـا بهـا ووسـائله الفنيـة والخياليـة في ذلـك؟ وأخـيرا التيـمات التـي اسـتخلصها الباحثـون والدارسـون مـن هـذه النوعيـة مـن القصـص البحـري الـذي وصلنـا في تراثنـا...

هذا ما سنعرفه في الحلقة القادمة بمشيئة الله..

طقوسُ البحر في الأمثال الشعبية الإماراتية

د. عبد الرّزاق الدّرباس
كاتب - سوريا

تعد الأمثالُ الشعبيّة خلاصةَ تجربةِ الأجيال، التي صِيغتْ بأقصرِ العبارات لتدلَّ على أعمقِ المعاني، وهي تعبيرٌ صادقٌ عن الوجدان الشعبيّ الجمعي، وجزءٌ من ثقافة المجتمع، ولا يخلو بلدٌ من هذه الأمثالِ حسب لغته وعاداته وامتداد تاريخهِ وأجياله، ودولة الإمارات العربية المتحدة، لا تخرج عن هذا التوصيفِ من حيث المبدأ، فقد تناقل الرواة والمحدّثون عباراتٍ جميلة ذهبتْ مثلاً يضرب عند وقوع ما يشبهُ مناسبةَ قوله، وترسّخَ ذلك في التراثِ الشعبيّ الإماراتي، الذي يتشابه مع جيرانه في دول الخليج العربي وبقية الدول العربية.

ولكن خصوصيّته تنبعُ من تداوله باللهجة المحلية، التي تقلبُ بعض الحروف وتحوّر بعضها الآخر، وارتباطها بأحوال الناس ومكوّنات البيئة الجغرافية، ومناسباتها التي قد تكون حكايةً واقعية، أو خيالية يرويها جيلُ السلفِ لجيلِ الخلف.

وتتنوّع البيئات الجغرافية الطبيعية في دولة الإمارات لتشمل ثلاثةّ أوساطٍ رئيسة هي:

- بيئة البحر وسكان المدن الساحلية، وهنا يكونُ الصيد والغوص والتجارة وما يتطلب العلاقةَ المباشرة بالبحر.
- بيئة الصحراء الداخلية، وفيها يغلب طابع البداوة ورعي المواشي وكثرة التنقّل والارتحال.
- بيئة الجبال، وتغلب عليها الأعمال الزراعية ذاتُ الطابع الريفيّ.

وفي هذا المقام سنتناول المكوّن الأول للجغرافية الطبيعية، لأنه الأشملُ والأكثرُ انتشاراً وكثافة للسكان، وقبل ذلك لابد من الإشادة بِدَور الجهات الحكومية والجهود الشخصية للباحثين في استقصاء هذه الأمثال الشفوية وتوثيقها، لحفظها من الضياع، ولتعريف الأجيال الجديدةِ بها في زمنِ التقنية وتغيّر أنماط الحياة البشرية مع تقدم الزمن والتطوّر العمراني والحضاري والاجتماعيّ لسكان الدولة، ومن هذه الجهود نذكر جهود وزارة الثقافة والشباب؛ كمؤسسة اتحادية تعنى بهذا الشأن، تليها مؤسساتٌ محليّة داخل كلّ إمارة. مثل معهد التراث في الشارقة، وجمعيات الفن الشعبي والموروث في معظم الإمارات، ومركز حمدان بن محمد لإحياء التراث في دبيّ وغيرها الكثير.

وفي العودة لموضوع البحث بعدَ هذه التوطئةِ الضرورية، نجدُ جيلَ الرجالِ وكبارَ السنّ أكثرَ استخداماً للأمثال الشعبية، لأنها تشكل جزءاً هاماً من ثقافتهم وحياتهم، ويطلقون على حافظ الأمثال وقائلها لفظ (المتّوصّف) أو (راعي المثل)، بينما نرى الجيل الحاليَّ أقلَّ تداولاً لها لأسبابٍ يطول شرحها ولا يتسع لها مقامُنا هذا، ومع البحر نما تطورُ المجتمع والتصقَ به، فهو الجارُ الدائم والمتنفّسُ الأكبر ومصدرُ الرزق ووسيلةُ السفر، ولذلك نرى ارتباط الإنسان الإماراتيّ بالبحر وثيقاً، الأمر الذي جعل البحرَ حاضراً بقوة في

الأمثال الشعبية، التي تختار لمعانيها العميقة كلماتٍ قليلةً في صياغةٍ مُحْكَمةٍ وسَبكٍ لغويّ متماسك، وإيقاعٍ مسجوع يجعل حفظَها سهلاً وتداولَها مقبولاً، واستخدامَها يختصرُ حكايةً يطول شرحها.

نقول البحرَ ونقصد به ذاك الأزرقَ الممتد في طقوسه وأحواله وعلاقة الإنسان به، لأن الأمثالَ جاءت من تشابك العلاقة البشرية معه كأحدِ مظاهر الطبيعة المؤثرة في البشر ونشاطاتهم، من رصيفٍ وشاطئٍ وأمواج ومراكب وغوصٍ وأسفار وكائنات بحرية حية وتجار وموانئ ونواخذة ومدّ وجَزرٍ وكلّ ما يمكنه أن يشكّل التصاقاً بشرياً مع هذه الآية العجيبة التي خلقها الله تعالى للناس.

ومن الأمثال الشعبية المتداولة التي تتعلّقُ بالبحر سنختار مجموعةً، بلفظها الشعبي المحليّ، بلهجة سكان دولة الإمارات، حرصاً على مصداقية الرواية، مع شرحها ومعرفة مضاربها والمناسباتِ التي تقال فيها ومنها:

خذنا بشراع وميداف:

والشراعُ والمجداف من لوازم سير المركب قبل اختراعِ الآلات الدافعة، حيث يعاند قائدُ المركب الريحَ والموجَ بإنزال الشراع وبالتجديف، ويستغل نشاط الريح برفع الشراع، ومعنى المثل العام يوحي بأن الشخصَ لم يعطِ غيرَه فرصةً للكلام وإبداء الرأي، فهو سريعُ التحدّثِ قويّ الحجّة لا يدعُ لخصمه فرصة الدفاع عن رأيه، وكأنه استخدم القوّتين الكبيرتين اللتين يستخدمهما قائدُ المركب في البحر؛ الشراعَ والمجداف، للوصول إلى هدفه متكيّفاً مع كل حالات البحر في سكونه وموجه ورياحه.

وفي الحرص على الموارد والتخطيط للواقع والقادم يقول المثل الإماراتي:

شِلّ الما للما والزاد للبلاد:

ومعناه؛ عليك بالاحتفاظ بالقوتِ والماء حتى تصلَ لمكان فيه طعامٌ وشراب، ومن واجبك التقتيرُ وعدم الإسراف حتى لا تجدَ نفسكَ جائعاً ظامئاً بسبب سوء تقديرك للمسافة والوقائع، كما يحضّ المثل على تقدير الأمور وأخذ الحيطة والتخطيط للقادم من الظروف، ومضرب هذا المثل لأهل البرّ والبحر، لكنهُ أكثر ما يكون للبحارة الذين يدّخرون الطعامَ والماء العذبَ في مركبهم بما يكفي للرحلة الطويلة في عُرضِ البحر المالح، أو الوصول لمكان جديد يتزوّدون منه بما يحتاجونه.

وفي موضوع تناقض النتائج مع واقعية الأسباب، نجد مثلاً آخر ذا دلالة غرائبيةٍ حاصلةٍ يقول:

شَنيوب غرّق يمَل:

ومعناه يقول: إنّ سلطعون البحر رغمَ صغرِ حجمه وضعفِ قوّته، تمكّن من إغراقِ الجَمل الضخمِ في حجمه الصبورِ القوي في قدراته، وهذا المثل جاء من معايشة الناس لشاطئ البحر ورؤية حيواناته، كما له دلالة معنوية كبيرة بأن لا نستحقر أحداً لصِغَر حجمه، ولا نبدي الغرورَ بقوّتنا، إذِ العبرةُ في الأفعال والنتائجِ وليس في الأشكال والأقوال، كما ينقلنا المثلُ لحقيقةٍ اجتماعيةٍ مفادها حكمةٌ بالغةٌ وهي أن السلطعونَ خبيرٌ بالبحر وأحواله لأنه بيته ومجاله، أما الجملُ ابنُ الصحراءِ الغريبُ عن البحر فلم يتمكنْ من حماية نفسه في بيئةٍ غريبة عنه، فكان ميزان الصراعِ مختلفاً لا يعترفُ بالقوة والحجم، بقدر ما يستخدمُ الخبرةَ والذكاء.

وفي مثلٍ آخر يدل على عدم اليأس من ضياع الفرصة وانتظارِ غيرها، واستحالةِ مهمة العدّ والإحصاء يقول المثلُ الشعبي:

قال: عدّ موي البحر، قال: الياي أكثر من السّاير:

فمِن غيرِ الممكن لشخصٍ أن يعدّ أمواجَ البحر، إذْ هي متجددةٌ ما إن تتلاشى موجةٌ حتى تتبعَها أختها عبرَ مساحةٍ ممتدة لا تصل العينُ نهاياتِها، وهكذا يقصد المثلُ أصحابَ الحسرات الذين ضاعتْ منهم فرصةٌ ما، كي لا يعيشوا في ندامةٍ دائمة، بل عليهم اغتنامُ ما هو قادم من الفرصِ الجديدة، التي تتجدّد في مجيئِها كموجِ البحر، ما يُثبِت من جديدٍ الرؤيةَ الثاقبةَ للمثلِ بإشاعة التفاؤل والأمل في نفوسِ القانطين، من خلال مشهدِ موجات البحر القريب الذي يرونه كلّ يومٍ ويسمعون صوت أمواجه ويرون حركتها الدائبة.

ومن الأمثال الملتصقة بالبحر وحياته ونشاطات البشر فيه، نأخذ نشاطاً بحرياً مشهوراً كان يشكّل طقساً متعدّد الجوانب، هو الغوصُ لاستخراج الأصداف واللؤلؤ الطبيعي، وما يرافق ذلك من وداعٍ للبحارة وخطورة مهمّتهم، وفرحة عودتهم بالرزق الحلال، وتوزيع المهام داخل المركب الذي يقوده (النّوخذة)، ويسحب حبالَه (السّيب)، ويغني لرفاقه (النّهّام)، ويشتري بضاعته (الطّوّاش)، ومن تلك الطقوسِ الغنيةِ العريقةِ في الثقافة الشعبية الإماراتيةِ نختار المثلَ القائل:

نُواخذة ثنينِ في مَحمَل طِبَع:

ومعناه بليغٌ جداً، حيث يعلّمنا توحيد الكلمة، وعدم تضارب الآراء لأهل البيت الواحد، كي يظل متماسكاً قوياً، وقد شبّه الحالةَ بحالة بحرية يعرفها أهل الغوصِ والصيدِ من خلال وجود قائدٍ للمركب يدعى (النّوخذة)،

لـه خـبرةٌ بأحـوال البحـر وأماكـن الصيـد والتعامـل مـع المخاطـر والطـوارئ، لكنّ هـذا المركـبَ الواحـدَ لـه قائـدان اثنـان، يصـدران أوامـر متناقضـةً، مـا أدى بالمركـب للغـرق (طِبَـع)، والهـلاك والكارثـة الكـبرى، وربمـا بتوسـيع هـذا المثـلِ للحالـة السياسـية في عـدة بلـدان نلاحـظ الدمـارَ والخـراب الـذي حـلّ بهـا نتيجـةَ عـدم توحيـد الكلمـة، ووجـود أكـثر مـن نوخـذة (قائـد) لهـذا المركـب، مـا جعـل الأزماتِ تتـوالى والدمـاء تنـزف والخـراب يعـمّ تلـك البلـدان، ومـن أجـواء الغـوص وطقوسـهِ نـأتي بمثـلٍ آخـر يفيـد في التخطيـطِ وحسـاب العواقـبِ والسَّـير علـى هَـدي الخطـةِ والرؤيـة الواضحـة، فذلـك خيرٌ مـن الارتجـال والتخبّـط الـذي قـد يـؤدي بأهلـه للهـلاك، والنـدم سـاعة لا تنفـعُ الندامـة أصحابَهـا، يقـول المثـلُ:

لي ما يقيس قبل الغوص ما ينفعه الغوص عقب الغرق:

حيـث كان البحـارة يسـتخدمون أداةً لقيـاس عمـق البحـر في المـكان الـذي يريـدون الغـوصَ فيـه قبـل غوصِهـم، وهـذه الأداة هـي ثقـلٌ مصنـوع مـن الرصـاص مربـوطٌ بحبـلٍ وتدعـى (البلـود)، فـإذا كان العمـق لا يناسـب الغـوصَ عدلـوا عـن المـكان إلى آخـرَ مناسـب، وإلا فهـم يعرّضـون أنفسَـهم للهـلاك، ومـضربُ المثـلِ يحـثُّ علـى التخطيـط وحسـابِ المخاطـر وتجنّـبِ الـشرور قبـل الوقـوع فيهـا، وسـاعتها لـن يفيـدَ الجهـدُ ولا العـلاج، ونبقـى مـع الغواصـين، والأمثـال التراثيـة التـي رصـدت طقوسـهم لتعميـم التجربـة عـلى الأجيـال اللاحقـة، لنصـلَ إلى مثـلٍ طريـفٍ، يـدلّ عـلى اغتنـام الفرصـة في حينهـا، وتنظيـم الوقـتِ لإشـغالهِ بالعمـل المناسـب لـه، وبالتـالي نضمـنُ اسـتغلال المواقيـتِ بالشـكل الأمثـل، وإلّا فنحـن غـير معذوريـن، وسـنكون عـلى شاكلةِ (خميـس)، والاسـمُ هنـا اعتبـاريّ مجـازيّ، ذاك الـذي تجهّـزَ للغـوصِ وودّع أهلـه حـين انتهـى موسـم الغـوص وقفـلَ البحـارةُ عائديـن، وطـارت الطيـورُ بأرزاقهـا، أو كالـذي تجهّـز للحـجِّ بعـد أن انتهـى موعـدُ المناسـكِ وباشرتْ طلائـعُ الحجيـجِ العـودة إلى بلادهـا، يقـول المثـل:

يوم العرب تقفّل خِميس سار الغوص:

وليـس المقصـودُ هنـا سـخريةً أو تهكّـماً، فالأمثـال الشـعبية عنـد كل الشـعوب يتناقلهـا النـاس للعظـةِ والعِـبرةِ والفائـدةِ، وليـس لأيّ هـدف هامـشيّ قصـيرِ المـدى،

ومـن المنبـعِ نفسِـه الـذي هـو عـدم المغامـرةِ، وتوخّـي الأمـان والسـهولة في طلـب الـرزق، نجـد مـن الأمثـالِ المرتبطـةِ بالبحـر مـا يقنعنـا بالفلسـفةِ الآمنـةِ التـي تخلـو مـن المخاطـرِ أو تقلّلهـا إلى أبعـد حـدّ، وهـذا مـا أكّـده القـرآن الكريـم في مُحكَـم تنزيلـه، حيـث يقـول اللـه تعـالى في الآيـة 185 مـن سـورة البقـرة:

(.. يُرِيـدُ اللـهُ بِكُـمُ اليُـسْرَ ولا يُرِيـدُ بِكُـمُ العُـسْرَ..)، وجـاء بـهِ هـديُ نبيّنـا محمّـدٍ صلـى اللـه عليـه وسـلم، حيـث جـاء في الأثـر النبـويّ أنّـه – عليـه الصـلاة والسـلام – مـا خُـيِّرَ بـين أمريـن إلا اختـارَ أيسرَهـما، وتراسـلاً مـع هـذا يقـول المثـل الإمـاراتيّ:

وشْ لك بالبحر وأهواله وأرزاق الله على السّيف:

حيـث يتسـاءلُ المثـل في صياغتـه باسـتغرابٍ عـن الدافـع الـذي يجعـلُ الباحثـين عـن الـرزق يركبـون البحـرَ وأخطـاره، في حـين لديهـم فـرصٌ أكـثر أمانـاً وأقـلّ خطـورةً عـلى (السّـيف)، وهـو رصيـف الموانـئ الـذي تتجمّـع عليـه البضاعـة، إذ بمقدورهـم العمـلُ في التحميـلِ أو البيـعُ والوسـاطة، بـدل أن ينزلـوا البحـرَ ويعرّضـوا أنفسـهم للغـرق، ومـن خـلال ارتبـاط هـذه الأمثـال بمهنـة الغـوص، نـرى البحـرَ عمـودَ الارتـكازِ الأهـمَّ في صياغـة أسـلوبِها وحكمـةِ معانيهـا الإنسـانيةِ السـامية.

ونبقـى في روضـة الأمثـال الشـعبية الإماراتيـة التـي جعلـت البحـرَ منبـع تجربتهـا، في حالـة التسـرّع للأمـر قبـل وقوعـه، والمبالغـة في الخـوف منـه، مـا يعطـي نتائـجَ عكسـيةً، فمـن المعـروف أنّ السـفنَ الشراعيـة حـين تكـون في عُـرض البحـر تُنـزِلُ أشرعَتهـا وتُفـرِغ حمولتهـا، حـين تتأكـد مـن هيـاجِ البحـر أو عاصفـةٍ وشـيكة الهبـوب، وذلـك تجنّبـاً للمخاطـر، لكـن بعضَهـم يتعجّـلُ في ذلـك قبـل التأكـد مـن ارتفـاع المـوج وشـدّة الريـح، فيكـون قـد أضـاعَ الوقـتَ والجهـد، وفي هـذه الحالـة يقـول لـه المتوصّـفُ الشـعبي مثـلاً بحـريَّ الوصـفِ والأدوات والحالـة:

يكسر الدّقل قبل الحِبّ:

ومعنـى الدّقـلِ سـاريةُ السـفينة، أمـا الحِـبُّ فهـو هيجـانُ البحـر، وهـذا المثـل يحـذّر مـن اتخـاذِ القـراراتِ غـير المدروسـةِ، والمبالغـةِ في الخـوف والحـذرِ مـن الأوهـامِ، وتكبـير الشـائعاتِ التـي لا أسـاسَ لهـا، مـا يخلـقُ في المجتمـع إرباكـاً وضياعـاً للوقـت والجهـود، لابـد في نهايـة شـواهد الأمثـال مـن مثـلٍ جميـلٍ كثـير التـداول، يـدلّ عـلى الثقـة بالنفـس، وتوظيـفِ الخـبرة والتجربـةِ في تجـاوز العقبـات، بـل الاسـتهزاءِ بهـا، لأن الـذي عـاركَ الحيـاة الطويلـةَ وشـدائدَها المختلفـةَ، لـن تؤثـرَ فيـه نازلـةٌ عابـرةٌ في وقـت قصـير، وإذا كان أهـل الشـام يقولـون: مـن شربَ النهـرَ فلـن يغـصَّ بالساقية، وذلـك لكـثرة الأنهـار والينابيع في بلادهـم، فـإن المثـلَ الشـعبيّ الإمـاراتيَّ يعطينـا المعنـى نفسَـه، لكنـه يغـرفُ الألفـاظَ مـن البحـرِ لوجـوده في بيئتهـم، ومجاورتـهِ لهـم، يقـول المثـلُ:

يوم ما غرجنا في بحر سبعين، ما بنغرج في بحر سبعة:

وملخّـص المعنـى، أنّ الرجـلَ الـذي خـاض البحـارَ العميقـةَ ونجـا مـن خطرهـا لـن ترهبَـه ميـاهٌ ضحلـة، وأنّ القـومَ الذيـن خرجـوا مـن الشّـدائدِ الكـبرى الخطـيرةِ منتصريـن، لـن تقـفَ المناوشـاتُ الصُّغـرى في وجـهِ عزيمتهـم المتسـلحة بالخـبرةِ والثقـةِ والشجاعة، بـل هـي عليهـم من السـهولةِ بحيـث لا يعيرونهـا أدنى اهتـمامٍ منهـم.

ختامـا نقـول: إنَّ الأمثـالَ الشـعبية ذاكـرةُ أمـةٍ وخـبرةُ مجتمـع، ولم يـتركْ قائلوهـا مجـالاً إلّا وأدلـوا فيـه دلاءَهـم ليَصوغـوا لنـا مـن خلاصـة التجـارب مـا يفيدُنـا، ثـم عـبّروا عـن التجربـةِ الأولى؛ حُلوهـا ومُرّهـا بالأسـلوب الرشـيقِ والحكمـة البليغـة الموجـزة، والعبـارة السّـائغةِ المَسـجوعة، لتنفـذَ إلى الأجيـالِ اللاحقـة عـبرَ مسـيرةِ الأيـام، فيجـدَ فيهـا النـاسُ مـا يناسـب حالهـم ويردّدونهـا شِـفاهاً لتصِـلَ أزمنـةً تاليـةً وأُناسـيَّ كثـيرا، ومـن هنـا ندعـو إلى زيـادةِ الاهتـمام بهـذا الإرثِ الرائـع وتوظيفـه في الحديـث اليومـيّ، ونقلـهِ بأمانـةٍ لأطفالنـا، لأنـه انتـماءٌ أصيـل لهـذه الأرضِ الطيبـةِ، وتواصـلٌ ضروريّ بـين الأجيـال عـلى مسـاحة الإمـارات العربيـة المتحـدة، هـذه الدولـة التـي أكّـد قادتُهـا التمسّـكَ بأصالتِهـا، وتراثِهـا وثقافتِهـا العربيّـةِ وعقيدتِهـا الإسـلاميةِ، وموروثِهـا الشـعبيّ، حيـثُ قـال المغفـورُ لـه - بـإذن اللـه - الوالـدُ المؤسّـسُ الشـيخ زايـد بـن سـلطان آل نهيـان في هـذا الشـأن:

"من ليسَ له ماضٍ فليس لديه مستقبل".

مراجع ومصادر:

- مقدمات ودراسات لهجة الإمارات، دائرة الثقافة في الشارقة 2006.
- حكمة الأجداد في تراث مجتمع الإمارات، نادي تراث الإمارات، أبو ظبي 2012.
- معجم الألفاظ العامية في دولة الإمارات، وزارة الثقافة، أبو ظبي 1978.
- المتوصّف، عبد الله بن دلموك، مركز حمدان بن محمد لإحياء التراث، دبي الطبعة الأولى 2014

رواة البحر في الإمارات

النوخذة علي عبدالله الميرزا أحد رموز رواة السفر البحري

د. عادل الكسادي
مدير التعليم المستمر
معهد الشارقة للتراث

عمل أبناء الإمارات منذ آماد طويلة بحرفة السفر البحري داخل سواحل الخليج، وباتجاه موانئ المحيط الهندي، مروراً بالساحل العماني، وساحل شرق إفريقيا، ومراسي حضرموت وجنوب اليمن.

وتعدّ الملاحة والنقل البحري التجاري أحد أنماط معيشة السكان في الإمارات، كما في كل بلدان الخليج وساحل جنوب الجزيرة العربية، ويتمثل ذلك النمط في الرحلات البحرية التجارية التي كانت تقوم بها السفن الشراعية إلى موانئ الساحل الغربي للهند، وشرق إفريقيا (السواحل)، واليمن وساحل فارس والبصرة، وتنقل بوساطتها التمور والأخشاب والبهارات والأسماك المملحة والمجففة والسمن والسكر والشاي والحبوب والأرز، وكثير من السلع التي تنتجها الهند وإفريقيا.

وقد بدأ السكان يتجهون إلى العمل بحرفة السفر البحري بشكل أكبر في الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي، في ظل ضعف المردود الاقتصادي لحرفة استخراج اللؤلؤ، وضعف الطلب بظهور اللؤلؤ المصنّع في اليابان؛ لذلك أبحرت سفن أبناء الإمارات بعد الحرب العالمية الثانية باتجاه موانئ الخليج والمحيط الهندي، وخاصة الساحل الغربي للهند، وساحل شرق إفريقيا وجنوب اليمن.

وفي حين دبّ الركود في أسواق تجارة اللؤلؤ، لم يكن أمام أهل الإمارات من بديل عن الأسفار، وقد توجهت مئات السفن إلى سواحل شرق إفريقيا، أو عدن، أو السواحل الإيرانية أو بين دول الخليج والجزيرة. ويقول النوخذة حسين محمد الشعالي «وجهت أشرعة سفينتي أولاً باتجاه البحرين والقطيف في المملكة العربية السعودية، ومن دبي كنا نشحن الحطب والغليون (التبغ) و(الجاشع والعومة)، وكذلك العبرية؛ أي (الركاب)، ومن هناك كنا نأتي بالتمر».

خورفكان ميناء الإمارات الأول في الساحل الشرقي:

تعدّ خورفكان في إمارة الشارقة من الموانئ التاريخية في الساحل الشرقي، الذي عمل معظم أبنائه بحرفة السفر والتجارة البحرية، واهتم أغلب سكانها بالأسفار، وارتبطوا بالبحر ارتباطاً وثيقاً، وامتدت رحلاتهم إلى إفريقيا من جنوبها إلى شمالها، ثم إلى سيلان والهند وباكستان. ومن أصحاب السفن والنواخذة المشهورين النوخذة علي عبدالله الميرزا، الذي كان يمتلك أكثر من خمسة أبوام، وبلغ مجمل ما امتلكه من سفن 17 سفينة، ولم يكن بيته يخلو من 70 إلى 80 بحاراً. وهناك محمد بن صالح وإخوانه أحمد وعلي، ومن الأبوام التي ملكوها البوم (ميمون)، و(الخالدي)، و(ياردیله)، وكان يعمل عندهم أكثر من 120 بحاراً، وقد توفي محمد صالح في لامو بكينيا، حيث مرض في إحدى سفراته. والنوخذة محمود صالح صاحب أكبر بوم في الإمارات يسمى (رشدان)، وكان آخر أسفاره إلى مقديشو، حيث شحن من هناك كميات كبيرة من الفحم إلى الكويت، وفي الطريق صادفتهم العواصف والطوفان، وكان الوقت ليلاً، فانحرفوا بسفينتهم إلى رأس حافون، وهناك طبعت؛ أي غرقت بمن فيها من بحرية وأموال. وهذا غيض من فيض عن التاريخ البحري لميناء خورفكان، يرويه لنا النوخذة خليفة الفقاعي في النصف الأول من القرن العشرين.

نشأته وتعليمه وعمله:

ولد علي عبدالله الميرزا في عام 1930، وتلقى تعليمه الأول في إحدى مدارس البحرين، وحفظ القرآن الكريم. اصطحبه والده للعمل معه، ولم يتجاوز سنه الـ12 عاماً، وبعد أربع سنوات فقط من عمله مساعداً لوالده، شقّ طريقه بنفسه ليخوض تجربة فريدة معتمداً على خبراته التي اكتسبها من والده، وهو لم يتجاوز سنوات الطفولة المتأخرة.

معارفه البحرية:

وضع النوخذة علي الميرزا كتاباً بعنوان «أسفار في عالم البحار»، لخص فيه تجربته في السفر الشراعي التي امتدت لخمسة عقود من السنين، وفي كتابه هذا سجّل خبرته ومعارفه الملاحية والفلكية، ووضع وصفاً تفصيلياً بالمجاري والعبرات البحرية داخل الخليج، وكذا الطرق البحرية من الإمارات إلى المحيط الهندي، ابتداءً من مضيق هرمز إلى مكران وباكستان والهند وعمان مروراً بمسقط وجزيرة مصيرة إلى موانئ جنوب اليمن، كما وصف مواقع الجزر والمسافات بين البلدان والاتجاهات.

كما سجل الميرزا المخاطر والكوارث البحرية التي تعرّض لها أثناء رحلاته البحرية، وفقد على إثرها معظم سفنه غرقاً أو حرقاً في البحر.

رحلاته البحرية:

كان من عادات السفر البحري في الإمارات أن أصحاب السفن يقومون بأكثر من رحلة بحرية تجارية، ففي بداية الموسم البحري، وبعد الانتهاء من موسم الغوص، أو ما يطلق عليها «القفال»، يتفق النوخذة مع «اليزوة» التي يقوم باستئجارها، فيأتي «المجدمي» إلى النوخذة، ويتسلّم «التسقام»، ويقوم بالاتفاق مع البحرية الراغبين في السفر.

واليزوة بلغة أهل البحر، هم طاقم السفينة التي تضم النوخذة والمعلم والكراني والسكوني والمجدمي أو

(السرهنك)، والبحارة والأولاد (الوليد).
وفي العادة وبعد عودة رجال البحر من الغوص، وبعد استراحة قصيرة لهؤلاء البحارة، يبدأ أصحاب السفن والنواخذة بتجهيز أنفسهم وتجهيز سفنهم بكل الاحتياجات اللازمة للسفر، ويبدأ البحارة بتوديع أسرهم وأبنائهم للمشاركة في الرحلات التجارية الخارجية، فيتقوضون؛ أي يتقاضون جزءاً من أجورهم مقدماً، والذي يراوح بين خمسين ومائة روبية، ويوفرون بها احتياجات أسرهم.
وكما أشرنا إلى أن الرحلات البحرية تستمر منذ نهاية موسم الغوص وبداية القفال، والذي يعدّ بداية الموسم للسفر البحري الخارجي، ويستمر موسم السفر إلى شهر مايو، وهو بداية موسم الغوص.
وخلال هذا الفترة تقوم السفن الشراعية بأكثر من رحلة بحرية، فمعظم تلك السفن تتجه إلى البصرة، لتشحن من هناك التمر، وتتوجه بعد ذلك إما إلى موانئ الساحل الغربي للهند، أو الساحل الشرقي لإفريقيا (السواحل)، وبعضها يتجه إلى موانئ الساحل الجنوبي لليمن.
يصف النوخذة رحلاته البحرية التجارية، وما تعرّض له من كوارث وأحداث أدت إلى غرق كثير من سفنه، وضياع أمواله، وعلى الرغم من ذلك لم يتوقف هذا النوخذة الجسور عن ممارسة هذه الحرفة التي ولد في أتونها، وعاش مخلصاً لها حتى انتهت، وأصبحت في ذمة التاريخ، ولكنه استمر يتذكرها، ويحكي الحكايات والقصص عنها.

وصف رحلات السفر البحري:

الرحلة من عدن إلى خورفكان ودبي:

يصف النوخذة الميرزا في رحلة تجارية له على السفينة المسماة «فتح الرحمن»، من بندر عدن إلى ميناء الحديدة في البحر الأحمر، ومن ثم إلى خورفكان ودبي. ويقول كنا قد شحنا في فتح الرحمن من عدن حمولة مكوّنة من السكر والأرز متجهين إلى الحديدة، وعدنا مرة أخرى إلى عدن، فعدن في ذلك الوقت هي المركز والميناء التجاري الأول في المنطقة، ومركز لتجارة الترانزيت إلى كل موانئ جنوب الجزيرة والخليج والشرق الإفريقي.
وعندما رسونا في ميناء عدن، قام أحد التجار من دبي بشحن نحو 14 سيارة، وهي عبارة عن صناديق كبيرة تحتوي على محتويات تلك السيارات، والتي سيعاد تركيبها في دبي، بوساطة المهندسين المتخصصين.
كما قمنا بشحن عدد كبير من العبرية؛ أي الركاب الراغبين في السفر إلى دبي للعمل.
وبعد رحلة استغرقت نحو الشهر وصلنا إلى ميناء خورفكان، وعندما وصلنا علم أحد الإنجليز بأن لدينا شحنة من الركاب الراغبين في النزول، وجاء يسأل عن التأشيرات الممنوحة لهم، فهؤلاء جميعاً لم يكن بحوزتهم لا جوازات ولا تأشيرات.
بعدها توجهت إلى دبي، والتقيت أحمد الشامسي، وإبراهيم عبيد الله، وسألتهم عن سبيل لحل هذه المشكلة التي وقعت فيها، فوجهوني بمقابلة الشيخ راشد بن سعيد في مجلسه، وبالفعل في اليوم التالي دخلت على الشيخ راشد في مجلسه الساعة التاسعة صباحاً، وسألته المساعدة على الحل، وقال «هذا يعود إلى شطارتك»، وأبدى مساعدته في الحل. وبالفعل قمت بعد منتصف الليل بإنزال الركاب في منطقة بر دبي. وبعد نزول الركاب جاء أصحاب الدورية، وهم من الإنجليز وسألوني عن العبرية. فقلت لهم أنتم الذين تقومون بحراسة البوم، أما العبرية فقد ذهبوا ولم يبقَ منهم أحد.
ويصف النوخذة ميرزا في رحلات كثيرة له في السفينة المسماة «فتح الرحمن» التجارة البحرية في الخليج العربي والمحيط الهندي. ففي الرحلة من ساحل عمان شحنا «الليمون الجاف» من صحار، واتجهنا إلى البصرة، وقمنا بتنزيل الحمولة في منطقة العشار بشط العرب، وقد استغرقت الرحلة من عمان إلى البصرة نحو عشرة أيام. ومن البصرة قمنا بشحن السفينة بالتمر واتجهنا إلى شرق إفريقيا، وبعنا التمر، ومن هناك قمنا بشحن السفينة بالجندل إلى خورفكان.
وفي رحلة أخرى من خورفكان إلى البصرة، ومن هناك شحنا السفينة بالتمر، واتجهنا إلى بومبي، واستغرقت الرحلة 17 يوماً، وبعدها اتجهنا إلى منقرور، وشحنا السفينة بالقرميد الأحمر، واتجهنا إلى ممباسا، واستغرقت الرحلة 20 يوماً. ومن هناك شحنا الجندل، ووصلنا إلى خورفكان بعد أربعة أشهر ونصف الشهر،

بوم النوخذة علي عبدالله الميرزا – خورفكان

وعندما سألنا عن أسعار الجندل في أسواق الخليج، عرفنا أن أفضل سعر للجندل في الكويت، وبالفعل اتجهنا إلى الكويت، وكان ذلك في عام 1953، وأنزلنا الجندل هناك، وبعناه بأسعار ممتازة. ومن الكويت حملنا 1400 برميل بترول مخصص لمحطة مطار الشارقة، وعند وصولنا إلى الشارقة قمنا بإنزال براميل البترول، وحملناها بـ«القورية» إلى مطار الشارقة.

وأبحرنا من الشارقة قاصدين خورفكان، ولكننا لم نتمكن من الإبحار باتجاه مضيق هرمز لمعاكسة الرياح، وقد استغرقت الرحلة من ميناء الشارقة إلى ميناء خورفكان شهراً كاملاً، فلم يكن الظرف مناسباً للسفر في هذا الوقت.

الرحلة من زنجار إلى المصيرة:

يصف الميرزا في رحلة بحرية له من جزيرة زنجبار في السواحل إلى جزيرة مصيرة على ساحل مسقط، بأن الرياح التي تساعد على سير السفينة وحركتها قد توقفت، ولم تعد السفينة قادرة على السير واستئناف رحلتها، وظلّت هائمة في البحر لمدة 72 يوماً، على الرغم من أن الرحلة لا تستغرق في العادة أكثر من عشرة أيام في الحالات الطبيعية، وكاد طاقم السفينة يموت عطشاً لولا أن الرياح عاودت هبوبها، ما دفع السفينة للاتجاه إلى منطقة تسمى «العقر» في سلطنة عمان.

وفي رحلة تجارية أخرى من الساحل الصومالي إلى الشارقة، تعرضت السفينة التي كانت حمولتها من الأغنام، إلى عاصفة شديدة في خليج عدن، أدت إلى غرق السفينة بالكامل في قاع البحر، وغرق 3000 رأس من الغنم.

الهجرة إلى الكويت ودوره في نقل الركاب:

عندما اشتدت موجات الهجرة لإمارة الكويت في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، كان النوخذة علي عبدالله الميرزا أحد أصحاب السفن التي كان يشحن على متنها العبرية والمسافرين من خورفكان وساحل الإمارات المتجهين للعمل في إمارة الكويت آنذاك. ومن الأبوام التي امتلكها بوم يسمى «الممتاز»، وقد اشتراه من جاسم عبد المحسن الخرافي. وكان الممتاز وسيلة المواصلات الاعتيادية التي يتنقل بوساطتها المسافرون من خورفكان إلى الكويت بصورة شهرية. والممتاز كما يقول النوخذة الميرزا هو «تاكسي خورفكان» الذي يحمل العبرية إلى الكويت، وفي كل رحلة كان يشحن أكثر من 300 راكب، وهم في جلهم يعملون فراشين في وزارة المعارف الكويتية. وفي سنة من السنين، وبينما كان البوم طارح في النقعة، وذاهب للسفر من الكويت إلى الإمارات، شاءت الأقدار أن يحترق البوم، ومن حسن الحظ أن البوم لم يكن بداخله ركاب، وعلى إثر هذا الحادث تم إلغاء الرحلة التي كان سيسافر بها المئات من أهالي الإمارات، وأرجعت جوازاتهم.

وفي آخر الستينيات اشترى النوخذة علي الميرزا مركباً من مالك كويتي، وهو من آل الصقر، بمبلغ 340 ألف درهم، واسمه الجهراء، وكان يقوم بنقل العبرية من الإمارات إلى الكويت والعكس، وعندما وصل المركب إلى الشارقة، وهو أول بوم يدخل خور الشارقة عام 1960، ورآه الشيخ خالد بن محمد القاسمي، حاكم الشارقة، أمر بتسمية المركب بـ«المنصورة». وقد امتلك النوخذة الميرزا عدداً من السفن والأبوام والمراكب أثناء عمله بحرفة السفر البحري، حتى بلغت 17 سفينة، ومن أسماء هذه السفن «فتح الرحمن» التي غرقت في خليج عدن أثناء رحلة من الساحل الصومالي إلى الشارقة، أما بوم الممتاز فقد احترق وهو طارح في «النقعة» وهي ميناء.

لقد عاش النوخذة الميرزا تاريخاً بحرياً حافلاً بالمغامرات والقصص والأحداث والكوارث، فالبحر كما يقول أهل البحر «الداخل فيه مفقود، والخارج منه مولود»، لذلك فقد تعرضت معظم سفنه لحوادث الغرق وغاب أثرها، ومنها ما احترق في عرض البحر، وحتى يكون للبحر ذكرى على أرض الواقع، فقد تم الاحتفاظ بإحدى تلك السفن، وهي بوم الممتاز، الذي أمر صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، بترميمه، وعرضه على شاطئ خورفكان، ليكون شاهداً على عصر مضى، وذكرى لتاريخ الشارقة البحري.

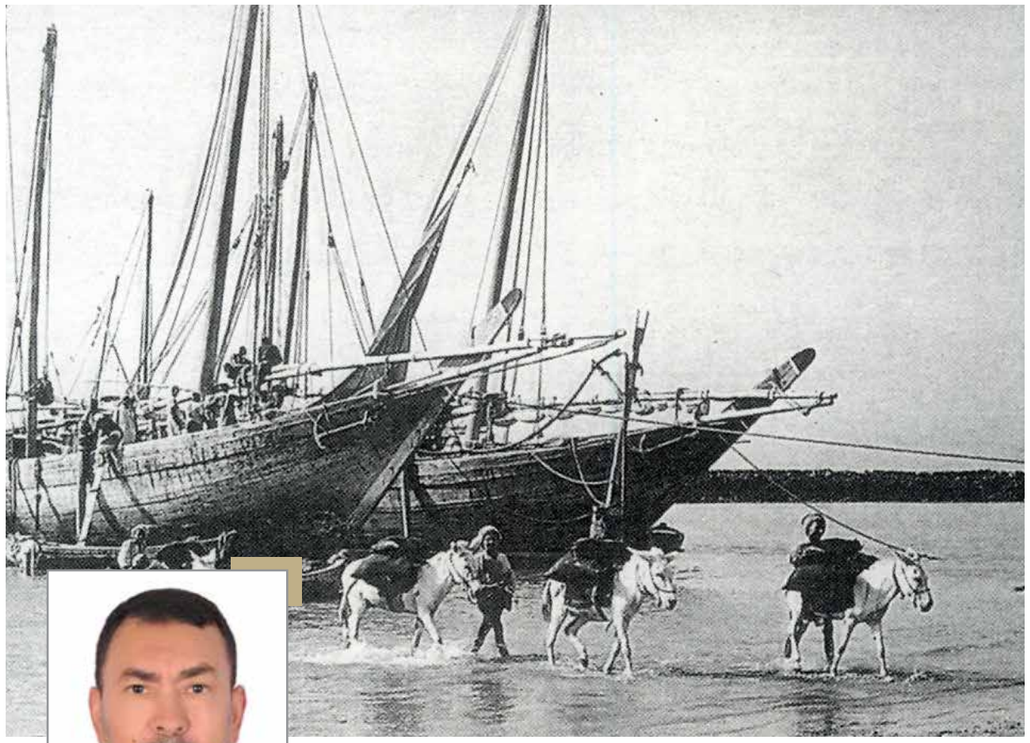

خالد عمر بن ققة
إعلامي - الجزائر

في قصته يطغى زمن الماء على اليابسة

« سنوات الجريش»..

مسلسل يروي تراث الخليج البحري

تشكل الأعمال الدرامية التاريخية والتراثية ـ التي تناولت قصصاً في البر والبحر أو في الاثنين معاً ـ تنشيطاً للذاكرة الجماعية، فهي تدفع المشاهد إلى استرجاع أحداث الماضي من حيث هي مؤثرة في الحاضر أوّلاً، وثانيا: تجعله متفاعلاً ـ إيجاباً أو سلباً ـ مع تلك الأحداث، كونها تروي قصص السّابقين، ضمن ظرف مكاني معتمد وزماني محدد، يلتقي فيهما مع كثيرٍ من البشر في مناطق مختلفة من العالم.

وثانِيها: حسن الآداء من طرف الممثلين، والمقصود بذلك تقمّص الأدوار، ولاشك أن هذا يقوم على حسن الاختيار، ذلك أن الأعمال التاريخيَّة تفرض على الممثل شخصية بعيدة عن زمانه، وهي حاملة لقيمٍ مختلفةٍ عن تلك التي يعيشها، أي أنه يُعيد تمثيل قصص الآخرين الغائبين لمعاصرين أحياء، وهنا تكمن صعوبة توصيل الرسالة المرجوة، ومع ذلك فإن كثيراً من الأعمال الدراميّة التراثيّة ـ في دولنا العربية ـ تفاعل معها المشاهد.

وثالثُها: تميّز الإخراج، وهذا يأتي من وعي المخرج بالتراث، والتفاعل معه والاقتراب منه، واعتباره دافعاً للتغيير، أو لأخْذ الدروس والعبر، ويظهر هذا في الرؤية الإخراجيّة للعمل، كما يظهر من اختيار الممثلين واسناد الأدوار لهم، الأمر الذي يؤدي إلى نجاح العمل أو فشله.

سنوات" المَسْغَبَة"

المقدمة السَّابقة ـ إن جاز اعتبارها كذلك ـ تشرّع لنا أبواب المتابعة، وتحول حديثنا السَّابق من خطاب عام وعابر إلى تفاعل مع أطروحات" معهد الشارقة للتراث" عبر رؤيته الاستراتيجيّة من جهة، وإلى الخروج من البحث والتَّنظير إلى استحضار التراث في حياتنا الراهنة، على نحو يجعله ـ بعيداً عن الأساطير والخرافات ـ حاضراً في حياة الإنسان المعاصر من خلال توظيف وسائل العصر وأدواته من جهة أخرى. هكذا إذن، نأتي مزودين بمعرفة سابقة ـ من خلال البحث والدراسة ـ عن قصص البشر في حياتهم الغارقة في الماضي البعيد التي تمتد إلى" قوم عاد" وما قبلهم، أو تلك التي ذكرتها كتب التاريخ، مثال ذلك من عَمَّرُوا" الأحقاف" ما شاء لهم الله، أو الذين هم عاشوا في سنوات حروب بقيت بعضا من أوزرها، وفي مسغبة جعلتهم يحتمون بالبحر لأجل الوجود والبقاء في عقود ليست بعيدة عنا، أقربها تلك التي عاشها أجدادنا وآباؤنا في الحرب العالمية الثانية خلال أربعينيات القرن الماضي(20)، وتحديدا هنا في منطقة الخليج العربي. ومن هذه الحقبة القريبة ـ مقارنة بعمر البشرية ـ يظهر المسلسل التاريخي ـ التراثي" سنوات الجريش".. وهو عمل فني خليجي ـ عربي قدم منذ شهور، وتحديداً في السباق الرمضاني لهذا العام(2022)، وتم بثّه من طرف عدد من القنوات الخليجية والمنصات في وقت واحد.

كما أن الأعمال الدراميّة التراثية، قد تُساعد على ظهور وعي مجتمعي أو قومي، تتحكم فيه الروابط الدموية، والانتماءات الدينية والوطنية، والأكثر من هذا تؤثر فيه وقائع الحاضر على ما فيها من تشابه مع أحداث الماضي، حيث الخوف المعلن أو المبطن من تكرار تجارب المعاناة في أزمنة الحروب، والأوبئة، والمجاعات، وتقلبات الطبيعة، وقد تأتي هذه كلها مجتمعة.

النَّص والآداء.. والمُخرج

غير أن ذلك كلّه يرتبط بثلاثة عوامل أساسيّة لنجاح الأعمال الدرامية عموما، وهي أساسية لا يقوم العمل الفني ـ أي عمل ـ إلا بها، ومنها أخرى، تخص الأعمال التراثية يمكن اختصارها في ثلاثة على النحو الآتي:

أوّلها: جودة النص، لجهة رواية قصص الماضين من خلال تحرٍّ تام للمصداقية في تناول الأحداث الماضية، وبصيغة ولغة تطرحان بعدا إنسانيّاً، يسحب المشاهد نحو عوالم الماضي، دون أن يفقد التوزان، او يحدث له نوعا من الضّبابية.

تاريخ خليجي مشترك

يتعلق بظرف عام واجهته البشرية ـ أو غالبيتها ـ خلال الحرب العالمية الثانية، تبدّلت فيه أحوال الناس، ووصل ذلك إلى منطقة الخليج، حيث تسببت الألغام في إيقاف الناس عن أعمالهم، وخاصة الصيد في البحر، ورغم ذلك تم الاحتماء به، الأمر الذي تطلب تضحيات جسيمة، وهذا سعيا لإنقاذ الأحياء في مجاعتهم من موت مؤكد، كان كل يوم يحصد الأرواح حصْداً.

هذا المسلسل يكشف عن التاريخ المشترك لدول الخليج العربية، ويعتبر موضوعه مرجعية يمكننا العودة إليها لفهم مواجهة سكان المنطقة لأزمات الكبرى المتعلقة بالوجود بين اليابسة والبحر، وقد ضمَّنْها مؤلفه" محمد النابلسي"، وكشفت عنها الرؤية الفنية للمخرج" مناف عبدال" وجسدها الآداء المميز لعدد من النجوم.

من ناحية أخرى، فإن مسلسل" سنوات الجريش" يطرح رواية مكتملة الفصول، تجمع عدداً من القصص، تدور في فضاء اليابسة، لكنها ستنتجد في رحلة عبور بحثاً عن الطعام بالبحر، على ما فيه من ألغام، وما يعكر صفو مياهه وينهي حياة عابرة من قصف للطيران في حرب ضروس بين دول المحور والحلفاء.

البحر.. والأمل

في المسلسل يبدو البحر شحيحاً في إعطاء ما فيه من رزق، حتى أن الأسماك لم تعد تظهر إلا قليلا، ومن يصل منها إلى الشاطئ ـ حيث الناس يتجمعون هناك بحثاً عن ما قد يسد رمقهم ـ يأتي قليلا، وفي الغالب ميِتاً، وتلك علاقة مع البحر لم يعدها السكان، حتى في الأوقات التي كان الصيد غير وفير، وتلك قصة جديدة في علاقة السكان بالبحر.

البحر هنا يشارك الأرض في جفاء ـ غير مقصود منه ـ ويعيد تشكيل قصته مع البشر.ز هي في بعض من جوانبها مُحْزِنة، إلا أنه يبقى مدخلاً لتصور جديد للحياة من حيث رحلات للبحث عن الطعام، بل ولإنقاذ الناس في عمل بطولي، لم يعد كما هو في السابق خاصا، ومن أجل مكاسب للصيادين، وإنما هو طريق للمصلحة العامة، بل ولإنقاذ الأهل والأقارب وأبناء العشيرة والديرة من الهلاك.

وفي الوقت الذي كانت تجود فيه الأرض الخليجية بقليل من التمر، وبما بقي لديها من" الجريش"، وهو الطعام المتوفر في تلك الفترة، معتمدة على ما يأتيها من أراض أخرى عبر البحر، معلنة الاقتراب من نهاية حتمية هي بمثابة القدر، وكاشفة عن اليأس لدى الناس، كان البحر ـ على قلة ما يعطيه، وما يصل عبره، حاملا للأمل، ودافعا لانتظار عودة الأحباب، حيث الأمهات، والحبيبات، والأقارب في الانتظار، وكاشفا عن منظومة قيم تخص العرب، زرعوها في شعوب أخرى، حين سافروا لأجل انقاذ أهاليهم، فانقذوا الأخرين من الصراع فيما بينهم، ومن حروب أهلية كادت تقضي عليهم جميعهم.

القصة.. والدرس

لقد ذكَّرنا المسلسل ـ عبر قصص البحر ـ بحياة عرب الخليج خلال الحرب العالمية الثَّانية ضمن سياق عالمي، فصرْنا متخوفين من الأوبئة مثل كورونا، ومن أي حرب تقع في العالم، مثل التي هي اليوم بين روسيا وأوكرانيا، طال أمدها أم قصر ـ وما قد يترتب عنها من نقص في الغذاء قد يؤدي إلى المجاعة، وبعدها إلى الهلاك، مما يعني معرفتنا لأصل القصة، وللدروس منها

من ناحية أخرى، اكتشفنا مدى اللحمة القائمة بين سكان المنطقة، وقد كانت واضحة من خلال الآداء المميز لنجوم من دول الخليج أمثال" حياة الفهد" و"حسن لبلام" من الكويت، و"علي السبع" و" ليلى السمان" من السعودية، و"حبيب غلوم" و"إبراهيم القحامي" من الإمارات، و"خالد المعنى" من عمان، وغيرهم من الممثلين.

كما كان للعرب الآخرين دورٌ في إطار الصراع من ذلك التاريخ الإنساني المشترك، حين امتدَّ تأثير الحرب العالمية إلى العرب الآخرين في ديارهم وخارجها، على النحو الذي جسدته الإعلامية والفنانة اللبنانية" استيفاني صليبا"، والمغنية والممثلة المغربية" رجاء بلمير"، إضافة إلى الشراكة مع العالم من خلال أحداث المسلسل، وعبر أداء الممثلين الأجانب، وبوجه خاص الممثل وفنان الصوت البريطاني" جريجوري جوتليب".

سباحة في بحر الحكاية

محمد عبدالله عبدالرحمن
كاتب - الإمارات

(كيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا -طه33)، هكذا صورالحق سبحانه وتعالى جوهر رسالة سيدنا موسى عليه السلام في تلك الليلة العظيمة التي بعثه فيها رسولا هو وأخوه هارون عليه السلام إلى فرعون مصر الطاغية، لتبدأ حياته بداية جديدة وتبدأ معها تلك القصة التي استوجبت الخلود عبر آلاف السنين.

وحين (يحكي) الإنسان قصةً فإنه (يحاكي) - بلغته المحدودة بطبيعتها- ما وقر في قلبه مما حصل في عوالمه، سماعا كان، أو تخيلا، أو شهودا حقيقيا ومعايشة لما حدث، بقصد مضمر جامع لكل ما يروى ويبدع من قصص عبر مسيرة الإنسانية باختلاف الظروف والأحوال والأزمنة والأمكنة، وهل يمكن أن تختزل الحياة بكل أشكالها وتشكلاتها إلا في القص والحكاية؟؟

فلماذا نصنع القصص، وماهو ذلك الغرض المضمر الداعي لصناعة القصة وعيشها وروايتها، وكيف صارت القصة مدارا وجوديا ومحورا فطريا تدور حولها الحياة وتدور حول الحياة في تمظهرها الإنساني؟؟ يقول المصورالبديع جل شأنه «لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» – التين 4"، ويقول الباحث في الفلسفة الشرقية ألان واتس "إن الحالة الأصلية للإنسان هي حالة الدهشة والانبهار الدائم"،إذن الإنسان، من حيث (لطيفته) الإنسانية المسماة روحا، هو منذ ولادته في دهشة دائمة لعظمة ما يرى، وهو عبر مسيرة حياته وقصته الفردية من لحظة وصوله لهذا العالم إلى لحظة انتقاله في بحث عما يؤجج تلك الدهشة ويثير ذلك التعجب ويتسامى به ويوسع آفاقه.

التعليم كيفما كان وتعلم المهارات والعمل بها والبحث عن شريك الحياة والسفروالترحال بأشكاله كافة، والطموح الإنساني اللامتناهي الأشكال والمراتب، بل كل مقاصد الإنسان في هذا الوجود، بعكس باقي المخلوقات على وجه الارض، تدورحول تنويع وتوسيع المدارك لإثراء الحصيلة المساعدة على تمكيننا من عيش لحظات أكثر دهشة، والوصول والتواصل مع قصص أكثر إثارة، بل وصناعة قصة أطول بقاء وأبرز بصمة في سياق القصة الإنسانية الخالدة.

يولد الإنسان وفي غياهب باطنه إدراك فطري أن هناك شعورا أعلى للدهشة يمكن الوصول إليه في كل لمحة، فلا عجب إذن من أن الإنسان القديم حيثما كان وحل قد استنتج وجود عالم مثالي، ودارٍ آخرة ذات لذات متسامية، وحالة روحية أكثر انطلاقا وأقدرعلى (السباحة) في أفلاك أوسع من الدهشة والانبهار المتعاليين. وكذلك فإن الإنسان قد استقى دهشته من عناصر بيئته المحيطة، واسترعى انتباهه ما على هذه الأرض من مخلوقات وتكوينات طبيعية متعددة المظاهر، وما في السماء من شمس وقمر وكواكب ونجوم توحي بالعظمة اللامتناهية، وتمنى لو كانت لديه الوسائل لاختراق واستغلال تلك المظاهر ليس لاستمرارية الحياة أو التكاثرأو السيطرة أو الوصول إلى أهداف مادية فحسب، بل وبشكل أكثر أهمية فقد أراد صناعة حكاية أكثر إمتاعا ودهشة، فما كان لجنسنا البشري الارتقاء لولا القصة، ولم نكن لنعرف أو نكتشف أو نغامر لولا تلك الدوافع القصصية الموصلة بيننا وبين عوالم متجددة من الدهشة والانبهار، تلك الغريزة الأساسية الفارقة الصانعة لماهية إنسانيتنا.

وإن تساءلنا عن القوة المحركة والممكنة والصانع الأعظم للقصص مما جبلنا الله عليه ، فإننا نجد لدى الإنسان قوة تميز بها عن أنواع المخلوقات كافة، ألا وهي الخيال. والخيال هو تلك المقدرة العجيبة لدى الانسان على تجميع ما يدركه من صور ومعلومات

وربطها ببعضها لصناعة صور جديدة ورسم وبناء السيناريوهات المتسلسلة الأحداث ومن ثم ربطها وصنع مزيج جديد يشكل قصة ذاتية ومن ثم، وإن تضافر الخيال مع الرغبة والقرار والشغف، أنتج أفعالا أو أقوالا ظاهرة على صفحة كتاب الوجود صانعة حكاية جديدة.

وللتمثيل فإن هذا المقال تولد في خيال الكاتب كقصة تفاعلية شأنه في ذلك شأن كل كتاب ومنتج ومشروع ومبنى وأسرة ودولة، بل كل ما كان ويكون من صنع البشر هو نتاج الخيال وتمكين هذا الخيال، وقد قيل : "إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جُعل اللسان على الفؤاد دليلا"

وإذا تسنى لنا أن نُعمل مخيلتنا في تخيل ومن ثم تصورما هية وماعليه قوة الخيال تلك التي وهبت للإنسان من حيث الحركة والقدرة التشكيلية والملكات الإدراكية، فسنجدها أشبه ما يكون بنقطة سابحة في بحر من الفراغ، فالسباحة ومقتضياتها من حرية تحرك بغير حدود، وانغماس في الفكرى أوالخطرة أو المعلومة أو السيناريو بما يشبه الغوص في أعماق البحر، وانطلاق إلى ما يلامس الواقع بما يشبه الخروج إلى سطح الماء، وتفاوت في السرعة والتحكم بين إعمال للقوة العاقلة في ما يتم تخيله أو الاستسلام المسترخي وترك القيادة للخيال، منطلقين معه بغير رقيب، تلك التصويرات المختلفة الثماروالامتناهية الاحتمالات والحكايات والتي نحاول الاقتراب بها من مضاهاة حركة خيالنا عبر اللغة المحكية، فمعطيات الوجود بحر لا نهاية له، والخيال سفينتنا البشرية التي نوجهها أو توجهنا نحو ما يمثل قصتنا البشرية.

ولأن (المِخيال) الإنساني شخصي بطبيعته وإن تأثر بما عليه الوعي الجمعي في المجتمع المحيط وبالتلقي المستمر بالحواس وما استقر عليه العقل الفردي والجمعي من أحكام، فقد كان الإنسان، عبر تاريخه، بارعا في اصطناع وسائل الوصول والتأثير على ذلك المخيال الشخصي الممثل للعنصر الفاعل في نواة كل إنسان. فقد كانت الحكايات والأساطير رفيقة للمسيرة الإنسانية منذ ما قبل التدوين. ولا أدل على محورية الحكاية والقصة من (أسطورة جلجامش) السومرية التي كانت من أوائل ما وصلتنا من كتابات بشرية، وهي بطبيعتها قصة تمثل أيضا سعي الإنسان للوصول إلى الخلود، أي الدهشة الكبرى الدائمة.

وفي مجتمع الإمارات الذي عاش على سواحل وصحاري وبين جبال هذه الأرض الطيبة، لم يختلف الحال عن غيره من المجتمعات الإنسانية، إذ شكلت الحكايات والقصص، خيالية كانت أو واقعية، نبعا يستقي منه المخيال الفردي ما يحتاج إليه من ماء وغذاء ليكوّن بحره الخاص ويرسم قصته الفريدة. وكما قلنا فإن القصة في مجملها هي قنطرة لتوسيع ذلك البحر المتمثل في خيال الإنسان ولإثراء إدراكه لمعطيات وجوده المختلفة، فبرغم حياة الكد والشقاء وانحصار أفق أغلب سكان المنطقة في بحرهم ذي الخيرات وصحرائهم التي رعوا فيها حيواناتهم وزرعوا فيها نخيلهم وتلك الجبال الشُّم التي احتضنت ما أمكنهم زراعته في ظروف مناخية قاسية لم تسعفهم بإدراك جمالي قد كان لدى غيرهم من الشعوب مشهدا يوميا، نجد أن القصة كانت الجسر الذي عبرت من خلاله صور وأمكنه، ومعالم وكائنات، ومفاهيم وعبر، وأنماط حياة وسير مما عيش ويعاش، من المجهول غير القابل للإدراك الحسي، لتنتقل إلى المعلوم المتصورالقابل للإدراك التخيلي والعقلي لدى أبناء أجيال عاشت على هذه الأرض. عبر القصص تصور أطفال الإمارات الجبال الخضراء والأنهار الجارية، وتذوقوا الفواكه المختلفة، وعاشوا البطولات والمعارك، وتقربوا من بلاطات الملوك وتعرفوا على قصص الحب والتضحية، وارتعدوا خوفا من تصورما عليه عالم الجن، وما يمكن أن يحدثه السحرّة من تأثيرات وعجائب، وتحرقوا شوقا للكنوز، ورأوا بعين البصيرة مستعينين بالوصف بلدانا لم يكونوا بالغيها إلا بشق الأنفس. وعبر ما أخذوه منها خططوا بعقو لهم وفعلوا بأيديهم ما يمكنهم عمله للوصول إلى عوالم أوسع، ومستقبل أكثر ازدهارا، لتكون قصة الإمارات، كما هي اليوم، تلك القصة الجامعة لما في العالم من جمال، الساعية دوما إلى كل كمال، المعتمدة على خيال حر لا يعرف القيود.

عتيق القبيسي
شاعر وباحث تراثي - الإمارات

الأمثال البحرية في التراث الإماراتي البيئة البحرية نموذجاً

كانت علاقة أهلنا الأولين مع البحر علاقة متعددة الوجوه والأشكال، فالبحر بالنسبة إليهم كان مصدر رزق، سواء من خلال صيد الأسماك لبيعها أو لاستخدامها الشخصي للأكل أو الإهداء، كذلك الغوص على اللؤلؤ الذي كان من أهم مصادر الدخل القومي، وأقوى الركائز الداعمة للاقتصاد في زمان ما قبل النفط، ثم كانت هناك الرحلات التجارية التي ربطتهم بمناطق آسيا وإفريقيا التي شهدت تبادلاً تجارياً على مستوىً عالٍ في ذاك الزمان، ولهذا السبب نجد الكثير من الأمثال المتعلقة بالبحر في موروثنا الأدبي، منها المثل الذي يقول:

(من بغى العالي، يصبر على الرّاش)

العالي هو المكان في مقدمة السفينة، والرّاش هو رذاذ الماء الذي يتطاير حين تسير السفينة، فإذا أردت المكان المميّز الذي يبرز حضورك، فلابد أن تستحمل التبعات التي سوف تأتيك من ورائه، فالشخص الذي يخاف النقد والتجريح والمراقبة والمساءلة، فمن الأفضل له أن يبتعد عن الأضواء وأن ينزوي؛ لأن الذي يريد المكانة المميزّة والمنصب المرموق، يجب أن يتحمّل كل الانتقادات التي تأتيه، ويستقبلها بصدر رحب.
مثل آخر من أمثال البحر، يقول:

(الشيص في الغبّة حلو)

والغبة معروفة، وهي البحر العميق، عرض البحر كما نقول، والشيص من الرطب الذي يكون مر الطعم في أوله، (وكلمة شيص فصيحة، وتعني التمر الذي لم يتم نضجه، وشيصت النخلة يعني فسدت وحملت تمراً رديئاً)، ولكن هذا الشيص في غبّة البحر له قيمة عالية وطعم لذيذ؛ لأن البحارة يكونون في حالة حرمان من رفاهية الطعام الجيّد أو الطازج في رحلاتهم الطويلة، ويقال هذا المثل حين تحدّك الحاجة على شيء مر وتستحمله مرغماً؛ لأنه لا بديل إلاّ أن تقبله.
كذلك المثل الذي يقول:

(اللي ما له صدر، ما له تفر)

الصدر والتفر هما مقدّمة السفينة ومؤخّرتها، وهذا المثل يقال لربط البدايات بالنهايات، فالشخص الذي يعمل عملاً وعنده من الخبرات والتجارب التي تعينه على الإنجاز بالشكل المطلوب، فبالتأكيد ستكون نهاية عمله مضمونة النّجاح، لكن الذي يعمل بلا خبرة ولا علم، فالأكيد أنه لن ينتج عملاً ناجحاً، فالنهايات تحدّدها البدايات كما يقولون.
ومن أمثال الغوص، هناك مثل يقول:

(قيس قبل ما تغيص)

وهذا المثل يقال لضرورة حساب الخطوة قبل أن تخطوها، وأنّك تحسب الأمور وتزنها قبل أن تقدم عليها، ولو أن صيغة المثل عن البحر والغوص، لكنّه يقال للتحذير من التسرّع والاندفاع من دون أخذ الاحتياطات اللازمة في كل الأمور.
وقالوا للتأكيد على ضرورة أخذ الحيطة والحذر:

(اللي ما يقيس قبل لا يغوص ما ينفعه الغوص عقب الغرق)

يعني الذي لا يحسب حالة البحر وعمقه، والوقت الذي سيستغرقه في الغوص، ويستعد له الاستعداد المناسب، فهو إن غاص ووصل إلى القاع، والتهى بجمع المحّار، فقد يدهمه الوقت ولا يكفيه للصعود، ساعتها لن يفيده الغوص، ولن ينفعه المحّار، ولو كانت فيه نفائس اللآلئ، وسيكون قد رمى نفسه في التهلكة من دون علم ولا إدراك.
وعن رداءة الصنعة والغش التجاري، كما نقول في زماننا هذا، قالوا:

(لا يغرّك حمر حيابه، ترا ليحانه شريش)

وهذا المثل يقال في صناعة السفن، التي تسمّى قلافة، والحياب هو بدن المحمل، فيقول لك لا تغتر بلون بدن المحمل الأحمر، ما هذا إلّا صبغ، فليحانه، تعني الألواح المصنوع منها شريش، والشريش أخشاب من النوع الرّديء ورخيصة، ولا تصلح لصنع المحامل، وهذا المثل يقال للأشياء التي تراها في ظاهرها جميلة وجيّدة، لكنّها في الأصل صناعة رديئة لا تدوم، وينتهي مفعولها أو صلاحيتها بسرعة.
وأحياناً نحتاج إلى أن نغيّر أسلوبنا في التعامل مع المواقف حسبما تستحق، فكل موقف يحتاج إلى أسلوب معيّن للتعامل معه، وفي هذا قال أهل البحر:

(كل هوا وله شراع)

ونواخذة البحر كانوا يعرفون نوع الريح التي ستصادفهم، ويستخدمون الشراع الذي يتناسب مع هذه الريح أو تلك، فالغربي غير عن الشمال، والسايبة غير عن العاصفة، وهكذا كل ريح من هذه الرياح لها نوع معيّن من الأشرعة يتناسب معها، وهذا كالقول المأثور عند العرب، (لكل مقامٍ مقال)، ويقال هذا المثل للتأكيد على أن كل موقف تتعرض له في حياتك يتطلّب

منك أسلوباً مناسباً لتتعامل معه، والتغلّب عليه، فلا الشدّة وقت اللين تنفع، ولا اللين ينفع وقت الشدّة، كل شيء وله ما يناسبه، مثلما (كل هوا وله شراع).

ومن الأمثال التي تذم الذي يتدخّل في أمور ليس له فيها علم ولا دراية، ويظهر نفسه فيها (أبو العرّيف)، كما يقولون، وهو ما عنده حتى أبجديات المعرفة في هذا الأمر، قالوا:

(البحر له ناس لفّيحهْ
يعرفون التوح مِ اليرّهْ
هب كل من تاح سرّيحهْ
قال هذا خيط با يرّه)

يعني صيد البحر له أناس عندهم الخبرة في التعامل معه، واللفيحة هم الذين يصيدون بطريقة اللفاح أو اللفح، وهي طريقة تحتاج إلى خبرة ودراية في رمي الشباك أو خيوط الصيد في عمق البحر، يعرفون متى (يتوحون)، تعني يرمون، ومتى يجرّون، حسب التوقيت المناسب، لكن الغشيم الذي يرمي خيط قماش ضعيفاً لا يصلح للصيد يسمّى سرّيحة، يظن نفسه يرمي خيط صيد، وحين يسحبه يجده خالياً ليس فيه غير (الفَلَس)؛ أي أنّه مفلس من الصيد، أو قد ينقطع ولا يعود له منه شيء، ويقال هذا المثل إذا تباهى أحدهم بأنّه فاهم في شيء، و(يدق صدره) كناية عن التصدّر لتقديم خبرته، ويتوهم ويوهم الناس بأنه يستطيع إنجازه، ويتضح للنّاس أنّه غشيم ويتصنّع، فيقولون له (البحر له ناس لفّيحة) يعني ابقَ بعيداً ولا تفتِ فيما ليس لك به علم؛ لأن هناك من هم أصحاب العلم والخبرة في هذا المجال، وهم الأولى به.

وفي وصف مصاعب العيش وتعثرات الحياة، عندهم مثل يقول:

(لي عاد الهوا في الصّدر، كيف بتعلّي)

والصدر المقصود به مقدمة المحمل أو السفينة، فإذا كانت الريح تضرب المقدّمة فكيف ستعلّي، يعني كيف يسير المركب براحة، هذا لأن الريح إذا كانت في

عكس اتجاه سير السفينة فبالتأكيد تقدمها سيكون ثقيلاً وبطيئاً، وهذا المثل يضرب فيمن تمنعه مشكلات الحياة وعثراتها من التقدم والنجاح؛ لأنّه كلّما حاول التقدّم وجد الريح، وهي مشكلات الحياة، أقوى منه، وكلّما مشى خطوة تردّه خطوتان، وكثير منّا هذه الأيّام عندهم هذه المعاناة، كفانا الله وإياكم شرّها وسطوتها.

وفي التحذير من دخول البحر وقت الشمال في الصيف، قالوا:

(خِب الصيف شرا السيف)

والخِب هو ارتفاع موج البحر حين تهب ريح الشمال في الصيف، وعادةً تكون الأمواج عالية وخطرة، خصوصاً في الغبّة؛ أي العمق الداخلي للبحر، وكلمة خِب كلمة فصيحة من صميم اللغة العربيّة، (خَبَّ البحرُ؛ أي اضطرب وهاجَت أمواجه).

وشبّهوا دخول البحر وقت الشمال مثل الذي يضع رقبته تحت حد السيف، كأنّه انتحار يعني.

لكن هناك أناس يستخفّون بالحياة، ويتحدّون المصاعب والعثرات، أو لنقل يعاندون ويمشون على المثل الذي يقول:

(إن شفتها طبعانةْ، هوّس عَ تريچها)

إن شفتها؛ قصدهم السفينة إن وجدتها، طبعانة؛ تعني تغرق، والتريچ هو الحافّة الجانبيّة للسفينة، فإذا رأيت السفينة تغرق، (هوّس) تعني اضغط على جنبها وغرّقها أكثر؛ لأنّها أصلاً لا أمل في نجاتها، غرقانة غرقانة، كما يقولون، وهذا المثل يستخدمه الذي آيس ويئس من كل الحلول، وأيقن أن الحال ذاهبة للأسوأ، فيقول بما أن المشكلة ما لها حل، فلن يضر لو زدتها تعقيداً، مثل بيت الشعر الذي قاله المتنبي:

(وَالهَجْرُ أَقْتَلُ لي مِمّا أُراقِبُهُ
أَنَا الغَريقُ فَما خَوْفي منَ البَلَلِ)

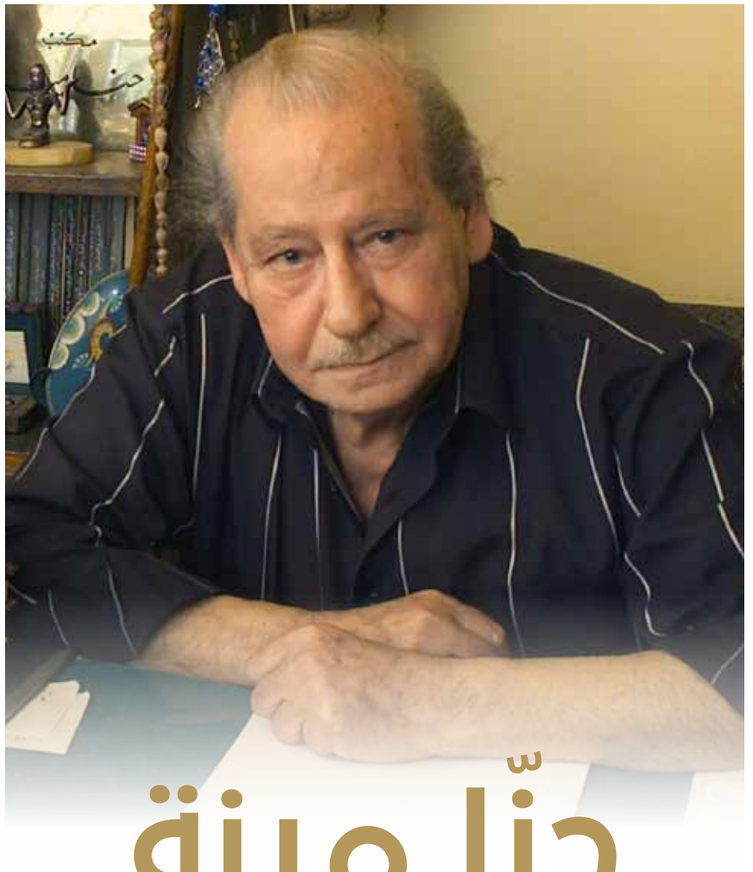

حنّا مينة

روائي البحر

يعد الروائي السوري الراحل «حنّا مينة» واحداً من الكُتاب الأكثر شهرة في العالم العربي إلى جانب نجيب محفوظ، وعبد الرحمن منيف، والطيب صالح، وغيرهم من أساطين الرواية العربية.

وتعود شهرته الأدبية إلى أسباب ومعطيات كثيرة أبرزها ثيماته الواقعية، وأسلوبه السردي السلس، وشخصياته المألوفة التي تُشعر القارئ بأنه يعرفها لأنها منبثقة من بيئته الاجتماعية التي يعيش فيها. وعلى الرغم من أن الراحل «حنّا مينة» لم ينل حظاً واسعاً من التعليم، فإن حياته الفقيرة قد أمدّته بخبرات كثيرة فقد عمل حلاقاً، وحمّالاً، وبحّاراً، وكاتب عرائض قبل أن يصبح صحفياً ماهراً ليلج من خلال الصحافة إلى سردياته القصصية والروائية، ويختص تحديداً في الكتابة عن البحر، ولعل هذا التخصص هو الذي مهّد له الطريق إلى الشهرة المُشار إليها سلفاً. وجسّد «مينه» في رواياته التي استلهمت من عالم البحار، فكرة الكفاح لتحقيق العدالة الاجتماعية، عبر شخوص بالوضعيات الاجتماعية المختلفة، فعبّر عن ألمه الخاص، من خلال «الألم العام» الذي يتنقل في غالبية أعماله الروائية، تعبيرا منه عن قيمة الصراع الاجتماعي في خلق نماذج إنسانية تنال نصيبها من العدالة، بعد كفاح طويل ومعقد ومتعدد الجوانب. ولذلك طالب كثيراً بأن يكون الأدب «من لحم ودم» من خلال شخوص «يعيشون بيننا» حسب تصريحات حوارية متعددة أدلى بها في أوقات سابقة، مكرسا مفهوماً جديداً يعنى بثقافة التصالح والتقريب بين الأمم، لتناوله بالدرجة الأولى حياة البحارة وصيد الحيتان ومغامرات القراصنة ورحلات المكتشفين والتّجار، وكل هؤلاء كانوا من المغامرين ورسل اليابسة إلى الماء، ومن الطبيعي أنهم كانوا في رحلاتهم المريرة، قد أسهموا بتعريف الأمم بعضها ببعض، بل وفي تقريب وجهات النظر فيما بينهم، بجانب التمازج الثقافي والحضاري والإنساني، ولهذا رصد «مينا» حسب قوله في أدبه «البحار الإنسان» المغامر الذي يخوض معركة فروسية مع البحر، وصلة هذا البحر بالموانئ وما فيها من طيبة ووحشية وورومنطيقية وواقعية، وهذا كلّه تم تلخيصه في قول «الطروسي» بطل رواية «الشراع والعاصفة» الذي أوجز تجربته في هذه العبارة: «الحياة كفاح في البحر والبرّ».

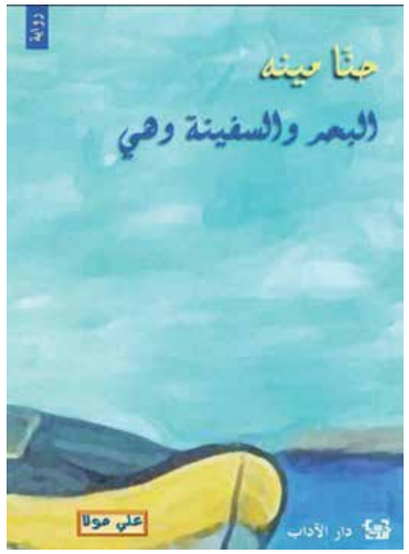

من أشهر روايات الأديب الراحل، رواية (المصابيح الزرق) التي صدرت عام 1954، ورواية (الياطر) عام 1975، ورواية (الشراع والعاصفة) عام 1966، و(حكاية بحار) عام 1981.

وصدر له قرابة خمسين كتاباً جلّها في الأدب الروائي وبعضها بالاشتراك أو خصص لمقالاته ودراساته. منها رواية (الأرقش والغجرية) و(البحر والسفينة) و(عروس الموجة السوداء) و(نهاية رجل شجاع) التي أنتجت مسلسلاً حصد شهرة كبيرة في تسعينات القرن الماضي. ورواية (المرفأ البعيد) و(المرصد) و(بقايا صور) و(الشمس في يوم غائم).

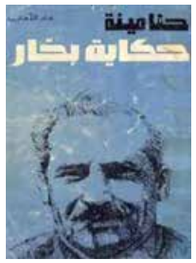

البحـــر

ملهم الفنانين عبر العصور

عبدالعظيم محمد الضامن
فنان تشكيلي - السعودية

يقـول البحـر أشـياء ولا يـشرح معناهـا
ويتركنـي طـوال الليـل مشـغولاً بمغزاها

يقـول البحـر إن الـدر في الأصـداف كالرمـل
ومـا سـاواهُ في الأثمـان لولا قلـة العقل

وإنَ السطح قـد يخفـى علـى مـن يرقب السطحا
وإن القـاع قـد يبـدو لمـن طالعـه لمحـا

وإن الريـح بنـت الصحـو لـولاه لمـا وجـدت
وإن الصحـو عاصفـة قبيـل أوانهـا وئـدت

وإن التيـه في الآفـاق... والأعـماق... مينـاء
وإن موانـئ الإنسـان أوهـام.. وأهـواء

وإن الملـح قـد يرويـك إن جـاء مـن الحـب
ولا ترويـك مـن كـف العـدو حـلاوة العذب

يقـول البحـر أعطانـا بـلا منٍّ عطايـاه
أخذناهـا.. ولكنـا بـلا ذنـب ذبحنـاه

يقـول البحـر أشـياء ولا يـشرح معناهـا
ويتركنـي طـوال الليـل مشـغولاً بمغزاها

الدكتور: غازي القصيبي

علاقة البحر بالفنانين التشكيليين

ارتبـط الفنانـون بعلاقـة وطيـدة بالبحـر، فـكان ملاذهـم الآمـن، ومصـدر إلهامهـم عـبر العصـور.

في جزيـرة تـاروت الحالمـة عـلى ضفـاف الخليـج العـربي شرق المملكـة العربيـة السـعودية، ثالـث أكـبر جزيـرة عـلى الخليـج العـربي، والممتـدة إلى حضـارة الفينيقيـين منـذ قرابـة سـبعة آلاف سـنة، حيـث كانـت تسـمى تـارو حـين ذاك، وبعـد تشـييد معبـد للآلهـة عشـتار في جزيـرة تـاروت، تحـول المسـمى إلى عـش تـروت وتـاروت، وبقـي الاسـم حتـى يومنـا هـذا.

وفي بلـدة سـنابس، إحـدى بلـدات جزيـرة تـاروت، المطلـة عـلى امتـداد البحـر مـن دارين جنوبـاً حتـى الـزور شـمالاً، وتقابلهـا رأس تنـورة مـن الـشرق، يلتقـي البحـارة في مجالـس النواخـذة، يتسـامرون ويسـتعدون لرحلـة الصيـد، ولـكل واحـد منهـم وظيفـة عـلى ظهـر السـفينة، لا تقـل أهميـة عـن الآخـر.

وهنـا في جزيـرة تـاروت، يسـتلهم الفنانـون أعمالهـم الفنيـة مـن جـمال البحـر، وقصـص البحـارة، كـما يسـتلهم الشـعراء والكتـاب في مختلـف بقـاع الأرض، في مرحلـة مـن العمـر كانـت تذهـب مجموعـة مـن المواهـب الفنيـة للشـاطئ، يحملـون معهـم كراسـاتهم وألوانهـم بقيـادة أحـد الفنانـين؛ ليعـبروا عـن محبتهـم للبحـر، يحملـون معهـم قليـلاً مـن المأكـولات والألـوان، يقضـون الوقـت الطويـل قبالـة البحـر، يتعلمـون كيـف رسـم الطبيعـة بحـب، يلامسـون البحـر، ويلعبـون في البحـر، ويرسـمون البحـر، واسـتمر ذلـك مـع أحـد الموهوبـين، وأصبـح يرسـم كل يـوم وكأنـه عـلى موعـد مـع الحـب.

كـبر وكـبرت معـه أحلامـه وحبـه للبحـر، فـراح يبحـث عـن تلـك النوافـذ التـي يطـل منهـا إلى عـوالم أخـرى للعـالم، وبـدأ يخاطـب تلـك السـفن وكأنهـا أرواح، حتـى أيقـن أن تلـك الأجـزاء المرصوصـة مـن الخشـب هـي تلـك الأضـلاع التـي تحمـل أجسـامنا، وبـدأ يخاطبهـا وتخاطبـه بحـب، وبـدأت العلاقـة بينهـما تـزداد حتـى التيـه في الآفـاق، رسـم سـفينته الأولى محمولـة عـلى كتـف رجـل يرتـدي الإزار للدلالـة عـلى لبـس البحـار، ويحمـل فـوق السـفينة بقايـا البيـت العـود لعائلتـه التـي كانـت تسـكن جميعهـا في منـزل واحـد بالقـرب مـن البحـر، وأخـرى رسـمها عـلى

شـكل امـرأة تسـتلقي عـلى ضفـاف البحـر، جسـدها سـفينة أرهقهـا الدهـر، ومقدمتهـا رأس امـرأة تنـثر شـعرها عـلى رمـال البحـر، وأخـرى سـفينة أنهكتهـا الحيـاة مـن رحلـة طويلـة في أعـماق البحـار، تصـول وتجـوب ذهابـاً وإيابـاً، لكنهـا مقاومـة للعيـش، فحملـت بأضلعهـا دار (مجلـس النوخـذة) كدلالـة لأهميـة المسـكن عنـد البحـارة، واسـتمرت تلـك القصـص بـين الفنـان الشـاب والبحـر الـذي أراد أن ينقـل عـالم البحـر بلغـة لونيـة رمزيـة بـين الخيـال والواقعيـة، حتـى وصـل بـه الحـال لتجريدهـا وجعلهـا قيمـة لونيـة يقرؤهـا المتلقـي بثقافتـه البصريـة.

في العـام 1413 هـ، وفي قاعـة قـصر طويـق بحـي السـفارات بالريـاض في المملكـة العربيـة السـعودية، كان معرضـه الأول بعنـوان «مـاذا يقـول البحـر؟»، وكأنـه يريـد أن يثـير الدهشـة للمتلقـي، ويوصـل رسـالة للعـالم عـن البحـر وعـوالم البحـر، ومنهـا بـدأت رحلتـه إلى جـدة والبحريـن والشـارقة وسـلطنة عـمان والكويـت وقطـر وتونـس والجزائـر والأردن ولبنـان والصـين وغيرهـا مـن عواصـم العـالم، يسـافر بالبحـر الـذي ألهمـه تلـك القصـص، وجسـدها في لوحاتـه الفنيـة.

رسم البحر:

جـاء رسـم البحـر في معظـم دول العـالم تدريجيـاً بعـد رسـم الطبيعـة الصامتـة والبروتريـه، حيـث كانـت جميـع المـدارس الأكاديميـة في أوروبـا عـادة مـا تبـدأ هكـذا، ومنهـا يتطـور الفـن إلى الخـروج مـن المرسـم لرسـم الطبيعـة مـن الواقـع، وحينـما اشـتدت الحـروب كان لزامـاً عـلى الفنـان مواكبـة تلـك الأحـداث ليوثقهـا بالرسـم، وخاصـة تلـك الحـروب البحريـة التـي سـادت في حقبـة مـن الزمـن، وكان الفنـان أحـد أبطـال تلـك الحقبـة الزمنيـة لتوثيقـه العديـد مـن أنـواع السـفن الحربيـة والجنـود بلباسـهم وأسـلحتهم.

كان كثـير مـن الفنانـين يدربـون أنفسـهم عـلى التأمـل بالاسـترخاء، والبحـر كان أجمـل مـكان يغـذي الـروح عـلى التأمـل والاسـترخاء والهـدوء الـذي يمنـح الفنـان القـدرة عـلى التيـه في المتخيـل، وبالتـالي يكـون مصـدر إلهـام لنضـج أفـكاره للإبـداع الفنـي، ومـن هنـا تبـدأ ولادة اللوحـة

مـن البيـاض حتـى اكتـمال الفكـرة بالألـوان، فـكان بعـض الفنانـين يرسـم البحـر لجمالـه، وآخـرون يرسـمون قصـص البحـر التـي دارت في أزمنـة مختلفـة، والتـي رويـت مـن قبـل الـرواة الذيـن عاشـوا تلـك الفـترة مـن الزمـن، وهنـا يـأتي دور المبـدع ليسـتلهم تلـك القصـص ويترجمهـا ويختزلهـا في عملـه الفنـي، والبعـض يذهـب بعيداً ليرسـم البحـر برومانسـية الحبيـب، كـما الشـاعر يتغـزل في البحـر، هـو ذلـك الفنـان يفتـن ويتغـزل في البحـر بأجمـل الألـوان.

في إيطاليـا تبنّـى عـدد مـن الفنانـين العالميـين رسـم البحـر، وأبرزهـم الفنـان ليوناردو دافنـشي الـذي اهتـم بشـكل كبـير في تكويـن ميـاه البحـر، وصخـب الأمـواج والمـد والجـذر، باعتبارهـا ظاهـرة طبيعيـة، وفضـل فنانـو البندقيـة رسـم الأفـق البحـري، وازدانـت قاعـات المعـارض والمتاحـف بلوحـات البحـر مـن مختلـف بلـدان العـالم.

وفي نهايـة القـرن التاسـع عـشر، وبدايـة القـرن العشريـن، أسـهمت الانطباعيـة والوحشـية في تطـور رسـم البحـر، وربمـا أضيفـت لهـذا النـوع مـن الفـن نهضـة اسـتثنائية، فقـد أعطـى بعـض الفنانـين الفـن بعـداً آخـر، مثـل الفنـان كلـود مـوني؛ لأنهـم أرادوا إعـادة إنتـاج الضـوء الطبيعـي للمشـهد التشـكيلي بأمانـة؛ لأن الضـوء الداخـلي لا يعطـي الرؤيـة الصحيحـة للمشـهد، كـما الطبيعـة ولـون الشـمس، لقـد حاولـوا تثبيـت الطبيعـة بوسـاطة التصويـر المحـض، وفـق نسـق يتبـع آثـار الضـوء وحـالات التغـير في الطبيعـة، وهـذا مـا سـعى لـه الفنـان الهولنـدي فينسـت فـان جـوخ، في نظريـة انعـكاس ضـوء الشـمس عـلى الطبيعـة، ومـا جعلـه يرسـم معظـم لوحاتـه في الطبيعـة، ولعـل لوحاتـه التـي رسـمها في النهـر والقـوارب تعـد مـن أجمـل لوحاتـه الفنيـة، ولعلنـا نعلـم تلـك القصـة الغريبـة العجيبـة التـي كانـت بينـه وبـين صديقـه غاوغـان، واحتـدام الجـدل بينهـما عـلى أهميـة الرسـم في الطبيعـة مـن خـلال ضـوء الشـمس، وهـذا مـا يؤمـن بـه فـان جـوخ، والرسـم مـن الخيـال الـذي يؤمـن بـه الفنـان غوغـان، وقـد دعـا فـان جـوخ صديقـه للمكـوث معـه في البيـت الأصفـر؛ ليعيشـا معـاً، ويخططـا لمـشروع فنـي كبـير، لكـن الجـدل والنقـاش ظـل مسـتمراً حتـى حصـل مـا حصـل، وقطـع غوغـان أذن صديقـه، ورمـى بالسـكين في النهـر، بعـد أن تعاهـدا عـلى الصمـت حتـى لا يلحـق الـضرر بصديقـه، ويبقـى غوغـان مـع فـان جـوخ في مدينـة آرل الفرنسـية، لكنـه فضـل المغـادرة، وتـرك فـان جـوخ وحـده، ومنهـا انهـارت صحتـه، وأدخـل

المصحـة النفسـية بعـد عـلاج أذنـه المقطوعـة.

البحر وفنانو الخليج العربي:

لا يختلـف البحـر مـن بلـد لآخـر، فالبحـر هـو البحـر، وإنما تختلف القصـص باختـلاف الزمـان والمـكان، فمعظـم دول الخليـج العربيـة ملامحهـا متشـابهة إلى حـد كبـير، وحتـى القصـص تتشـابه، لكـن المختلـف هـو كيـف يتعامـل الفنـان مـع البحـر، فمنهـم مـن ذهـب لأعـماق البحـر، ومنهـم مـن ظـل عـلى السـطح متأمـلاً الجـمال والسـكينة، ومنهـم مـن راح يفتـش بـين أدوات البحـارة ليوثقهـا ويحفظهـا مـن الضيـاع.

الفنان عبدالله المحرقي- البحرين

يعـدّ الفنـان القديـر عبدالله المحرقي، مـن مملكـة البحرين، أحـد أهـم الفنانـين المعاصريـن في الخليـج العـربي، واختـار الغـوص مـع معانـاة البحـار في أعـماق البحر.

لوحـة «مأسـاة غـواص»: تعـد هـذه اللوحـة مـن أشـهر وأهـم اللوحـات التـي أبدعتهـا ريشـة الفنـان عبدالله المحرقـي، حيـث جسـد فيهـا رحلـة الغـوص بأسـلوب تكعيبـي مبسـط، وهـذا مـا مميـز المحرقـي منـذ بداياتـه التكعيبيـة الرمزيـة، وتبـين هـذه اللوحـة مكانـة البحـر في قلـب المحرقـي وذاكرتـه، والـذي يعـد مصـدر إلهامـه، وحينـما يقـف أمـام تلـك اللوحـة ليشرحهـا يبـكي عـلى البحـارة الذيـن فقـدوا أجـزاء مـن أعضائهـم، نتيجـة تلـك المخاطـر التـي يواجهونهـا في أعـماق البحـر طلبـاً للـرزق، حيـث عـاش مـع والـده فـترة مـن الزمـن في رحلتـه مـع البحـر، وفي رحلاتـه القصـيرة في البحـر بـين البحريـن ورأس تنـورة والخبـر في المنطقـة الشرقيـة مـن المملكـة العربيـة السـعودية، كان يسـتمع لكثـير مـن القصـص مـن والـده عـن أهـوال البحـر، فتكونـت لديـه العديـد مـن الأفـكار، ليقدمهـا بقالـب فنـي مدهـش، والتـي نـال مـن خلالهـا جوائـز محليـة وعالميـة، ومـن أهمهـا الجائـزة الدوليـة الأولى في معـرض جرولـو دورو في إيطاليـا عـام 1980م، وكذلـك جائـزة الدولـة التقديريـة.

الفنان أيوب حسين الأيوب- الكويت

يعـد الفنـان التشـكيلي الكويتـي الراحـل أيـوب حسـين الأيـوب، أحـد أهـم الفنانـين في الكويـت والخليـج العـربي، حيـث رسـم أكـثر مـن سـتمئة لوحـة تشـكيلية عـن تـراث الكويـت، ويعـد أكـثر فنـان وثـق حركـة الحيـاة في الكويـت في الفـترة الماضيـة؛ أي مـا قبـل النفـط، حيـث أوقـف

ريشـته وألوانـه لرسـم اللوحـات الفنيـة التـي تحفـظ المناسـبات الاجتماعيـة والألعـاب الشـعبية والبيـوت داخلهـا وخارجهـا بكامـل تفاصيلهـا المعماريـة والحياتيـة، والمهـن والحـرف الشـعبية والمـزارع والبحـر.

فقـد كان الفنـان أيـوب حسـين يعيـش تلـك الحقبـة مـن الزمـن، زمـن الـرواد، وسخّـر موهبتـه الفنيـة لأكـثر مـن خمسـين عامـاً عـلى رسـم تـراث الكويـت بجميـع جوانبـه، وحينـما يـأتي لرسـم البحـر، كان يرسـم البحـارة عـلى ظهـر السـفينة، ويتنـاول في لوحاتـه وظيفـة كل شـخص بلباسـه وأدواتـه، ولم يكتـف بذلـك، فقـد رسـم جميـع أدوات صناعـة السـفينة، وجميـع أدوات البحـارة المسـتخدمة عـلى ظهـر السـفينة وأنـواع القـوارب، وكتـب بعـض القصـص التـي يعرفهـا عـن البحـر، ومـا سـمعه مـن البحـارة، كل هـذا القصـص ألهمتـه برسـم العديـد مـن اللوحـات الفنيـة المهمـة في تاريـخ الحركـة التشـكيلية في منطقـة الخليـج العـربي.

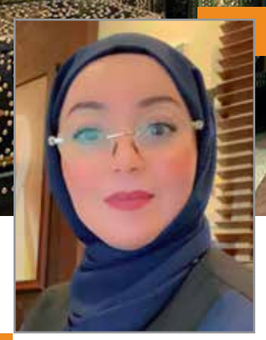

عائشة مصبح العاجل
كاتبة وإعلامية - الإمارات

مرود صدف

عيون لا تبارحها حبيبات (الأثمد) وسواد الليل المنزوي في ثناياها، مرآة الجمال حينها لا تتخطى مكحلة فضية أو نحاسية، معبأة بالكحل الأسود (الأثمد)، ومشط خشبي أو عاج، ومرآة صغيرة ذات أطراف حادة، هي بقايا ذات قيمة ذاك الزمان.

لم تكن علامات الزينة تشغل المرأة آنذاك، فأعباء كثيرة خلفها في البيت، خاصة بالنسبة لذوي الدخل المحدود، وكانوا الأغلب في الستينيات وبداية السبعينيات، كن يغسلن شعرهن على ضفاف البحر، كن يمتشطن جماعات وبالدور ملتحفات بعتمة الليل عن عيون الفضوليين من الرجال، كن يستلفن أثواب الفرح، ويضعن الحناء المعجون بعطر الورد، يتفنن في تشكيله بباطن أكفهن على أشكال قوارب وشراع ونجمة وهلال، يصبغن الأظافر بالحناء والعمر بالزهو والفرح في حدوده التي كانت تمثل لهن فضاء شاسعاً من الأمنيات.

كن زاهدات في البحث عن الجمال والزينة، كان الجمال قيمة، وله أكثر من معنى تربين عليه، وأصبح سلوكاً متوارثاً، يبدأ من الذات، حيث تشكلت ذواتهن بالجمال من بساطة التراكيب المحيطة، فرائحة الأرض عطر وترابها بخور، وسماؤها فرجة تتكحل بها العيون، وبحارها قصيدة ارتحال، وشواطئها فسحة الأمان على رمال الزعفران.

كن جميلات بالفطرة، يُدرنَ البيوت، ويُسندن أمهاتهن بالطبخ والتنظيف وجلب الماء والحطب، وكُنَّ خير مثال وعون للعَاصة والباحثين من الرجال عن لقمة تسد جوعهن آخر النهار.

متأهبات بزينتهن وعطرهن، رافعات سعفات النخيل عالياً، منتظرات عودة المسافر البعيد، حيث تسكن الصعاب. مقدرات للعناء والعذاب، مدركات أن الحياة مشاركة، وأن الجمال قصيدة انتظار.

المرأة لم تكن وجهاً جميلاً فحسب، بل هي كيان مزخرف ومعطر بالجمال والنفائس من الأخلاق والقيم.

المرأة لم تكن منشغلة إلا بالصور التي خلفتها الأمهات والجدات، فهي صورة معكوسة عن ذواتهن، عن غطاء الرأس والجدائل الملتفة بورقات المشموم والريحان، عن الأكف المغمسة بماء الحناء، عن فضاء بيوتهن الذي يشي بالسكينة والألفة والوئام.

مفارقة تلك المرأة التي تشبه أرضها والسماء، وتشبه المكان، ومفارقة امرأة اليوم التي لا تشبه إلا صوراً مبروزة ليس لها عنوان، فعن أي جمال نحكي وعن أي زمان؟!

على درب الأولين

ريم سيف سلطان
باحثة - معهد الشارقة للتراث
فرع دبا الحصن

ليست مجرد تقاليد متوارثة، بل هوية وطن، وقيم اجتماعية سلوكية، حيث يمثل «السنع»، وهو مصطلح محلي، مجموعة القواعد والسلوكات، بالإضافة إلى المفاهيم والعادات والتقاليد التي اعتادها أفراد المجتمع في الإمارات، والتي يستخدمونها في تعاملهم اليومي وعلاقاتهم الإنسانية، ويتوارثونها جيلاً بعد آخر، يحلو للبعض تعريف «السنع» بأنه «فن الإتيكيت الإماراتي»، أو فن التعامل مع الآخرين استناداً إلى قيم وأعراف إماراتية متوارثة من الآباء والأجداد.

تتنوع آداب السنع، فمنها سنع المجالس، وفيها آداب التحية والمصافحة، بالإضافة للمخاشمة وآداب الحديث الذي تعرف باللباقة والذرابة، وغالباً ما يُترك صدر المجلس للشخص الأكبر سناً بين الموجودين. ويعد كمظهر من مظاهر الترحيب بالضيوف أيضاً تربع آنية البخور في المجلس، خاصة أن دلالات البخور والمبخرة إشارة إلى الكرم وحسن الضيافة، وغالباً ما تكون الفوالة عامرة بما لذ وطاب من الفواكه والتمور والحلويات وغيرها من أنواع الضيافة.

السنع في القهوة، حيث يطوف «المقهوي» على الضيوف مبتدئاً باليمين، أما إذا كان بين الموجودين رجل كبير في السن أو ذو مقام كبير، فالسقاية تبدأ به، وتكون الدلة باليد اليسرى والفناجين باليمنى، ولا تزيد على ثلاثة فناجين، ومقدار صب القهوة تكون بقدر ثلث الفنجان، وعند الاكتفاء من شرب القهوة يتم هز الفنجان، ومن الآدب ألّا يزيد عدد الفناجين التي يشربها الضيف على أربعة فناجين، كما لا يجوز للضيف أيضاً رفض القهوة، يطلق على الفنجان الأول الهيف، والثاني الضيف، والثالث الكيف، والرابع السيف.

أما سنع تبادل الزيارات مثل تحري الأوقات المناسبة للزيارة، وتجنب أوقات القيلولة أو أوقات تناول الطعام المعتادة، والحصول على موعد مسبق للزيارات في المنزل، والالتزام بالحضور من الموعد المحدد من قبل صاحب المنزل، وعند تسلم دعوة لحضور مناسبة اجتماعية، يكون عدم الحضور غير المقبول دون اعتذار مقبول.

لم تقتصر أهمية السنع على المجالس الإماراتية؛ بل انعكست على التعليم أيضاً، وعلى احترام الأكبر سناً، والإخلاص للآخرين، وكرم الأخلاق، والأمانة والتطوع، بالإضافة إلى آداب الطعام والترابط والتكاتف، واحترام المهنة والعمل اليدوي، وحب الغير والإيثار.

وفي النهاية، يمثل السنع عدداً من القيم المجتمعية والسلوكية بين أفراد المجتمع، والتي تمثل الشخصية الإماراتية المعاصرة، والتي اعتاد الإماراتيون ممارستها خلال فترات حياتهم السابقة، وأصبحت جزءاً من ملامح هويتهم الوطنية.

الملاحم البطولية أداء استعراضي على قائمة التراث الثقافي لـ «اليونسكو»

سارة إبراهيم - مراود

تحظى الملاحم البطولية في أصقاع دول العالم بأهمية بالغة لشعوبها، فهي تلك التي تبرز بطولاتهم ومآثرهم وانتصاراتهم، ورغم أن بعضها ما هو إلا قصص وخيال اجتمعت مع بعض الأساطير، لكنها تظل ذات قيمة ثقافية ورمزية مرتبطة بالهوية الوطنية، ولأن بعضها ارتبط بالإنشاد والغناء، فإن الحفاظ عليها ضرورة للذاكرة التاريخية والفنية.

من الفنون الملحمية التي أدرجتها منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) على قائمة التراث الثقافي غير المادي، الذي يحتاج لصون عاجل، كان فن تولي (Tuuli) المنغولي في عام 2009م. وفن غوسلي (Gusle) الصربي الذي سجل في 2018م على القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية. وفن أوبرا يوجو (yueju) الصيني الذي سجل في 2009م على القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي للبشرية.

وتولي (Tuuli) المنغولي هو تقليد شفهي يتألف من ملاحم بطولية تمتد من مئات الأسطر إلى الآلاف، وتجمع بين البركات والتأبين والتعاويذ والقصص الخيالية والأساطير والأغاني الشعبية، وهو بذلك نوع من الفنون التقليدية التي تعتبر موسوعة حية للتقاليد الشفهية المنغولية، التي تخلد التاريخ البطولي للشعب المنغولي، وتُؤدى الملاحم خلال العديد من المناسبات الاجتماعية والعامة كحفلات الزفاف والمهرجانات وحتى الأماكن المقدسة، وهي تعكس أنماط الحياة البدوية والسلوكات الاجتماعية.

ولأن الملاحم البطولية تلك تتألف من المئات من الأسطر، فذلك يعني أن لمغنيها ذاكرة قوية تمتزج بقوة الأداء الغنائي والارتجال الصوتي والموسيقي، وأحياناً المسرحي، فتتم تأدية الملاحم الشعرية بمرافقة موسيقية على آلات مثل مورين خور (khuur morin)، وتوفشور (tovshuur) وتنتقل تقنيات الغناء الملحمي والموسيقي من جيل لجيل، كونها تعتبر قيمة تاريخية وثقافية ذات علاقة وطيدة بالوعي بالهوية الوطنية لديهم.

الغناء بمرافقة آلة Gusleفي صربيا، لا يختلف عن سابقه، بكونه أحد أشكال الاعتزاز بالقيم والهوية الوطنية، من خلال الأداء الغنائي والموسيقي للملاحم البطولية، وتعتبر غوسلي آلة وترية بسيطة يمارس العزف عليها رفقة الغناء، ويفرض ذلك التفاعل بين الجمهور وفنان الأداء الذي لابد أن يكون، أو يكونون، ذوي مهارات إبداعية تجسد تمثيلياً المحتوى

الشعري من خلال لغة الجسد والقبول كمفتاح للأداء الناجح.

الغوسلارز guslars هم مؤدو هذا النوع من الفنون، الذي توارثوه أو تعلموه من خلال مدارس موسيقية في البلاد، حيث بات هنالك اتحاد لهم في صربيا، ومهرجان للمغنين الشباب من الغوسلارز، وجمعية أيضاً.

تقام العروض المسرحية محلياً وفي المهرجانات، وكجزء من ممارسات إحياء الذكرى التاريخية، وتتناول الأغاني مجموعة واسعة من الموضوعات التي تعكس نظام القيم للمجتمع، وتعزز الشعور المجتمعي.

أوبرا يوجو في الصين، وتحديداً مقاطعات غوانغدونغ وقوانغشي الناطقة بالكانتونية في جنوب شرق الصين، هي أوبرا تجمع بين تقاليد أوبرا الماندرين واللهجة الكانتونية. وتحظى أوبرا يوجو بشعبية في جميع أنحاء الصين، وتوفر رابطة ثقافية بين المتحدثين باللغة الكانتونية في البلاد وخارجها، فهي نقطة فخر لأصحابها.

وتتميز أوبرا يوجو بمزيج من الآلات الوترية والآلات الإيقاعية، مع أزياء مسرحية متقنة ورسوم على الوجه، مما يجسد مشاهد ملحمية عالية المستوى من الأداء، ويشتمل الأداء المسرحي في الأوبرا على الأداء الصوتي الغنائي، والجسدي، والمعارك باستخدام أسلحة حقيقية، والاعتماد على فنون شاولين القتالية، وقد طور هذا الفن ليجمع القصص التي تراوح من الملاحم التاريخية إلى تلك التي تنتمي إلى الواقعية في الحياة اليومية.

لا تقتصر الأوبرا على المسارح الفخمة والمعدة خصيصاً لهذا الغرض، بل هي ملك للمجتمعات الريفية أيضاً، حيث تؤدى على المسارح المحلية البسيطة، وتعّبر عن الترفيه المرتبط بالهوية، كونه ذا ارتباط بالاحتفالات الدينية والاجتماعية، ولأهمية هذا الفن بات يدرّس في مدارس الدراما، وبرامج التدريب المهني.

الحياة
في كبسولة الفضاء

الكاتبة: نادرة سي روي لي
المترجم: عبدالرزاق دا رونغ تشيان
المراجع: جمال بن علي آل سرحان

في الـ24 من شهر إبريل من عام 1970، تم الإطلاق الناجح لأول قمر اصطناعي أرضي صيني (الأحمر الشرقي 1-). وفي السادس عشر من شهر إبريل عام 2022م، عادت المركبة الفضائية المأهولة (شنتشو13-) بنجاح وأمان إلى الأرض. بعد أكثر من 60 عاماً من الاستكشاف والتطوير، حققت شركة الصين للعلوم والتقنيات الجوفضائية قفزات هائلة واحدة تلو الأخرى، في طريق استكشاف أسرار الكون، والتحديث المستمر للسجلات الجديدة لرحلات الفضاء الصينية وإلى آفاقٍ جديدة.

مع تطور تكنولوجيا الفضاء العالمية، أصبح السفر إلى الفضاء لمشاهدة النجوم الجميلة في الفضاء أحد الموضوعات الساخنة في مجال تكنولوجيا الطيران. ليست التكنولوجيا الجديدة المتعلقة بالكبسولة الفضائية مثيرة للاهتمام فحسب، ولكن ما يثير الفضول أيضاً هو: كيف يعيش رواد الفضاء في حالة انعدام الوزن في كبسولة الفضاء؟

والسؤال الأكثر أهمية هو: كيف تبدو الحياة بالنسبة لرواد الفضاء في الفضاء؟

أولاً، وقبل كل شيءٍ، كيف نأكل؟ يُعد تناول الطعام مشكلة دائمة. في وقت مبكر من عام 1961، صار غاغارين السوفييتي أول شخص يُسافر في رحلة فضائية بشرية مأهولة. ولسهولة نقله، تناول طعاماً محمولاً قام العلماء بخلط اللحوم والمربى في هريس، ومن ثم تم وضعه في أنابيب من الألمنيوم. بعد ذلك، ابتكر العلماء الطعام المجفف المعاد ترطيبه من خلال تقنية التجفيف بالتجميد، لكن الطعم لم يكن جيداً. مع تطور العلم والتكنولوجيا، ابتكر العلماء

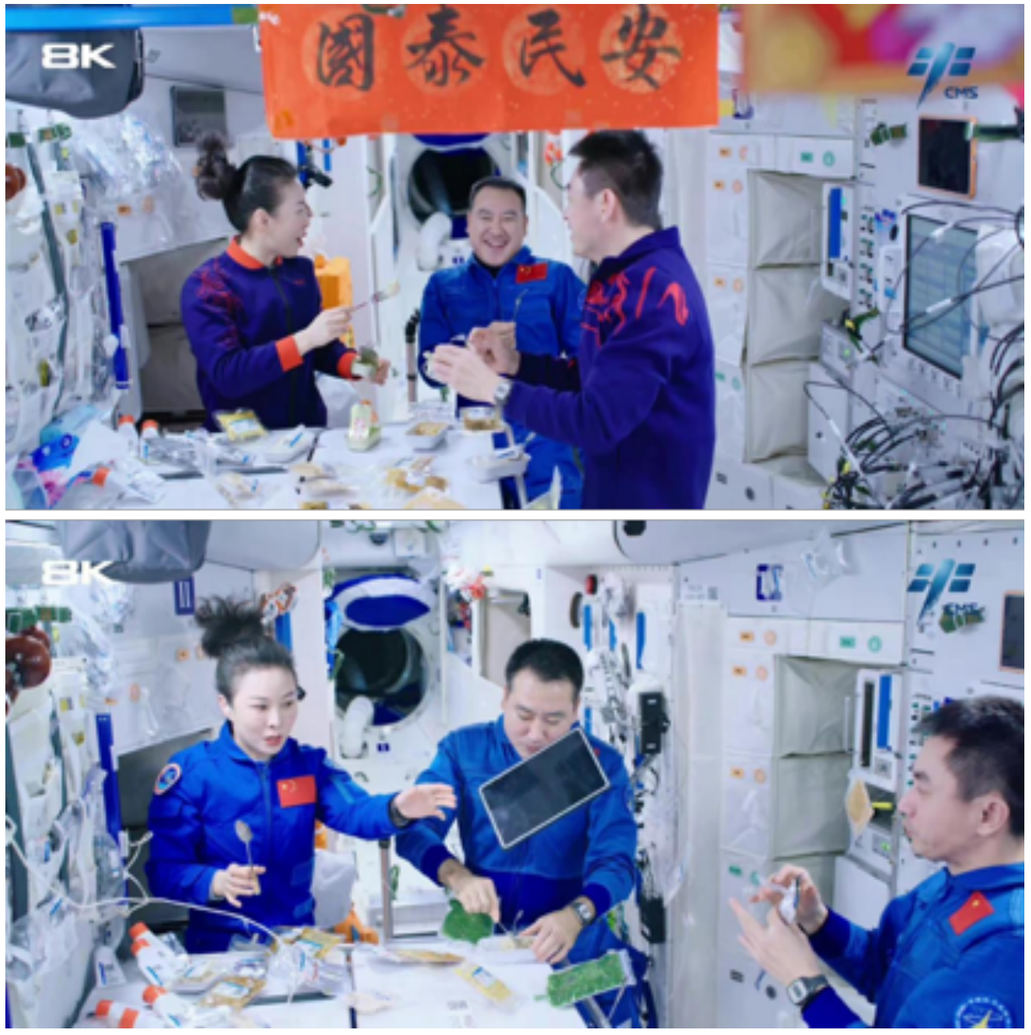

أكياس الطهي الدافئة، مثل اللحوم المشوية وفطائر الأرز والزونغزي (طعام تقليدي صيني يتكون من الأرز) وكعك الأرز اللزج، والتي يمكن الاحتفاظ بها في درجة حرارة الغرفة لفترة طويلة، بعد تعقيمها ووضعها في كيس الطعام. في الوقت الحاضر، أصبحت مساحة المحطة الفضائية أكبر، وأصبح لرواد الفضاء «مطبخهم الفضائي» الخاص بهم، والذي يمكن القول أساساً إنهم يستطيعون تناول الطعام بقدر ما يريدون.

ثانياً، كان نوم رواد الفضاء أيضاً مشكلة كبيرة؛ لأنهم كانوا في حالة انعدام وزن كاملة. من أجل ضمان جودة النوم، أعد كل من مكوك الفضاء ومحطة الفضاء الدولية أكياس نوم وأسرّة نوم لرواد الفضاء. فيما يتعلق بالنظافة الشخصية، ونظراً لظروف المساحة المحدودة، لا يمكن لرواد الفضاء سوى استخدام المناديل التي تستخدم لمرة واحدة، وجل الاستحمام لغسل الجسم الذي يستخدم لمرة واحدة، وما إلى ذلك للتنظيف الشخصي. فضلاً عن ذلك، تم حل كيفية الذهاب إلى المرحاض، وشرب المياه في الفضاء،

والاحتياجات المعيشية الأخرى لرواد الفضاء، من خلال المراحيض الفضائية، وأكياس المياه الفضائية، وغيرهما من المعدات.

أخيراً، فيما يتعلق بكيفية المشي في الفضاء، يقوم رواد الفضاء عموماً بتحريك أجسادهم بأيديهم أو بأجهزتهم في حالة انعدام الجاذبية، وليس بأقدامهم. من الصعب التحرك في الفضاء، فلا توجد جاذبية في الفضاء، ورواد الفضاء عادة ما تكون أجسامهم طافية، ويعتمد رواد الفضاء عموماً على الدفع لتحريك أنفسهم في الاتجاه المعاكس.

في المستقبل، سيطير كثير من رواد الفضاء إلى الفضاء، وستظهر كثير من العلوم والتقنيات لدعم بقائهم في الفضاء حسب ما تتطلبه الأوقات. دعونا نتطلع إلى ذلك معاً .

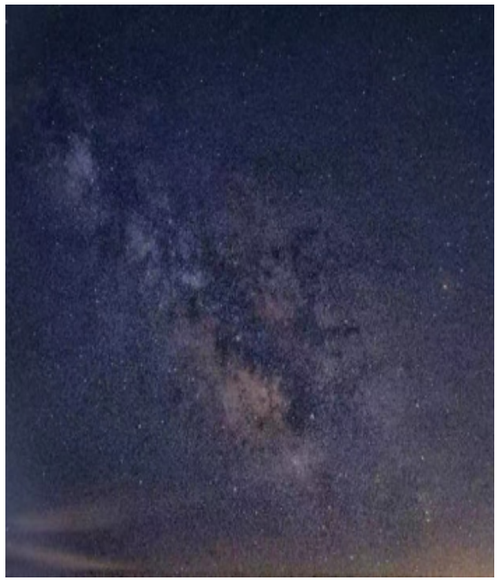

نشرة أخبار المعهد

إصدارات معهد الشارقة للتراث
Sharjah Institute For Heritage Publications

د. منّي بونعامة
مدير التحرير

عوالم البحر

يمثّل البحر عالماً خاصّاً يكتنز الكثير من الصور والرموز، ونُسجت حوله العديد من الحكايات العجائبية والغرائبية التي أبدعها المِخيال الشعبي العربي والإنساني الغني، والتمثّل الذكي لرموز الحكايات ودلالتها وارتباطها بواقع المجتمعات، وما ترمز له أو تحيل إليه من معانٍ ترتبط بحياة الناس في علاقتهم بالبحر. ومع ذلك، فإن كل شعب من الشعوب اتخذ في سرد حكاياته وعرضها شكلاً ولوناً مختلفين، وبخاصة ما يتعلق منها بالبحر، الذي شكّل عالماً خاصّاً لنسج القصص وسرد الحكايات، وهذا ما يسعى ملتقى الشارقة الدولي للراوي هذا العام للكشف عنه، وإبراز مدى دوره في إثراء المِخيال الشعبي، والذاكرة الجمعية، وترابط وتشابه هذا النوع من الحكايات في كل الثقافات، برغم اختلاف البنية الثقافية والخصوصية المحلية، والنسق المعرفي الذي تشكّلت تلك الحكايات في كنفه.

ويشتمل البحر في التراث الإماراتي على صور وعناصر ورموز وتجليات تكشف أهميته وحضوره، وعلاقة الإنسان الإماراتي به، وأوجه تلك العلاقة وتجلياتها وتمظهراتها في صور مختلفة، وذلك من خلال الغوص في أعماق البحر، وارتياد عوالمه العجيبة، لاستخراج ما يكتنزه من جواهر ودرر ثمينة، شكّلت في مجملها مادة ثرية للسرد الحكائي والإبداع الأدبي والفني في الإمارات على مدى عقود متتالية، فكانت حكايات البحر وسوالف أهل البحر، وحياة البحر، ومهن البحر وصناعاته (صناعة القوارب وأدوات الصيد، والغوص وأدواته وتاريخه، وحكايات النواخذة والطواويش...)، وفنون البحر، وكل ما يرتبط بالبحر من أمثال وأقوال وحكم، وعناصر ورموز تراثية؛ كلها محصّلة مهمة للاحتفاء بهذا التراث الزاخر والغني والمتنوع.

كما نسج المخيال الشعبي في الإمارات العديد من الحكايات البحرية المستوحاة من البيئة الإماراتية، بتعدّد مشاربها وألوانها وطبيعتها، فجاءت متناغمة مع حياة الناس، وانعكاساً للفضاءات المفتوحة على كل الاتجاهات، ومن تلك الحكايات التي اشتهرت في الإمارات، وتناقلها الرواة جيلاً بعد جيل: «بديحة»، و«بابا درياه»، و«سلامة وبناتها».. وغيرها كثير.

mini.abdelkader@yahoo.com

The sea and its connection to the lives of the people, is manifested in various forms. It appears in tales, proverbs, arts, chants, crafts, professions, seasons, and other Emirati and Gulf heritage elements. Moreover, people were giving their women the names of pearls, and other names all inspired by the maritime culture such as “Al-Fasht”, “Al-Sifa” and others. It had a great influence on people’s daily life and culture. This is what encouraged us to celebrate the sea and its enchanting worlds, and its wonderful and fantastic tales in this edition of Sharjah International Narrator Forum (SINF-2022). This celebration of the entire Arab Gulf states, which enjoy a rich heritage stock and a common historical heritage extending back to many centuries.

Therefore, we chose the sea as the slogan for the new edition of the Sharjah International Narrator Forum, celebrating the rich and diverse heritage related to the Emirati, Arabian and human heritage of tales.

The Sea & its Tales

The heritage in the Arabian Gulf region in general, including the emirates, deeply connected to the sea, which represented the source of livelihood and wealth over ages. Since long ago, close ties have arisen between the Emiratis and the sea, as their lives were linked to it, its worlds and the seasons of voyages. From it, they woven many folk and fairy tales that reflect that close connection with the sea. Many Heroes, characters and symbols related to the sea emerged by time bearing cultural and heritage features, such as divers, nowakhda, tawaash and others. In addirtion, many ancient maritime professions were formed such as fishing, coral stone mining, pearling, travelling across seas and oceans and other trades and professions.